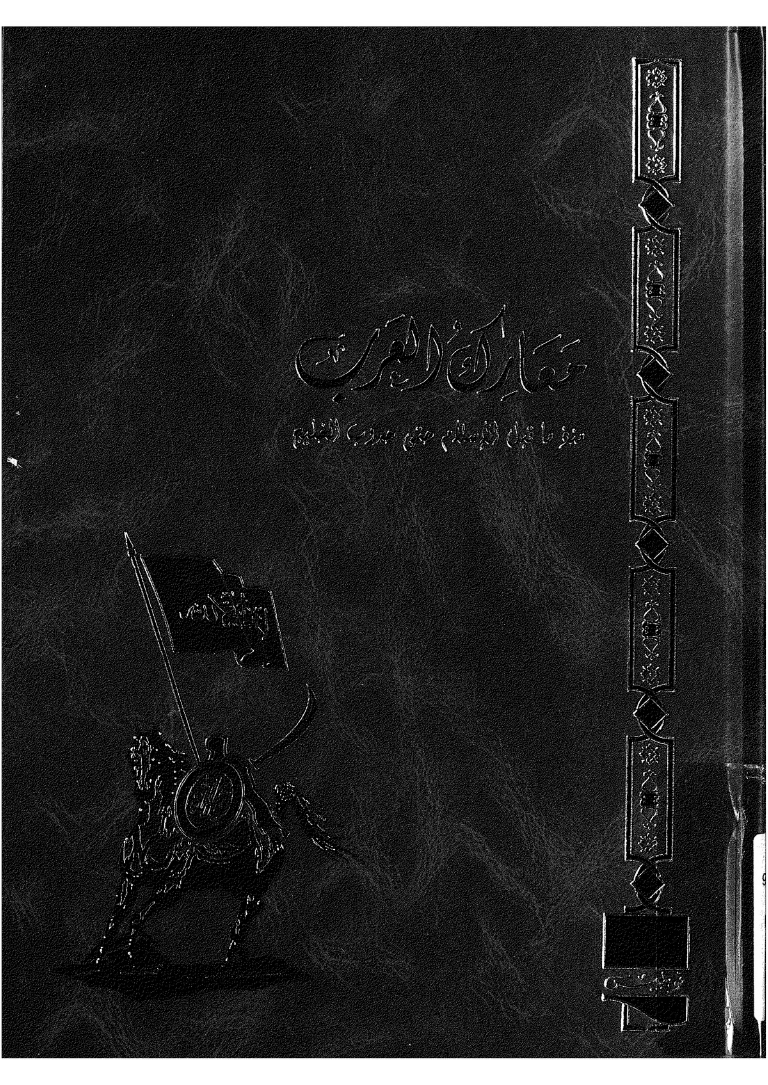


معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج

معارك العرب (1)

اسم الموسوعة	:	معارك العرب
		منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب	:	العرب في الجاهليّة
المؤلّف	:	العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب	:	20x28 سم
عدد الصفحات	:	224
عدد صفحات الموسوعة	:	5920
مكان النشر	:	بيروت - لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبليس
تلفاكس	:	961 1 58 34 75
هاتف	:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني	:	NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى	:	2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (1)

العرب في الجاهليّة

NOBILIS
2007

مقدّمة
الناشر

صحيح القول أن العرب المسلمين قدّموا لمجتمعاتهم وللعالم عطاءات جمّة في حقول الفنون والآداب والعلوم وسواها، تزخر بها المكتبات العربية والأعجمية، وتصنّف في مصاف الآثار الخالدة التي باتت مصادر معرفة وثقافة لكلّ الشعوب في كلّ زمان ومكان.

لكن هنالك جانباً بالغ الأهمية في تراثنا العربي لم ينل حقّه الوافي من الاهتمام والتركيز، للكشف عن كنوزه وبلورة صور العظماء من أعلامه وروّاده، ووضع أحداثه في مواقعها التاريخية الواضحة وتأثّرها بما يجري في محيطها، وكذلك تأثيرها في ما تلاها من تحوّلات وتداعيات.

هذا الجانب يتمثّل في ما أنجبته الشعوب العربية منذ فجر الإسلام من قادة كبار خاضوا العشرات، بل المئات، من المعارك الكبرى التي كان بعضها حاسماً في نشر الإسلام وفي الدفاع عمّا حقّقه من إنجازات في مختلف الميادين والحقول العمرانية والفكرية والدينية.

لذلك، وفي سياق نهجها القائم على إحياء كلّ تراث مفيد للإنسان في كلّ مكان، وانطلاقاً من رصدها كلّ جديد قد يفيد المكتبة العربية، وحرصاً منها على سدّ كلّ نقص يعتري هذه المكتبة ورفع كلّ غُبن أو إهمال يلحقان بأعلامنا وقادتنا التاريخيين الكبار... من أجل ذلك قرّرت دار نوبِليس إصدار هذه الموسوعة الشاملة الوافية.

نحن لا نزعم لأنفسنا أننا، بإصدار هذه الموسوعة قد أنجزنا جديداً غير مسبوق، إذ أن هنالك العديد من المؤلّفات والمراجع والدراسات والكتب التاريخية التي تروي سِيَر القادة العرب المسلمين وتصف المعارك الكبرى التي خاضوها وما حقّقوه من انتصارات وبطولات غيّر بعضها مجرى التاريخ ومسار الأحداث. لكننا نؤكّد بكلّ ثقة واقتناع، أننا أنجزنا عملاً إحترافياً بالغ الدقّة، إذ أسندنا مسؤولية إعداد هذه الموسوعة

إلى من هم أدرى وأوسع علماً وخبرة وممارسة، وتالياً، أهلية لتناول شؤون القادة والمعارك وفنون القتال، كونهم من ذوي الاختصاص، ومن الضباط العامين في الجيش اللبناني الذين خضعوا لدورات عسكرية في أبرز المعاهد والمدارس المختصّة في الولايات المتحدة وأوروبا والعالم.

فالعميد الركن سامي ريحانا (دكتور دولة في التاريخ) والعميد الركن جورج فغالي (ماجستير في التاريخ) والعميد الركن خضر الفغالي (ماجستير في التاريخ) والعميد الركن علي حرب (مجاز في العلوم الاجتماعية) هؤلاء، إضافة إلى اختصاصاتهم، قد مارسوا القيادة العسكرية، ودرسوا المعارك الكبرى في التاريخ العسكري، ونقّبوا في مئات المراجع والمصادر، وأشبعوا ما حصلوا عليه تدقيقاً وتحليلاً واستنتاجاً، حتى جاء عملهم نموذجاً في الشمولية والدقّة والأمانة والاحتراف.

إضافة إلى ذلك عمد المؤلّفون هؤلاء إلى تقييم كلّ معركة أو أداء قائد واستخلاص العِبَر منها في سياق نقدي حيادي ومجرّد عن كلّ ميل أو هوى أو نزوع.

من مرحلة ما قبل الإسلام، فعصر النبوة وعصور الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، إلى الدولتين الأيوبية والمملوكية في مصر وصراعهما ضد الفرنجة، مروراً بعهد الإمارات الإقطاعية في العصر العثماني، وصولاً إلى الحروب العراقية الثلاث، بعد الثورة العربية الكبرى والصراع العربي الإسرائيلي... المئات من المعارك والعشرات من القادة الذين تتناولهم هذه الموسوعة التي هي أقرب إلى أن تكون تاريخاً للعرب من خلال معاركهم وحروبهم.

وسيجد قارىء هذه الموسوعة أن الكثيرين من القادة العرب المسلمين عُرفوا بعبقرية عسكرية قيادية لا تقل مكانة عن قيادات تاريخية عالمية كان لهم الفضل الكبير في إرساء فنون القتال ومبادىء الحروب، فخلّدوا أسماء أممهم، إذ دوّنوا تاريخهم بفكرهم الرائد مثل ما كتبوه بانتصاراتهم العظيمة.

وفّقنا الله إلى كلّ ما يخدم قضايانا وينير الدرب لأجيالنا الطالعة، وهو سبحانه وتعالى وليّ التوفيق.

نبيل عبدالحق

صاحب دار نوبِليس

المقدّمة

من هم العرب؟

في تاريخ العرب القديم غموض حاول الكثيرون جلاءه، وفيه كثير من المغالطات التي حفلت بها التواريخ القديمة لاسيما أنّ هذا التاريخ سبق عصر التدوين. كما أنه، وبعد بروز الكتابة والتدوين، تأخّرت الشعوب العربية في إنجاز أدب نثري فيما عرفت عنها الفصاحة في ميادين الشعر عامة، وأحياناً الخطابة.

وتاريخ العرب القديم بقي مدّة طويلة مجموعة غرائب ومبالغات وأساطير بعيدة من المنطق. وسبب ذلك أنّ قدماء مؤرّخيهم درجوا على نقل هذه الأخبار من دون تمحيص أو تعريضها للمنطق العام للأحداث، وذلك خلافاً لرأي ابن خلدون، وهو القائل[1]:

«اعلم أن فن التاريخ فنّ عزيز المذاهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوّعة وحسن نظر... لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرّد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر

---

(١) ابن خلدون، المقدّمة، دار الفكر، جزء ١، ص ٧.

بالذاهب. فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق».

وفي العصر الوسيط، ورغم معرفة العرب بالعلوم الحديثة وخاصة العلوم التاريخية، فإن كتّابهم لجأوا إلى المزايدات والتفاخر بأسلافهم بما في ذلك من المبالغات البعيدة من التصديق[١].

وجاء الإسلام ومعه العلوم الحديثة والتدقيق في الروايات والاهتمام بأمور الدين والدنيا فصحّح الكثير من المغالطات والمبالغات.

كتب البلاذري[٢]:

«لقد عُني العرب منذ جاهليتهم، بالتاريخ عناية ملحوظة، بما في ذلك تأريخ أخبارهم وأحداث حياتهم ومفاخرهم...

ولقد مكّنهم الإسلام، والقرآن الكريم بما فيه من أخبار الأوّلين وقصص الأنبياء، من التوغّل في شعاب التاريخ المتباينة...

ثمّ تقدّم التأريخ في الإسلام باتساع الأحداث التي رافقت انتشار الدين، ولا سيما الحروب التي قامت بين المسلمين ومملكتَيْ الفرس والروم إبّان الفتوحات. وعُنيت طبقة ثانية من المؤرّخين بتسجيل أخبار هذه الأحداث وتدوين الأحكام والنظم التي استنّها الخلفاء...»

أمّا عن السؤال من هم العرب؟، فتمكننا الإجابة مع جرجي زيدان[٣] بأن العرب في التاريخ القديم هم سكان بادية العرب[٤]. ويدخل في هذه التسمية أهل البادية في القسم الشمالي من شبه جزيرة العرب وأهل الحضر في القسم الجنوبي منها. واستطراداً سكان البقعة الممتدّة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب[٥]. وتدخل في التسمية بادية الشام والعراق وشبه جزيرة سيناء.

ولفظة عرب في اللغات السامية مرادفة

---

(١) جرجي زيدان، المؤلّفات الكاملة، دار نوبليس للنشر، جزء ٢٨، ص ٥ - ٦.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، مؤسّسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص ١.

(٣) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ٤٢.

(٤) شبه الجزيرة العربية.

(٥) هيرودوتس، ١١٢.

لكلمة «بدو». لذلك كان العرب يسمون باديتهم «عربة»[١].

وأقدم إشارة تاريخية مدوّنة وردت فيها كلمة «عربي» تعود إلى السنة ٨٥٣ق.م. حيث وردت في نصٍ آشوري دوّن أحد انتصارات الملك شلمنصّر الثالث[٢].

وقد وصفنا العرب في الجاهلية بما يأتي[٣]:

«عاش العرب في الجاهلية ضمن مجتمع بدوي مغلق ومقسّم إلى قبائل متناحرة تملك كلّ المواصفات العسكرية التي أطلقناها على المجتمعات العسكرية عبر التاريخ. وينطبق على وضعهم النقّال قول الشاعر العربي:

«رُلى عَرَبٌ قُصورهُهمُ الخِيامُ
ومَـنـزِلُـهُـمْ حُـمَـاةٌ والشَـآمُ
إذا ضَاقَتْ بِهِمْ أَرجَاءُ أرضٍ
يَـطـيبُ بِـغَـيرِهَا لَـهُـمُ المُقَامُ
غُـزاةٌ يَـنـشُـدُونَ الـرزقَ دَومـاً
على صَهَواتِ خَيلٍ لا تُضامُ
غـرامُـهُـمُ مُـطارَدَةُ الأعـادي
وعِـزُّهُـمُ الأَسِـنَّـةُ والسِـهـامُ»

لذلك فإن التاريخ العسكري للقبائل العربية جاء حافلاً بالوقائع التي سنتكلّم عنها لاحقاً في هذه الموسوعة.

والعرب هم الذين تكلّموا العربية، وهي إحدى اللغات السامية، وهم من الشعوب السامية التي اعتبر المؤرّخون أن مصدر هجراتها شبه الجزيرة العربية، وأنها هاجرت شمالاً بعد أن ضاقت بها جنوب بلادها بعد خراب السدود وتراجع الزراعة وتكاثر السكان، وذلك على موجات أربع[٤]:

- الموجة الأولى، حوالى ٣٥٠٠ سنة ق.م، حملت الأكاديين إلى بلاد ما بين النهرين والذين عرفوا في التاريخ باسم البابليين.

(١) ياقوت الحموي، جزء ٣، ص ٦٢٣.

(٢) إبراهيم بيضون وسهيل زكار، تاريخ العرب السياسي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٠.

(٣) ريحانا، سامي، عميد، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٤) العميد الدكتور سامي ريحانا، شعوب الشرق الأدنى القديم، دار نوبليس للنشر، بيروت، ص٨٦.

- الموجة الثانية، حوالى العام ٢٥٠٠ ق.م، حملت الأموريين نحو السهول الشمالية لسوريا، والكنعانيين إلى سواحل سوريا ولبنان وفلسطين.
- الموجة الثالثة، بين ١٥٠٠ و١٢٠٠ سنة ق.م، حملت الآراميين إلى سوريا الداخلية والعبرانيين إلى فلسطين والأنباط إلى شمال سيناء.
- الموجة الأخيرة حصلت في القرن السابع الميلادي واعتُبرت امتداداً للدين الإسلامي إلى العالم الذي كان معروفاً يومذاك.

هذه الهجرة الأخيرة اعتُبرت امتداداً لتاريخ العرب في الجاهلية، وهي التي سنتابع درس وقعها على شعوب قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا في معارك نفّذها قادة عرب ومسلمون اعتبرت من أهم وقائع حروب تلك الحقبة من الزمن.

هذا في العصور القديمة.

أما في العصور الحديثة، فإن لفظة عرب تعني مواطني مجموعة الدول العربية التي تنتمي إلى جامعة الدول العربية. وهذه الدول اعتبرت أمة متجانسة لغةً وحضارة وتاريخاً.

القسم الأول

تاريخ العرب في الجاهلية



الفصل الأول
الأرض والشعب

تفرض الدراسات العسكرية الاستراتيجية، وقبل الدخول في ميدان معاركها وحروبها، دراسة الوسط حيث جرت هذه الحروب. وهذا الوسط يشمل ثلاث مقوّمات أساسية:

- الجغرافيا.
- الديموغرافيا.
- عوامل القدرة القومية.

فالجغرافيا تعني وصف الأرض التي شكّلت موطن الجماعات التي قامت بالحروب، مع ما فيها من غنى ومن صعوبات مناخية أو جيولوجية أو ما شابه. والديموغرافيا تعنى بالسكان وأوضاعهم ومفاهيمهم ودرجة تحضّرهم وثقافتهم وعصبياتهم وما شابه. أما عوامل القدرة القومية لدولة أو أمّة ما فتشمل العنصرين السابقين إضافة إلى القدرة العسكرية والإمكانات الاقتصادية. وكلّ ذلك يهدف إلى تكوين صورة واضحة عن الإمكانات العامة للشعب المعني بهدف تقويم إنجازاته السياسية والإدارية والعسكرية.

ضمن هذا الإطار سنعمد إلى دراسة بلاد العرب، أي شبه الجزيرة العربية، حيث عاشت القبائل والمجموعات في العصر الجاهلي واحتكّت ببعضها وجرت بينها وقائع وحروب داخلية دُعيت بـ«أيام العرب». كما تعرضت هذه القبائل لحروب خارجية واعتداءات من قبل إمبراطوريات ودول دافعت عن نفسها أمام تفوّق جيوش أعدائها إنْ بالتنظيم أو التسليح أو بالأعداد.

ودراستنا هذه ستشمل معارك العرب في صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية والدويلات التي انشقّت عنها في ما بعد. كما أنها ستشمل حروب المغرب العربي والأندلس والصراع ضدّ الصليبيين والإمبراطورية البيزنطية. وصولاً إلى الصراع العربي - الإسرائيلي وحروب العراق الثلاثة. لذلك فإن دراسة العوامل أعلاه سترافق عملنا تباعاً، بمعنى أننا سندرس جغرافيا وديموغرافيا مناطق العمليات، وعوامل القدرة القومية للشعوب التي نفذت الحروب العربية في المناطق المعنية بكلّ حرب أو معركة.

أولاً - جغرافيا بلاد العرب

في العصر الجاهلي، كانت لفظة بلاد العرب تعني شبه الجزيرة العربية التي تبدأ شرقاً بالخليج العربي من شواطىء عمان فالبحرين حتى مصبّ دجلة والفرات. شمالاً، يمتدّ جنوب سوريا الساحلية بما فيها لبنان وفلسطين والأردن حتى خليج العقبة. غرباً، يحدّها البحر الأحمر حتى باب المندب، وجنوباً بحر العرب من شواطىء اليمن وحضرموت حتى شواطىء عمان. وأدخل العرب في شبه جزيرتهم برية سيناء وفلسطين وسوريا.

ويرى جرجي زيدان أن البلاد التي كان يقطنها العرب اختلفت حدودها باختلاف العصور والدول. فمنذ الزمن القديم كانت تمتد من ضفاف الفرات شرقاً إلى ضفاف النيل غرباً، لأن بعض قبائلها كانت في عهد الفراعنة تضرب خيامها في البادية بين النيل والبحر الأحمر[١]. وهي على هذا تسمّى «جزيرة العرب» لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرافها[٢].

وقد أظهرت الحفريات الجيولوجية أنّ بلاد العرب كانت في حُقَب سابقة للإسلام بلاداً خصبة، خاصة جنوبها. لكنها تعرّضت تدريجياً وخلال عصور طويلة من التاريخ إلى

(١) زيدان، المرجع السابق، جزء ٢٨، ص ٤٠.
(٢) بيضون وزكار، مرجع سابق، ص ١١.

جفافٍ ترافق مع ازدياد في أعداد السكان، ممّا أدى إلى إهمال السدود والأقنية الزراعية وانهيار بعضها، ولاسيما أهمها سدّ مأرب الشهير. وهذا ما دفع بالسكان إلى القيام بهجرات عرفت بـ«الهجرات السامية» سبق الحديث عنها.

جاء في كتابنا «شعوب الشرق الأدنى القديم» عن مهد الساميين ما يلي[١]:

«مهد الجنس السامي ومرباه هي الجزيرة العربية. فمن هذه المنطقة الصحراوية، حيث ينمو الانسان قوياً وعنيفاً وبدوياً، والتي لا ينمو فيها زرع خصيب، تدفّقت الهجرات السامية نحو الشمال على دفعات لأقوام أشدّاء بعد أن ضاقت بهم الصحراء وواحاتها. ومن بقي منهم في بلادهم أوجدوا حضارة العرب والبدو في العصور الجاهلية وما قبل الإسلام».

وهؤلاء الأقوام الذين أوجدوا حضارة العرب هم موضوع دراستنا في هذه الموسوعة.

يتميّز ساحل الجزيرة العربية كلّه بجباله التي ترتفع من دون أن تبعد كثيراً عن البحر، ثمّ تنحدر إلى الداخل نحو هضبة ينمو في أطرافها زرع قليل هزيل، وتشغل باطنها أراضٍ من الرمال، شاسعة جرداء تدعى «صحراء العرب».

بالقرب من السواحل، أمكن قيام حياة أكثر استقراراً، كما أن الوحدات الخصبة كانت منذ أقدم الأزمنة موطناً لجماعات مستقرّة تعيش أساساً على التجارة المارّة بها على الطريق الممتدّة من الجنوب إلى الشمال، أي من اليمن إلى لبنان وسوريا وفلسطين.

قسّم العرب جزيرتهم إلى أقسام طبيعية، منها سلسلة جبال السراة التي تبدأ في اليمن وتمتدّ نحو الشمال حتى أطراف بادية الشام، مقسّمة الجزيرة إلى قسمين[٢]:

- قسم غربي، هو الأصغر ينحدر غرباً حتى البحر الأحمر.
- قسم شرقي يرتفع ويمتدّ حتى بلاد ما بين النهرين، مشكلاً هضبة واسعة تدعى «نجداً».

(١) ريحانا، مرجع سابق، ص ٨٢.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٨، ص ٤١.

علاوة على جبال السراة، هناك جبال ووهاد كثيرة، لاسيما على ساحلها الغربي، أشهرها جبلا أجا وسلمى موطن بني طيء، وجبال عرفات وأبو قبيس وحرّاء التي تحيط بمكّة المكرّمة، كما يرتفع جبل أُحَد شمالي المدينة المنوّرة[١].

بين الجبال أودية أهمها وادي القرى في الحجاز ووادي الرمّة في نجد حيث الأشجار والمياه.

إضافة إلى الجبال والأودية، تمتدّ في بلاد العرب صحارى واسعة مع رمال لاهبة لا تعرف المطر إلاّ لماماً، أشهرها الربع الخالي وصحراء النفود. فالربع الخالي يمتدّ على ربع الجزيرة العربية ولا يمكن للمسافر اجتيازه من الشمال إلى الجنوب وبالعكس، خوفاً من الضياع.

طقس شبه الجزيرة متغيّر وفق الفصول والمناطق. ففي جهات نجد يكون الجو معتدلاً بسبب الريح الشرقية المنعشة التي تعرف باسم «ريح الصبا». أمّا على سواحل البحر الأحمر فإنّ المناخ رطب وحارٌ.

تتعرّض الجزيرة لمواسم جفاف طويلة تمتدّ أعواماً تعقبها سيول جارفة. وصف البلاذري هذه السيول في مكّة المكرّمة فكتب[٢]:

«أمر السّيول بمكّة

«حدّثنا العبّاس بن هشام عن أبيه بن محمّد عن أبي خَرَّبُوذ المكّي وغيره قالوا: كانت السيول بمكّة أربعة، منها سيل أمّ نَهشَل، وكان في زمن عمر بن الخطّاب. أقبل السيل حتّى دخل المسجد من أعلى مكّة فعمل عمر الردمين جميعاً الأعلى بين دار بَبَّة (وهو عبدالله بن الحارث بن نَوفَل بن الحارث بن عبدالمطّلب بن عبد مناف الّذي وُلّي البصرة في فتنة ابن الزبير اصطلح أهلها عليه)، ودار أبّان بن عثمان بن عفّان والأسفل[٣] عند الحمّارين، وهو الّذي يعرف بردم آل أَسِيد، فترادّ السيل عن المسجد الحرام قال، وأمُّ نَهشل بنت عبيدة[٤] بن

(١) فيليب حتي، تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ص ١٦.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، مؤسّسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص ٧١.

(٣) ووردت في نسخة «ب»: هو الأسفل وهذا الأصح.

(٤) ووردت في الأزرقي، ص ٣٩٥: عبيد.

سعيد بن العاص بن أميَّة ذهب بها السيل من أعلى مكّة فنُسب إليها. ومنها سيل الجُحاف والجُراف في سنة ٨٠ في زمن عبدالملك بن مروان، صبح الحاجّ يوم اثنين فذهب بهم وبأمتعتهم وأحاط بالكعبة فقال الشاعر:

لَمْ تَرَ غَسَّانُ كَيَوْمِ الإِثْنَين
أَكْثَرَ مَحْزُوناً وَأَبْكَى لِلْعَيْن[١]
إِذْ ذَهَبَ السَّيْلُ بِأَهْلِ الْمِصْرَيْن
وَخَرَجَ الْمُخَبَّآتُ يَسْعَيْن
شَوَارِداً فِي الْجَبَلَيْنِ يَرْقَيْن

فكتب عبدالملك إلى عبدالله بن سفيان المخزومي عامله على مكّة، ويقال بل كان عامله يومئذ الحارث بن خالد المخزومي الشاعر يأمره بعمل ضفائر الدور الشارعة على الوادي وضفائر المسجد، وعمل الردم على أفواه السكك لتحصّن دور[٢] الناس. وبعث لعمل ذلك رجلاً نصرانياً فاتّخذ الضفائر وردم الردم الذي يعرف بردم بني قُراد وهو يعرف ببني جُمَح، واتُّخذت ردوم بأسفل مكّة. قال الشاعر:

سَأَمْلِكُ عَبْرَةً وَأَفِيضُ أُخْرَى
إِذَا جَاوَزْتُ رَدْمَ بَنِي قُرَادِ

ومنها السيل الذي يدعى المُخَبِّل[٣] أصاب الناس في أيّامه مرض في أجسادهم، وخَبَل[٤] في ألسنتهم فسمّي المُخَبِّل. ومنها سيل أتى بعد ذلك في خلافة هشام بن عبدالملك في سنة ١٢٠، يعرف بسيل أبي شاكر وهو مَسلَمَة بن هشام وكان على الموسم ذلك العام فنُسب إليه، قال: وسيل وادي مكّة يأتي من موضع يعرف بسِدرَة عتّاب بن أسيد بن أبي العيص. قال عبّاس بن هشام وقد كان في خلافة المأمون عبدالله بن الرشيد سيل عظيم بلغ ماؤه قريباً من الحجر، فحدّثني

(١) راجع الأزرقي صفحة ٣٩٦، ووردت في نسخة «ب»: العين
(٢) وردت في نسخة «ب»: دون - وهذا خطأ.
(٣) ووردت في نسخة «ب» المخبَّل (بفتح الباء).
(٤) الخبل: فساد الأعضاء، والفالج، والجمع خبول.

العبّاسي قال: حدّثني أبي عن أبيه محمّد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن عِكرِمة قال: درس شيء من معالم الحرم على عهد معاوية بن أبي سفيان فكتب إلى مروان بن الحكم وهو عامله على المدينة يأمره إن كان كُرز بن عَلقَمَة الخُزاعي حياً أن يُكلّفه إقامة معالم الحرم لمعرفته بها، وكان مُعمّراً فأقامها عليه، فهي مواضع الانصاب اليوم. قال الكلبي هذا كُرز بن علقَة بن هلال بن جُرَيبَة[1] بن عبد نُهْم[2] بن حُلَيل بن حُبشِيَّة الخُزاعي وهو الّذي قفا[3] أثر النبيّ ﷺ حين انتهى إلى الغار الذي استخفى فيه وأبو بكر الصّدّيق معه حين أراد الهجرة إلى المدينة فرأى عليه نسج العنكبوت ورأى دونه قدم رسول الله ﷺ فعرفها فقال[4] هذه قدم محمّد ﷺ وها هنا انقطع الأثر».

ولم يسجّل خلال تاريخ بلاد العرب وجود أي نهر دائم الجريان، لذلك كان السكان يعتمدون على السيول الموسمية التي تجري في الوديان واضعين السدود لحفظ مياهها لاستعمالها في فصل الجفاف الطويل. أهم هذه السدود في اليمن سدّ مأرب الشهير الذي يجمع مياه سيل العرم.

أ - أقسام شبه الجزيرة:

عن أقسام شبه الجزيرة كتب جرجي زيدان[5]:

«واختلفت أقسامها أيضاً باختلاف الأعصر. فكانوا يقسمونها قديماً - باعتبار طبائع أقاليمها - إلى البادية في الشمال والحاضرة في الجنوب. والبادية تشمل القسم الشمالي من تلك الجزيرة، من مشارف الشام إلى حدود نجد والحجاز. والقسم الجنوبي يشمل سائر جزيرة العرب، وفيها الحجاز ونجد واليمن وغيرها. ثمّ

(١) ووردت اللفظة في نسخة «أ» هكذا حوته، وفي نسخة «ب»: حويه.

(٢) ووردت في نسخة «أ» رُهم.

(٣) قفا أحدهم الأثر: أي تبعه وهو متخفّ.

(٤) ووردت في نسخة «ب»: وقال.

(٥) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ٤٠ - ٤١.

أضاف اليونان إلى هذين القسمين - قسماً ثالثاً سمّوه العربية الحجرية - أو بلاد العرب الصخرية Arabia Petra نسبة إلى بطرا في وادي موسى جنوبي فلسطين، فأصبحت بلاد العرب عند بطليموس القلوذي ثلاثة أقسام: البادية - بلاد العرب الصخرية Arabia Petra وبلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta وبلاد العرب السعيدة Arabia Felix. ومّما ذكره بطليموس من مدنها في ذلك العهد: تيماء وحويلة ودوماتة (دومة الجندل) وأورانا (حوران) وغيرها في البادية، وبطرا وبصرى وجرش وعمان وأذرع وليزا وغيرها في العربية الحجرية، وسبأ ومأرب وظفار وحضرموت وعمان والحجر وغيرها في العربية السعيدة. غير ما ذكره من أسماء القبائل والأمم، ومنها ما لم يعرفه العرب. وظلّ تقسيم بطليموس مرعياً في أوربا إلى عهد غير بعيد.

أما العرب فيقسّمونها إلى أقسام طبيعية باعتبار المواضع وأقاليمها. وأساس تقسيمها عندهم جبل السراة وهو أعظم جبال جزيرة العرب، عبارة عن سلسلة جبال تبدأ في اليمن وتمتد شمالاً إلى أطراف بادية الشام، فتقسم جزيرة العرب إلى شطرين: غربي وشرقي. فالغربي - وهو أصغرهما - ينحدر من سفح ذلك الجبل حتى يصل إلى شاطىء البحر الأحمر. وقد صار هابطاً أو غائراً فسمّوه الغور أو تهامة. والقسم الشرقي أكبرهما، يمتدّ شرقاً وهو على ارتفاعه مسافة طويلة إلى أطراف العراق والسماوة، فسمّوه نجداً لذلك السبب. وسموا الجبل الفاصل بين تهامة ونجد «الحجاز» وهو جبال تتخلّلها المدن والقرى. وجعلوا ما تنتهي به نجد في الشرق حتى يصل إلى خليج فارس بلاد اليمامة والبحرين وعمان وما والاها، ويسمّونها العروض. وسموا القسم الجنوبي وراء الحجاز ونجد بلاد اليمن وحضرموت والشحر.

فجزيرة العرب تقسم بهذا الاعتبار إلى خمسة أقسام كبرى: الحجاز، وتُهامة، ونجد، والعروض، واليمن. وكلّ منها يُقسم إلى أقسام اختلفت أسماؤها وحدودها باختلاف الأعصر والدول: فالحجاز يشمل كلّ شمالي جزيرة العرب والطائف وجدّة وينبع وغيرها. واليمن يشمل معظم بلاد الجنوب. ويعدّون حضرموت والشحر منها، وأشهر مدنها الآن

صنعاء وشبوة وغيرهما. وتُقسم اليمن إلى مخاليف - واحدها مخلاف.

ب - نبات شبه الجزيرة:

يساهم الجفاف في الحدّ من نموّ النبات في صورة عادية في أقسام شبه الجزيرة، باستثناء المناطق المعتدلة المناخ كاليمن والحجاز وأطراف البلاد. أشهر الأشجار في شبه الجزيرة هو النخيل الذي يكثر في الوديان والواحات وحيث توجد آبار الماء. هذه الواحات كانت عبر تاريخ العرب ما قبل الإسلام من أهم المناطق في بلادهم، مما أدى إلى التنازع على ملكيّتها بين القبائل العربية التي استغلّت الواحات لزراعة القمح لطعام أبنائها والشعير لماشيتهم. أمّا ثمار البلح فقد استعمل البدوي أنواعاً عديدة منها، كما استعمل حليب الإبل والضأن ولحومها. لكن الطعام الرئيسي كان التمر بلا منازع(١).

ج - الحيوانات:

انتشرت في بلاد العرب حيوانات متنوّعة أهمها الأسد والنمر والفهد والضبع والثعلب والضبّ والقرد التي ما زالت موجودة إلى الآن في بلاد اليمن(٢). والطيور المعروفة هي الكواسر كالعقاب والباز والصقر والبوم والغراب والقطا(٣).

وعرفت بلاد العرب الجراد الذي كان انتشاره يؤدّي إلى كوارث غذائية. أما الزواحف، فمتنوّعة أيضاً، كالحيّة وغيرها.

من الحيوانات الأليفة عُرف الجمل والحمار والبغل والكلب والهر والغنم والماعز، وأشهر حيوانات البادية هو الحصان الذي تميّزت منه أنواع عرفت بـ«الجياد العربية»، وكانت جميلة القوام، ذكية ومخلصة لصاحبها وسريعة العَدْو. لذلك استعملها البدوي في الغزو.

أما الجَمَل، سفينة الصحراء، فهو أهمّ الحيوانات المدجّنة في البادية. وهو الذي

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، جزء ٣، القاهرة، ١٩٣٠، ص ٣٠٩.

(٢) حتي، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٣) حمام بري.

جعل من الصحراء مسكناً للقبائل، إذ لولاه لما كان بإمكان سكانها التنقّل واجتياز المسافات الرملية الطويلة ونقل الأحمال الثقيلة. فالجمل رفيق البدوي، يشرب لبنه ويأكل لحمه ويكتسي بجلده ويستعمل وبره لخيمته. وهو حامل أثقاله ومؤمّن له الماء في الصحراء التي يحملها على ظهره فيما هو عطش محروم منها، وفق قول الشاعر:

«كالعيثِ في البيدَاءِ يَقتُلُهَا الظَمَا
والماءُ فَوقَ ظُهُورِها مَحمُولُ»

د - خلاصة عن جغرافيا بلاد العرب:

كانت شبه الجزيرة العربية أقلّ المناطق في الشرق الأدنى غِنًى وثراءً، بأرضها الواسعة من الصحاري والصخور التي تتخلّلها بعض الواحات. ثمّ إن افتقارها على طول سواحلها المديدة إلى موانىء طبيعية صغيرة أو كبيرة فرض عليها عزلة مطلقة، فلم ينفع توسّطها بين آسيا وأفريقيا في ان يجعل منها طريقاً للتجارة أو ممراً للشعوب المهاجرة. وكان مجيء التجار والجيوش وذهابهم مقصورين على منطقة البحر المتوسّط شمال الجزيرة العربية، بينما ظلّت الصحراء في عزلة غير متأثرة باضطرابات التاريخ، فاحتفظت بالخصائص المميزة لسكانها ولطريقة معيشتهم من دون تغيير. وحالت الدول القوية الحاكمة في الشمال (بابل، آشور وبيزنطية وفارس) زمناً طويلاً بين بدو الصحراء وبين الأراضي الخصبة التي كانوا يشتهونها. لكن اضمحلال سلطان بيزنطية وانهيار فارس في القرن السابع الميلادي أتاحا للعرب، وقد وحّد الإسلام بين صفوفهم، أن ينطلقوا من صحرائهم في تلك الموجة الكبيرة التي قدّر لها أن تكتسح في مدى عشر سنين إمبراطوريتين لهما من التاريخ الطويل ما جعلهما أبرز قوتين في آسيا الغربية طوال مئات السنين، أعني بهما الإمبراطورية البيزنطية والدولة الساسانية. كما أنّ هذه الموجة اقتحمت آسيا الوسطى والشرقية وشمال أفريقيا[1]، واجتازت مضيق أعمدة

(١) الذي دعي بـ«المغرب».

هرقل واحتلّت إسبانيا، وتابعت شمالاً حتى أبواب باريس.

ثانياً – السكان

نعني بالسكان الشعوب التي قطنت شبه الجزيرة العربية منذ العصور القديمة، وكوّنت القبائل العربية التي اشتهرت في الجاهلية[1] بصفات عديدة كالكَرَم وحسن الضيافة والإيثار والشجاعة وتحمّل المشقّات والفروسية، إضافة إلى الشعر الذي اعتُبر من أجمل ما كُتب شعراً في العالم القديم.

هؤلاء السكان الذين انقسموا إلى قسمين واضِحَيْ التمايز، أي البدو والحضر، عمّروا شبه الجزيرة لاسيما في الجنوب والسواحل البحرية وأقاموا صرح حضارة متطوّرة، وذلك قبل معرفتهم لدين التوحيد أي الإسلام. أما البدو، فقد جابوا الصحارى مع نوقهم وماشيتهم بحثاً عن المراعي والواحات الخصبة التي انتشرت في بلادهم، مشكّلين قبائل وبطوناً وأفخاذاً عُرف أفرادها بالفخر والعنجهية وروح الإباء.

هذه القبائل، وخلال تحركاتها بحثاً عن المراعي، اصطدمت بعضها ببعض فنشبت بينها معارك ووقائع في الجاهلية عُرفت بـ«أيام العرب». كما خاضت، غالباً منفردة وأحياناً مجتمعة، صراعاً ضدّ قوى خارجية حاولت الهيمنة عليها خاصة الإمبراطورية البيزنطية والمملكة الفارسية الساسانية.

هاتان القوتان الخارجيتان أقامتا، بهدف مدّ سيطرتهما على القبائل العربية، دولتين تابعتين لهما في السيادة، الأولى هي مملكة الغساسنة في البلقاء وحُوران وعاصمتها بصرى التي كانت تتبع الإمبراطورية البيزنطية أو دولة الروم. والثانية هي دولة المناذرة على مشارف الشام وعاصمتها الحيرة، وكانت تتبع في مرجعيتها المملكة الساسانية.

علاوة على هاتين الدولتين، عرفت شبه الجزيرة العربية، في مرحلة ما قبل الإسلام، دويلات عربية أخرى كدولة معين في شمال اليمن ودولة سبأ التي اتخذت مدينة مأرب عاصمة لها ودولة حِميَر في اليمن ودولة كندة في نجد ودولة كليب بن وائل التي

---

(١) دعا العرب الحقبة التاريخية التي سبقت قيام الإسلام باسم الجاهلية نظراً لجهلهم ديانة التوحيد.

توحّدت قبائل شمال بلاد العرب تحت قيادته وسيطرت على الشمال، وغيرها[١].

أما القبائل التي عرفت في التاريخ فعديدة وكثيرة جداً، لذلك سنتطرّق إليها في دراستنا تباعاً. وهذه القبائل التي أُلصقت بها صفة «البداوة» كانت سابقة على الحضر من العرب، وخاصة الدويلات التي ذكرنا.

كتب ابن خلدون عن سبق البداوة للحضر ما يلي[٢]:

«قد ذكرنا أن البدو هم مقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم. ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشىء عنه. فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلاّ إذا كان الضروري حاصلاً. فخشونة البداوة قبل رقّة الحضارة ولهذا نجد التمدّن غاية للبدوي يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها. ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج إلى الدِّعة وأمكن نفسه إلى قياد المدينة. وهكذا شأن القبائل المتبدية كلّهم. والحضري لا يتشوق إلى أحوال البادية إلاّ لضرورة تدعوه إليها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته. ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدّم عليه أنّا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه وأنّهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدِّعَة والترف الذي في الحضر. وذلك يدلّ على أنَّ أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنّها أصل لها فتفهمه. ثمّ ان كلّ واحد من البدو والحضر متفاوت الأحوال من جنسه، فرُبّ حيٍّ أعظم من حي وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمراناً من مدينة. فقد تبيّن أن وجود البدو متقدّم على وجود المدن والأمصار

---

(١) بيضون وزكار، مرجع سابق، ص ١٣ - ٣٠.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٩٧.

وأصل لها بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد الترف التي هي متأخّرة عن عوائد الضرورة المعاشية والله أعلم».

والبدو، كما يرى ابن خلدون، أقرب إلى الشجاعة من أهل الحَضَر، إذ جاء في مقدّمته[1]:

«والسبب في ذلك أنّ أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدَّعَة وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولّت حراستهم. واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد. فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة. وأهل البدو، لتفرّدهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يَكِلُونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفّتون عن كلّ جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع إلاّ غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ويتوجسون للنبأت والهيعات ويتفرّدون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ».

وهذا ما سنتبيّنه فعلاً عند معالجة الوقائع بين القبائل العربية.

سنعمد في هذا الفصل إلى التطرّق بإيجاز إلى الدويلات والقبائل العربية خلال عصور الجاهلية، وإلى المجتمع العربي الجاهلي ومفاهيمه العسكرية والاجتماعية والسياسية، وذلك بهدف فهم الواقعات والمعارك التي قامت بين أفراده وجماعاته وقبائله قبيل الإسلام.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٩٩.

الفصل الثاني

العرب البائدة أو عرب الشمال في الطور الأول

قسّم المؤرّخون تاريخ العرب قبل الإسلام إلى قسمين كبيرين[1]:

- العرب البائدة أو عرب الشمال في الطور الأول.
- العرب الباقية.

والعرب البائدة هي التي زالت قبل ظهور الدعوة الإسلامية. أما العرب الباقية فقد صنّفت في مرحلتين، وذلك سنداً لبروز دولها أو قبائلها على الساحة وسيطرتها في منطقتها، المرحلة الأولى عنيت بها القحطانية أو دول الجنوب، والثانية العدنانية أو عرب الشمال في الطور الثاني[2].

والمعروف أنّ العرب قبل الإسلام مروا بمراحل ثلاث، كانت السيادة في كلّ منها لعرب، قسم من القسمين، الجنوبي أو الشمالي. في الدور الأول أو القديم كانت السيادة لعرب الشمال في الطور الأول من تاريخهم. وفي الدور الثاني، أي المتوسّط، كانت السيادة لعرب الجنوب وأكثرهم من القحطانية. والدور الثالث أو الأخير، ساد عرب الشمال مجدداً وكانت مرحلة انتقالية قبل ظهور الإسلام، وكانت معظم قبائلهم من العدنانية.

---

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٧ - ١٠.

(٢) القحطانية نسبة إلى قحطان، والعدنانية إلى عدنان، وهما جدا العرب.

أولاً – الطبقة الأولى

العرب البائدة أو عرب الشمال في الطور الأول:

خلال المرحلة القديمة من تاريخ العرب ما قبل الإسلام برزت العرب العاربة، وهم الذين سمّوا بالعرب البائدة ويتحدّرون من نسل سام بن نوح. وكانوا في شمال شبه الجزيرة العربية ولهم ملوك وقصور وحضارة، إلى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان[1]. وعرف منهم العماليق أو العمالقة، وعاد وإرم ذات العماد وثمود، وطسم وجديس ومملكة بطرا للأنباط ومدينة تدمر.

من هؤلاء من بادوا ومنهم من ظلّت عاصمتهم إلى حُقَب لاحقة كبطرا وتدمر.

وفي هذه المرحلة بنى إبراهيم وابنه إسماعيل[2] الكعبة. كتب الطبري عن بناء الكعبة وانبعاث الماء من بئر زمزم ما يلي[3]:

«ثمّ إن الله عزّ وجلّ أمر إبراهيم بعدما ولد له إسماعيل وإسحاق – فيما ذكر – ببناء بيت له يعبد فيه، ويذكر. فلم يدرِ إبراهيم في أيّ موضع يبني، إذ لم يكن بيّن له ذلك، فضاق بذلك ذرعاً، فقال بعض أهل العلم: بعث الله إليه السكينة لتدلّه على موضع البيت، فمضت به السكينة، ومع إبراهيم هاجر زوجته وابنه إسماعيل، وهو طفل صغير.

وقال بعضهم: بل بعث الله إليه جَبرائيل عليه السلام، حتى دلّه على موضعه وبيّن له ما ينبغي أن يعمل.

ذكر من قال: الذي بعثه الله إليه لذلك السكينة.

«حدّثنا هنّاد بن السريّ، قال: حدثنا أبو الأحوص، عن سماك بن حرب، عن خالد بن عرعرة: أن رجلاً قام إلى علي بن أبي طالب، فقال: ألا تخبرني عن البيت، أهو أول بيت وضع في الأرض؟ فقال: لا، ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم، ومَن

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٥٩.

(٢) اسماعيل هو الجد الأعلى للعرب.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ١، ص ١٥٢.

دخله كان آمناً، وإن شئت أنبأتك كيف بُني. إن الله عزّ وجلّ أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتاً في الأرض، فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً، فأرسل عزّ وجلّ السكينة، وهي ريح خَجُوج ولهذا رأسان، فاتّبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة فتطوّت على موضع البيت كتطوّي الحية. وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقرّ السكينة، فبنى إبراهيم وبقي حجَر. فذهب الغلام يبني شيئاً، فقال إبراهيم: أبغِني حجراً كما آمرك؛ فانطلق الغلام يلتمس له حجراً، فأتاه به فوجده قد ركّب الحجر الأسود في مكانه. فقال: يا أبت، مَن أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به مَن لم يتّكل على بنائك، أتاني به جبريل من السماء فأتماه».

حدّثنا ابن بشار وابن المثنى، قالا: حدّثنا مؤمّل، قال: حدّثنا سفيان عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرّب، عن عليّ عليه السلام قال: لمّا أُمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر. فلمّا قَدِم مكّة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس، فكلّمه؛ وقال: يا إبراهيم، إبنِ على ظلّي - أو على قَدري - ولا تزد ولا تنقص. فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إلى مَن تَكلُنا؟ قال: إلى الله. قالت: انطلق فإنه لا يُضيعنا، قال: فعطش إسماعيل عطشاً شديداً، فصعدت هاجر إلى الصفا، فنظرت فلم تر شيئاً. ثمّ أتت المروة فنظرت فلم تر شيئاً. ثمّ رجعت إلى الصّفا، فنظرت فلم ترَ شيئاً، حتى فعلت ذلك سبع مرات، فقالت: يا إسماعيل، مُت حيث لا أراك، فأتته وهو يفحص برجله من العطش، فناداها جبرائيل. فقال: مَن أنت؟ قالت: أنا هاجر، أم ولد إبراهيم، قال: إلى مَن وَكلَكما؟ قالت: وكلنا إلى الله، قال: «وكلكما إلى كافٍ». قال: «ففحص الغلام الأرض بإصبعه، فنبت زمزم، فجعلت تحبس الماء، قال: «دعيه، فإنها رواء».

أ - العمالقة:

كتب جرجي زيدان عن العمالقة ما يأتي[1]:

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ٥٤.

«يريد المؤرّخون بالعمالقة قدماء العرب، وخصوصاً أهل شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سينا الذين فتحوا مصر باسم الشاسو (البدو أو الرعاة)، ويُسمّيهم اليونان «هيكسوس». وأصل لفظ «العمالقة» مجهول، والغالب في نظرنا أنهم نحتوه من إسم قبيلة عربية كانت مواطنها بجهات العقبة أو شماليها - حيث كان العماليق على قول التوراة - ويسمّيها البابليون «ماليق» أو «مالوق» فأضاف إليها اليهود لفظ «عم» أي الشعب أو الأمة فقالوا: (عم ماليق) أو «عم مالوق»، فقال العرب عماليق أو عمالقة، ثمّ أطلقوه على طائفة كبيرة من العرب القدماء. وقد تقدّم أنّ النسّابين يرجعون بأنساب العرب البادئة إلى إرم، وينسبون العماليق إلى أخيه لاوذ».

ب - عاد وإرم ذات العماد:

تفرّق العماليق في جزيرة العرب قبائل وأفخاذاً، وأقاموا دولاً في الجنوب والغرب خاصّة ومنهم الآراميون الذين يعودون بنسبهم إلى إرم.

عن أنساب العرب البادئة، كتب المسعودي في مروج الذهب[1]:

«قسّم نوح الأرض بين أولاده أقساماً، وخصّ كلّ واحد بموضع...... سكن سام وسط الأرض من بلاد الحرم إلى حضرموت إلى عمان إلى عالج، فمن ولده إرم بن سام.

ومن ولد إرم بن سام عاد بن عوص بن أرم بن سام وكانوا ينزلون الأحقاف من الرمل.

وطسم وجديس إبنا لاوذ بن إرم وكانوا ينزلون اليمامة والبحرين وأخوهما عمليق بن لاوذ بن إرم، نزل بعضهم الحرم وبعضهم الشام، ومنهم العماليق...

وولد سام بن نوح ماش بن إرم، ونزل بابل على شاطىء الفرات فولد نمرود، وهو الذي بنى الصرح ببابل وملك خمسماية سنة وهو ملك النبط.

وولد أرفخشد بن سام شالخ، وولد شالخ فالغ، وهو جدّ إبراهيم عليه السلام، وعابر بن شالخ وابنه قحطان بن عابر وابنه يعرب بن قحطان...

(١) المسعودي، مروج الذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، جزء ١، ص ٣٦ - ٣٧.

وقحطان أبو اليمن كلّها... وهو أول من تكلّم العربية...».

أمّا ابن كثير فيرى أن[1]:

«جميع العرب ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام والتحية والإكرام. والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل إسماعيل، وقد قدّمنا أن العرب العاربة منهم عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وجرهم والعماليق. وأمم آخرون لا يعلمهم إلاّ الله، كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام، وفي زمانه أيضاً. فأما العرب المستعربة وهم عرب الحجاز فمن ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وأما عرب اليمن وهم حِميَر فالمشهور أنهم، من قحطان واسمه مهزم، قاله ابن ماكولا، وذكروا أنهم كانوا أربعة إخوة: قحطان وقاحط، ومقحط، وفالغ، وقحطان بن هود، وقيل: هو هود، وقيل: هود أخوه، وقيل: من ذريته. وقيل: إن قحطان من سلالة إسماعيل، حكاه ابن إسحاق وغيره، فقال بعضهم هو قحطان أهميسع بن تيمن بن قيذر بن نبت إسماعيل. وقيل غير ذلك في نسبه إلى إسماعيل والله أعلم».

جاء ذكر عاد في القرآن الكريم «عاد إرم ذات العماد». وقيل انها الاسكندرية وإنّها دمشق، وإن شداداً بن عاد هو الذي بناها.

لكن ابن خلدون يرى أنّ عاد ليست مدينة إنما هي اسم قبيلة من القبائل البائدة[2].

وفي تاريخ عاد مبالغات كثيرة عن غناها، وعن أنّ شداداً عاش ١٢٠٠ سنة وتزوّج من ألف امرأة، وأنه افتتح بلاد الشام والعراق ومصر الهند[3].

وقصّة عاد ذُكِرت في القرآن الكريم على سبيل العبرة لمّا أصابها بعد رفض تصديق النبي هود الذي دعا أهلها إلى عبادة الله فأبوا ذلك فأصابهم قحط مدّة ثلاث سنين، أعقبته زوابع وأعصار نزلت بهم فأهلكتهم. وبقي هود وجماعة ممن آمنوا به فعُرِفوا بعاد

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، طبعة ثانية، بيروت، جزء أول، ص ١٧٠.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٧١.

(٣) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ٨٥.

الثانية، وزُعم أنهم بنوا سدّ مأرب وبقي حكمهم ألف سنة، حتى غلبهم القحطانيون فلجأوا إلى حضرموت حتى انقرضوا[١].

- قادة من عاد:

ذكر المؤرّخون العرب أخبار ملوك عاد وقادتها مع مبالغات كبيرة، خاصة عاد وابنه شداد.

ولمّا كنا نهتم في هذه الموسوعة، ليس فقط بالتاريخ الإجتماعي والسياسي، إنما خاصة بالتاريخ العسكري، فسنورد في هذا السياق ما كتبه المسعودي عن قادة دولة عاد[٢]:

«عادُ الأولى:

ذكر جماعة من ذوي العناية بأخبار العالم أن الملك يؤثر من بعد نوح في عاد الأولى التي بادت قبل سائر ممالك العرب كلّها، ومصداق ذلك قوله عزّ وجل: ﴿وأنَّهُ أهْلَكَ عَاداً الأولَى﴾[٣]. فإنه يدلّ على تقدّمهم، وأنّ هنالك عاداً ثانية.

وأخبر الله عن ملكهم، ونطق بشدّة بطشهم، وما بنوه من الأبنية المشيدة التي تدع على مرّ الدّهور العادية.

عَادُ... أوّل مَلِك بعد نوح:

وعاد أول من ملك في الأرض في قول هذه الطائفة، بعد أن أهلك الله عزّ وجلّ الكفّار من قوم نوح، وذلك لقوله تعالى: ﴿واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعد قَوم نوحٍ وَزَادَكُم في الخَلق بسطةً﴾[٤].

وذلك أن هؤلاء القوم كانوا في هيئات النخل طولاً، وكانوا في اتصال الأعمار وطولها يحسب ذلك من القدر. وكانت نفوسهم قوية وأكبادهم غليظة، ولم يكن في الأرض أمّة هي أشدّ بطشاً وأكثر آثاراً وأقوى عقولاً وأكثر أحلاماً من قوم عاد. ولم يكن

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جزء ١.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، جزء ٢.

(٣) النجم: ٥٠.

(٤) سورة الأعراف: من الآية ٦٩.

الـهـلك يـعـرض في أجسـامـهـم، لـقـوّة آثـار الطـبـيـعة فيـها، وما أتوه من الزيادة في تمام البنية وكمال الهيئة، على حسب ما أخبر الله عزّ وجلّ.

نَسَب عاد وعِبادَتُه وأولادُه:

وكان عاد رجلاً جبّاراً عظيم الخلقة، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وكان عاد يعبد القمر. وذكروا أنه رأى من صلبه أربـعـة آلاف ولـد، وأنـه تـزوّج ألـف إمـرأة، وكـانت بـلاده مـتصـلـة بـالـيـمـن، وهي بلاد الأحقاف، وبلاد صحارى هي وبلاد عمان إلى حضرموت.

وقد ذكر جماعة من الإخباريين ممن عني بـأخـبـار الـعـرب أن عـاداً لما تـوسّـط الـعـمـر واجتمع له الولد وولد الولد، ورأى البطن العاشر من ولده، وظهور الكثرة مع تشييد الملك واستقامة الأمر، غمر إحسانه الناس، وقرى الضـيـف، وأحواله منتظمة، والدنيا عليه مقبلة، فعاش ألف سنة ومائتي سنة ثمّ مات.

وكان الملك بعده في الأكبر من ولده، وهو شـديـد بـن عـاد. وكـان مـلـكه خـمسـمـائـة وثمانين سنة، وقيل غير ذلك.

شداد بن عاد:

ثمّ ملك بعده أخوه شداد بن عاد وكان ملكه تسعمائة سنة. ويقال: إنه احتوى على سائر ممالك العالم، وهو الذي بنى مدينة إرم ذات العماد.

وهـذه عـاد الـثـانيـة الـتي ذكـرها الله تعالى فقال: ﴿أَلَم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ﴾[1]... وإلى هذه الأمّة انتهى البطش.

ولشداد بن عاد مسير في الأرض وطواف في الـبـلاد وبـأس عـظـيـم في ممالك الشـرق والغرب، وحروب كثيرة...».

ج - ثمود:

عن ثمود كتب المسعودي[2]:

«ثمود بن عابر بن إرم بن سام وكانوا ينزلون الحجر بين الشام والحجاز فأرسل الله إليهم أخاهم صالحاً..».

---

(١) سورة الفجر، الآيتين ٦ و٧.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٦.

وذُكرت ثَمود في القرآن الكريم مع عاد من حيث العِبْرة بعد أن رفضوا دعوة صالح لعبادة الرب الواحد. وعرف عنها أنها كانت في الحجر المعروفة بمدائن صالح، وفي وادي القرى بطريق الحاج الشامي إلى مكّة[1].

وذكرت ثمود في ذكر البلاد التي غلبها سرجون الأكادي سنة ٧١٥ ق.م. في الحجاز. ثمّ دخلت في حوزة النبطيين سكّان بطرا الذين نقشوا على قصورها بالحرف النبطي.

وعُرِف من قادة ثَمود ملكها الأول «عابر بن إرم بن ثمود» الذي ملك، وفق المسعودي، مائتي عام[2]. جاء بعده «جندع بن عمرو» وملك ثلاثماية وسبع وعشرين سنة، ولم يستجب لنداء النبيّ صالح.

د - طسم وجديس:

اقترن إسما طسم وجديس في تاريخ العرب كما اقترن إسما عاد وثَمود، وهما من إرم مثل سائر العرب البادئة، وكان سكنهما في اليمامة شرقي نجد، وطسم صاحبة السيادة.

وظلّ الوضع كذلك حتى انتهى المُلك إلى مَلك ظالم، كان يطلب أن لا تهدى بكر من جديس إلى زوجها حتى يدخل هو عليها. ثار أهل جديس عليه ودفنوا سيوفهم في الرمل ودعوه إلى مأدبة حيث قتلوه مع أتباعه. لكن أحد أتباعه، ويدعى حسان بن أسعد نجا من المجزرة فهرب إلى ملك اليمن واستنصره، فسار ملك اليمن إلى جديس وأفناها. وهكذا لم يبقَ من أخبار طسم وجديس ذكر[3].

كتب ابن الأثير هذه الرواية كالآتي[4]:

«كان طَسَم بن لوذ بن أزهر بن سام بن نوح وجديس بن عامر بن أزهر بن سام ابنَي عم، وكانت مساكنهم موضع اليمامة وكان اسمها حينئذ «جوّا» وكانت من أخصب

---

(١) أبو الفداء، جزء ١، ص ٧٠.

(٣) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٤٨.

(٣) أبو الفداء، جزء ٤، ص ٥٠١.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة، الجزء الأول، ص ٢٧١ - ٢٧٢.

البلاد وأكثرها خيراً. وكان ملكهم أيام ملوك الطوائف عمليق، وكان ظالماً قد تمادى في الظلم والغشم والسيرة الكثيرة القُبْح. وإن امرأة من جديس يقال لها «هزيلة» طلّقها زوجها وأراد أخذ ولدها منها، فخاصمته إلى عمليق وقالت: أيها الملك، حملته تسعاً، ووضعته دفعاً، وأرضعته شفعاً حتى إذا تمّت أوصاله، ودنا فِصاله أراد أن يأخذه مني كرهاً ويتركني بعده ورهاً!

فقال زوجها: أيها الملك إنها أُعطيت مهرها كاملاً، ولم أُصب منها طائلاً، إلاّ وليداً خاملاً فافعل ما كنت فاعلاً. فأمر الملك بالغلام فصار في غلمانه، وأن تباع المرأة وزوجها فيعطى زوجها خمس ثمنها وتعطى المرأة عشر ثمن زوجها. فقالت هزيلة:

أتينَا أَخَا طسمٍ ليحكُمَ بَينَنَا
فأنفذَ حكماً في هزيلة ظالِما
لعَمري لقَد حكمتَ لا مُتَوَرِّعاً
ولا كُنتَ فيمَن يُبرمُ الحُكمَ عالِما
نَدَمتَ ولَمْ أَندَم وإني بِعَثرَتي
وأصبَحَ بَعلِي في الحُكُومَةِ نادِمَا

فلمّا سمع عمليق قولها، أمر أن لا تُزَوَّج بِكْر من جديس وتهدى إلى زوجها حتى يفترعها[١]، فلقوا من ذلك بلاء وجهداً وذُلاًّ. ولم يزل يفعل ذلك حتى زُوِّجت الشموس وهي عفيرة بنت عباد أخت الأسود. فلمّا أرادوا حملها إلى زوجها انطلقوا بها إلى عمليق لينالها قبله ومعها الفتيان. فلمّا دخلت عليه افترعها وخلّى سبيلها، فخرجت إلى قومها في دمائها وقد شقت درعَها من قُبُل ودُبُر والدم يبين، وهي في أقبح منظر.

فلمّا شاهدها أخوها الأسود، وكان سيداً مطاعاً، قال لقومه: يا معشر جديس إن هؤلاء القوم ليسوا بأعزّ منكم في داركم إلاّ بملك صاحبهم علينا وعليهم. ولولا عجزنا لما كان له فضل علينا. ولو امتنعنا لانتصفنا منه. فأطيعوني فيما آمركم فإنه عِزّ الدّهر – وقد حمَى جديس لما سمعوا من قولها – فقالوا: نطيعك، ولكن القوم أكثر منا. قال: فإنّي أصنع للملك طعاماً وأدعوه وأهله إليه، فإذا جاؤوا يرفلون في الحلل أخذنا سيوفنا وقتلناهم. فقالوا: افعل.

(١) أي حتى يفض عمليق بكارتها.

فصنع طعاماً فأكثر وجعله بظاهر البلد، ودفن هو وقومه سيوفهم في الرمل، ودعا الملك وقومه. فجاؤوا يرفلون في حللهم، فلمّا أخذوا مجالسهم ومدّوا أيديهم يأكلون أخذت جديس سيوفهم من الرمل، وقتلوهم، وقتلوا ملكهم، وقتلوا بعد ذلك السَّفلَة.

ثمّ إنّ بقية طسم قصدوا حسان بن تُبع ملك اليمن، فاستنصروه، فسار إلى اليمامة. فلمّا كان منها على مسيرة ثلاث قال له بعضهم: إنّ لي أختاً متزوّجة في جديس يقال لها «اليمامة» تُبصِر الراكب من مسيرة ثلاث، وإني أخاف أن تنذر القوم بك، فمُر أصحابك فليقطع كلّ رجل منهم شجرة فليجعلها أمامه[1].

فأمرهم حسّان بذلك، فنظرت اليمامة فأبصرتهم، فقالت لجديس: لقد سارت إليكم حِميَر. قالوا: وما ترين؟ قالت: أرى رجلاً في شجرة معه كتف يتعرقها أو نعل يَخصِفُها - وكان كذلك -. فكذبوها فصبّحهم حسان فأبادهم، وأتى حسان باليمامة ففقأ عينها، فإذا فيها عروق سود. فقال: ما هذا؟ قالت: حجر أسود كنت أكتحل به يقال له الإثمِد، وكانت أول من اكتحل به. وبهذه اليمامة سُمِّيت اليمامة وقد أكثر الشعراء ذكرها في أشعارهم».

التقييم:

أ - إن عادة أخذ العروس من قبل الإقطاعي قبل عريسها كانت معروفة في كلّ المجتمعات البدائية. ففي أوروبا الإقطاعية مثلاً، كان الإقطاعي يملك حقّ الدخول على كلّ بِكْر تريد الزواج قبل دخول زوجها عليها. وهذا الحق كان يدعى بالفرنسية "Le droit de Cuissage ou de Jambage"

ب - استخدمت قبيلة جديس الخدعة للتخلّص من عمليق الظالم، فأخفى مقاتلوها سيوفهم في الرمل خلال المأدبة. ولمّا بدأ الناس بالطعام، أخذ هؤلاء سيوفهم وقتلوا الملك عمليق ورجاله أجمعين مطبقين استراتيجية: «الحرب خدعة».

(١) هي زرقاء اليمامة التي اشتهرت في التاريخ العربي.

عن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٥٢.

ج - أما ملك اليمن فانه أمر رجاله بالتموُّه، أي بإخفاء أنفسهم في أغصان شجر، قبل التقدّم نحو جديس، حيث توجد امرأة يمكنها الرؤية إلى مسافات بعيدة. والتمويه هو إحدى قواعد القتال التي يتخفّى بواسطتها المقاتلون عن أنظار العدو بانسجامهم مع الطبيعة في أرض المعركة، وهكذا يفيدون من عنصر المفاجأة الذي يعدّ حالياً من إحدى قواعد القتال أيضاً.

هـ - دولة الأنباط:

كان مقرّ دولة الأنباط في الجنوب الشرقي من فلسطين وصولاً إلى خليج العقبة، ويحدّها غرباً وادي العرابة، وجنوباً بادية الحجاز، وشرقاً بادية الشام. وهي دولة عربية بائدة لا ذكر لها في كتب العرب الأقدمين. وهي نفس مملكة الأدوميين. أرضها صخرية يسمّيها العرب «الصخرية» نسبة إلى عاصمتها بطرا أو الحجر[١].

أقدم من سكن بلاد العرب الصخرية الحوريون أو أهل الكهف الذين ذكرهم الطبري في تاريخه فكتب[٢]:

«وكان أصحاب الكهف فتيةً آمنوا بربّهم؛ كما وصفهم الله عزّ وجلّ به من صفتهم في القرآن المجيد؛ فقال لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾[٣]. والرقيم هو الكتاب الذي كان القوم الذين منهم كان الفتية، كتبوه في لوحٍ بذكر خبرهم وقصصهم، ثمّ جعلوه على باب الكهف الذي أَوَوْا إليه، أو نقروه في الجبل الذي أَوَوْا إليه، أو كتبوه في لوح وجعلوه في صندوق خلّفوه عندهم. إذ أَوى الفتية إلى الكهف.

وكان عدد الفتية - فيما ذكر ابن عباس - سبعةً، وثامنهم كلبهم».

ونام هؤلاء، وكانوا على دين عيسى بن مريم. وقيل إنهم ناموا قبل المسيح وأُقفل

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ٩٢.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٧٢.
(٣) سورة الكهف: الآية ٩.

عليهم الكهف وبقوا نائمين إلى الفترة ما بين المسيح (عليه السلام) والنبيّ محمّد ﷺ.

وروى ابن الأثير الطريقة التي استيقظوا فيها فكتب[1]:

«ثمّ إنّ راعياً أدركه المطر. فقال: لو فتحت باب هذا الكهف فأدخلت غنمي فيه، ففتحه فرد الله إليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا. فبعثوا أحدهم بوَرِق[2] ليشتري لهم طعاماً اسمه تلميخاً. فلما أتى باب المدينة رأى ما أنكره حتى دخل على رجل، فقال: بِعْنِي بهذه الدراهم طعاماً. فقال: فمن أين لك هذه الدراهم؟

قال: خرجت أنا وأصحاب لي أمس، فلما أصبحنا أرسلوني لأشتري لهم طعاماً. فقال: هذه الدراهم كانت على عهد الملك الفلاني. فرفعه إلى الملك، وكان ملكاً صالحاً فسأله عنها، فأعاد عليه حالهم، فقال الملك: وأين أصحابك؟ قال: انطلقوا معي. فانطلقوا معه حتى أتوا باب الكهف، فقال: دعوني أدخل إلى أصحابي قبلكم لئلا يسمعوا أصواتكم فيخافوا ظنّاً منهم أنّ دقيانوس قد علم بهم.

فدخل عليهم وأخبرهم الخبر، فسجدوا شكراً لله، وسألوه أن يتوفّاهم، فاستجاب لهم، فضرب على آذنه وآذانهم. وأراد الملك الدخول عليهم، فكانوا كلّما دخل عليهم رجل رُعِب فلم يقدروا أن يدخلوا عليهم؛ فعاد عنهم؛ فبنوا عليهم كنيسة يصلّون فيها».

ازدهرت مدينة بطرا في نهاية القرن الرابع ق.م. وبقيت حوالى ٤٠٠ سنة مزدهرة تجارياً كونها كانت تقع على طريق القوافل بين تدمر وغزّة والخليج العربي واليمن. وفيها خزنة فرعون وهي بناء كبير محفور في الصخر وعلى واجهته نقوش بالقلم النبطي. وبجانب البناء سهل واسع فيه عشرات الكهوف الطبيعية المحفورة في الصخور، وهي مساكن الحوريين القدماء.

وبطرا مدينة أدومية، جاء في سفر الملوك[3] أنها كانت حصناً في السنة

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٢٧٥.

(٢) ورق أي دراهم.

(٣) سفر الملوك، ص ١٤، ع ٧.

٨٣٨ق.م. في زمن أمصيا، ثمّ صارت إلى الأنباط. أما العرب فقد عثر بعض المعاصرين على لفظ البتراء في سياق غزوة النبيّ ﷺ بني لحيان - وهي غير بطرا... وهي بقرب المدينة. وسمّاها العرب «الرقيم»(١).

كتب جرجي زيدان عن تاريخ بطرا ما يلي(٢):

«وكان أنطيغونس خليفة الإسكندر قد حمل على بطليموس صاحب الإسكندرية، فاضطرّ في مسيره أن يمرّ ببطرا وهي في أيدي النبطيين، فلم يرَ بُدّاً من محالفتهم أو قهرهم. وكان بطليموس لحسن سياسته قد اجتذب قلوبهم، فعزم أنطيغونس على قهرهم. فاغتنم خروج الرجال للغزو أو ملاقاة بعض القوافل واكتسح مدينتهم ونهبها، فلقيه النبطيون وهو عائد منها فقتلوا رجاله عن آخرهم. فأعاد الكرّة عليهم بحملة أخرى تحت قيادة ديمتريوس، فخاف الأنباط كثرة الجند فأووا إلى حصونهم وكتبوا إلى أنطيغونس كتاباً بالآرامية يعتذرون إليه عما فعلوه، وأنهم إنما دافعوا عن أنفسهم فلا يعدّ ذلك ذنباً لهم. فأجابهم جواباً ليّناً وأضمر الغدر. فلم تنطلِ عليهم حيلته فتحصّنوا، فجاءهم ديمتريوس وشدّد الحصار عليهم والمدينة ممتنعة. فلما طال الحصار أطلّ رجل منهم من السور وخاطب ديمتريوس قائلاً: «أيها الملك لماذا تقاتلنا ونحن مقيمون في بادية لا مطمع فيها لأهل المدن؟ أتحاربوننا لفرارنا من الرقّ إلى لا شيء فيه من مرافق الحياة؟... فاقبل، رعاك الله، ما ندفعه إليك نظير انسحابك. وثق أننا منذ الآن أصدقاؤكم. وإذا أبيتم إلاّ إطالة الحصار فلا تنالون غير التعب والفشل، لأنكم لن تجدوا سبيلاً إلينا ونحن في هذا الحصن المنيع. وإذا قُدّر لكم الظفر فلا تنالونه إلاّ بعد أن نموت جميعاً، ولا يبقى لكم غير هذه الصخور الصماء وأنتم لا تستطيعون سكناها». فأثّر كلام الرجل في ديمتريوس وتأكّد امتناع المدينة فانسحب برجاله عنها.

واستفحل أمر النبطيين بعد ذلك حتى أنشأوا دولة منظّمة، وولّوا عليهم ملوكاً ضربوا

---

(١) ابن هشام ١٦٤، ج ٢.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ٩٧ - ٩٨.

النقود واستوزروا الوزراء. وكان ملوكهم يسمّون على الغالب باسم «الحارث» وهو باليونانية أريتاس (Aretas)، أو «عبادة» وفي اليونانية أوباداس (Obadas)، أو «مالك» وفي اليونانية مالكوس (Malichus). وأقدم من وقف الباحثون على اسمه من ملوكهم الحارث الأول، حكم نحو سنة ١٦٩ق.م.، وملك بعده زايدايل، ثمّ الحارث الثاني ويلقب أيروتيموس حكم سنة ١١٠ق.م.، ثمّ عبادة الأول سنة ٩٠ق.م.، ثمّ ريبال سنة ٨٧، ولم يقفوا لهؤلاء على نقود مضروبة بأسمائهم. ثمّ توالى بعدهم بضعة عشر مَلِكاً وجدوا أسماءهم على النقود، إلاّ آخرهم مالك الثالث غلبه الرومانيون على أمره وذهبوا بدولته سنة ١٠٦ب.م.».

قائد من بطرا:

عرف ملوك بطرا بلقب الحارث ونقش بعضهم اسمه على النقود والآثار. أهمهم عسكرياً هو الحارث الثالث الذي كتب زيدان سيرته كالآتي(١):

«- **الحارث الثالث**: لهذا الحارث شأن عظيم في تاريخ هذه الدولة لأنه تغلّب على البقاع بسوريا، ودعاه الدمشقيون ليتولى أمرهم وكانوا يكرهون بطليموس، فملكهم سنة ٨٥ق.م. وكانت دمشق قصبة السلوقيين فتولاها، ولقبوه من أجل ذلك فيلهلين Philhołén أي محبّ اليونان. واشترك أيضاً مع هركانوس في تنازعه على المُلك مع أخيه أرستوبولس، وحاصر أورشليم، لكنه عند وصول سكاوروس القائد الروماني تقهقر إلى فيلادلفيا (عمان) مع هركانوس، فأدركهما أرستوبولس في مكان اسمه بابيرون وغلبهما وقتل ٦٠٠٠ من رجالهما. وبعد ثلاث سنوات كان سكاوروس المذكور قد أصبح والياً على البقاع تحت رعاية بومبيوس صاحب رومية، فحمل على بطرا فأعجزه الوصول إليها لوعورة الطريق وقلّة الزاد لجيشه، فرضي أن يرجع بمبلغ ٣٠٠ ريال دفعها إليه الحارث المشر إليه. وهو أول من ضرب النقود من الأنباط، اقتبس ذلك من ملوك اليونان في

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ١٠٠ - ١٠١.

أثناء سلطانه على دمشق، وقد وجد بعضهم ديناراً عليه نقش يرمز به عن اتفاق الحارث وسكاوروس وصورة جمل وشجرة عطرية».

و - دولة تدمر:

كانت تدمر مدينة تجارية تقع على طريق القوافل بين الشام والعراق وتبعد ١٥٠ كيلومتراً عن دمشق، وأهميتها في أنها كانت تشكّل نهاية بادية الشام شمالاً، والتي كانت أقرب الطرق ما بين الشام والعراق، لكنها صعبة الاجتياز ووعرة المسالك. لذلك ظهرت أهمية واحة تدمر للقوافل التجارية.

نسب العرب بناءها إلى سليمان بن داود وإلى سام بن نوح، وبعضهم نسبه إلى الجان.

ومنذ القرن السادس قبل الميلاد دأبت قوافل اليمن والحبشة، المتجهة إلى العراق، على المرور بتدمر، لذلك طمع بها الرومان وحاولوا فتحها منذ القرن الأول ق.م.، فتمكّنوا من ذلك السنة ١٣٠م. حيث أدخلها الإمبراطور هادريان في حمايته، وأضحت مستعمرة رومانية في عهد سبتيموس سفيروس. وازدهرت إبان الحرب بين الروم والفرس حتى أصبحت سيّدة الشرق الروماني[1].

أشهر ملوكها أذينة الذي خاض غمار حروب طويلة للسيطرة على الشرق وخلع سيطرة الروم والفرس عنه ممّا أدى إلى مقتله وتسلُّم زوجته زنوبيا القيادة في تدمر.

١ - زنوبيا ملكة تدمر:

برز اسم زنوبيا في تاريخ تدمر بشكل واضح، وكانت زوجة الملك أذينة الذي كان ينيبها عنه في حكومة تدمر عندما يخرج للحرب، الأمر الذي كان يحصل غالباً[2]. ولمّا توفي أذينة السنة ٢٦٧م.، خلفه ابنه وهب اللات، وكان صغير السن، لذلك تسلّمت والدته زنوبيا الوصاية عليه فأصبحت قائدة الجند.

---

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ١١٤.

(٢) فيليب حتي، دكتور، تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ١٩٦١، ص ١١٢.

وفي السنة ٢٧٢ شنّ الإمبراطور اورليان حملة على الشرق ودخل تدمر ظافراً وسيطر على خزائن المدينة ودمّرها وقتل معظم سكانها(١).

٢ - معارك تدمر وقادتها:

خاضت مدينة تدمر خلال تاريخها الطويل صراعاً عنيفاً للسيطرة على الشرق، لاسيما أنها تقع على حدود امبراطوريتين كانت كلّ منهما تشكّل مجتمعاً عسكرياً بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى، أي الفرس والروم.

فالروم طمعوا بالمدينة وحاولوا فتحها في منتصف القرن الأول قبل الميلاد على يد ماركس أنطونيوس فلم يفلحوا، إلاّ أنهم تمكّنوا من إدخالها في حمايتهم السنة ١٣٠م.

ولّما نشبت الحرب بين الروم والفرس في صدر النصرانية، لعبت تدمر دوراً بارزاً في الحرب، إذ نصرت الروم خاصة بقيادة ملكها أذينة الذي سعى إلى خلع نير كلّ من الروم والفُرس عن بلاده. لكنّ الروم تمكّنوا من قتله، فخلفه ابنه أذينة الثاني الذي صمّم على الانتقام لوالده.

وخلال صراعه الطويل ضدّ دولَتَيْ الفرس والروم خاض أُذينة معارك عديدة ضدّ الفرس أبلى فيها بلاءً حسناً واسترجع البلاد التي كان سابور قد فتحها من الجزيرة، وأخذ نصيبين وحاصر المدائن مرتين وأرسل الأسرى إلى إمبراطور الروم غاليانوس.

وهكذا أصبح أذينة سيّد الشرق الروماني وامتدّت سلطته من أرمينيا إلى سوريا ولُقِّب «ملك الملوك». وفي السنة ٢٦٤م. سمّي حاكماً عاماً على آسيا الرومانية فأصبح دائم الصراع ضدّ الفرس لردّهم عن بلاده(٢).

أما زوجته زنوبيا فقد قادت جيوش تدمر ونشرت سلطانها على مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى حتى أنقره. وهذا ما حرّك الجيوش الرومانية بقيادة أورليان فراحت تتأهّب لشن حملة على

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ١١٨.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ١١٦.

الشرق. وكانت زنوبيا تعتمد خاصة على رجالها العرب والأرمن.

التقت جيوش زنوبيا بالجيوش الرومانية في إنطاكية فتراجعت مغلوبة أمام اورليان الذي حاصر تدمر السنة ٢٧٢م.

وصف جرجي زيدان القائدة العربية زنوبيا فكتب(١):

«وكانت زنوبيا غريبة في أطوارها، لم ينبغ مثلها في النساء، شجاعة ودهاء وشدة، فضلاً عن جمالها وهيبتها. وكانت سيرتها أقرب إلى سِيَر الأبطال من سِيَر النساء، فلم تكن تركب في الأسفار غير الخيل، ويندر أن تحمل في الهودج. وكانت تجالس قوادها وأعوانها وتباحثهم وإذا جادلتهم غلبتهم بقوة برهانها وفصاحة لسانها. وكثيراً ما ضمَّ مجلسها رجالاً من أمم شتى، وبينهم وفود من ملك الفرس أو الأرمن أو غيرهما، وقد يشربون حتى يسكروا وهي لا تسكر. وكانت إذا عقدت مجلساً اعتيادياً للبحث في شؤون الدولة، أدخلت إبنها وهب اللات معها، وعليها أفخر اللباس وعلى كتفيها المشملة القيصرية الأرجوانية وعلى رأسها التاج. ولم يقف بين يديها قادم إلاّ خرَّ ساجداً، جرياً على عادة الأكاسرة، وكانت قد تشبهت بهم، فجمعت في إيوانها بعض شيوخ الخصيان، وكلت إليهم تدبير قصورها. وإذا مشت في ساحة قصرها أو دارت في الرواق الآتي ذكره، حفت بها الفتيات من بنات الأشراف، وهي تتقدمهنّ وتزري بجمالهنّ.

وكانت إذا استعرضت جندها في الميادين بين يدي قصرها، مرت أمام الصفوف فوق جوادها، وعليها لباس الحرب وعلى رأسها الخوذة الرومانية، مرصّعة بالدرّ والجوهر وعلى غلالتها أهداب منسوجة بأسحال أرجوانية، وقد جرّدت إحدى ذراعيها كما يفعل اليونان القدماء، وأخذت تحرِّض جنودها على الصبر والثبات، وتبث في نفوسهم روح

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٧.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٨، ص ١٦٦.

(٣) توارت: تتابعت.

الشجاعة. فإذا رآها الناس في ذلك الموقف حسبوها آلهة من الآلهة العظام، فضلاً عن تفوّقها في السياسة وسداد الرأي واللطف وصحة التربية، مما لم يسمع باجتماعه في امرأة»(١).

٣ - معارك زنوبيا:

بعد وفاة أذينة قرّرت زنوبيا التصدّي للإمبراطورية الرومانية بعد ما كان زوجها قد تصدّى للإمبراطورية الفارسية. لذلك، ورغم تحذيرها من الإمبراطور غاليانوس، تسلّمت قيادة جيوش تدمر ولقبت نفسها «سلطانة الشرق»، وصكّت نقوداً تدمريّة ونقشت صورتها وصورة إبنها وهب اللات[١] عليها.

رداً على هذا التحدّي أعدّ الامبراطور غاليانوس حملة عسكرية قادها أمهر فرسان روما هرقليانوس ووجّهها إلى الشرق.

جهّزت زنوبيا جيشاً كبيراً قادته بنفسها وسارت لتقطع الطريق على جيش هرقليانوس، ففاجأته عند حدود مملكة فارس حيث جرت معركة كبرى قتل فيها هرقليانوس بيد زنوبيا وانتهت المعركة الأولى لمصلحة جيش تدمر.

وفي روما كان قد تسلّم مقاليد الحكم إمبراطور جديد هو كلوديوس الذي سيّر جيوشه لقمع الثورات المختلفة في أرجاء إمبراطوريته. لذلك عمدت زنوبيا إلى إعادة تقوية جيش تدمر، كما شكّلت فرقة خاصّة لحماية طريق القوافل من هجمات اللصوص وقطاع الطرق فعرفت تدمر ازدهاراً لم تشهده من قبل.

لكن الحملة الرومانية على تدمر لم تُوجّه في عهد كلوديوس، إنما في عهد خَلَفه أورليانوس الذي جهّز جيشاً جرّاراً قاده بنفسه واتجه به نحو الشام.

حاولت زنوبيا تأليب القبائل العربية ضدّ الرومان من دون نتيجة، لذلك قرّرت مواجهة جيوشهم منفردة فاتجهت بجيشها شمالاً لملاقاة أورليانوس وأرسلت الجواسيس للاستطلاع أمام جيشها، فجاءتها الأخبار عن قوّة الحملة.

(١) وهب اللات يعني هبة الآلهة.

التقى الجيشان في إنطاكية فقسمت زنوبيا جيشها ثلاثة أقسام: مجموعة رماة السهام، مجموعة الفرسان ومجموعة المشاة.

انقضّ الفرسان الاعداء على الجيش التدمري الذي صدّهم بالمشاة وأمطرهم رماة السّهام بوابل من سهامهم فتضعضع الفرسان الرومان. عند ذلك شنّ فرسان تدمر هجوماً ساحقاً فدبّت الفوضى في الجيش الروماني الذي فقد قسماً كبيراً من مقاتليه قبل ان ينسحب مهزوماً.

لم تلاحق زنوبيا فلول العدو المنسحب بل عادت بجيشها إلى حلب وأخذت تستعد للمعركة الحاسمة.

أما أورليانوس فقد جمع جيشاً جديداً وقرّر ضرب مجموعة فرسان تدمر أولاً لترك الرُّماة والمشاة دون حماية من الخيَّالة. إلاّ أنه، وبدل المواجهة المباشرة، لجأ إلى الخدعة إذ أرسل قوّة صغيرة من فرسانه أثارت حولها الكثير من الغبار قبل أن تهاجم خيَّالة تدمر وتنهزم منسحبة. وقعت الخيَّالة التدمرية في الشِّبَاك إذ أنها لاحقت قوّة الخيَّالة المنسحبة فوصلت إلى الموضع الذي اختاره أورليانوس لمواجهتها.

وكان أورليانوس قد حضّر كميناً من الحُفَر المغطّاة والرُّماة المختبئين، مما أدّى إلى تساقط فرسان تدمر قبل أن تُطْبِق قوّة الجيش الروماني عليهم ثمّ تتحوّل إلى مواقع المشاة.

ظلّ الاشتباك قائماً حتى ساد الظلام فتراجع الطرفان بعد أن خسر الجيش التدمري خيَّالته مما أدى إلى إعطاء زنوبيا الأمر بالتراجع حماية لجيشها في التدمير، فيما تابع أورليانوس تقدمه نحو تدمر.

من جهة أخرى سحب شيوخ القبائل التي كانت موالية لتدمر مقاتليهم من جيشها فباتت زنوبيا تقاتل الجيش الروماني منفردة مع قلّة من رجالها، فتراجعت إلى تدمر حيث حاصرها أورليانوس وطال حصارها وتعرّض جنده لخسائر كبرى.

دام الحصار ستة أشهر، تعرّضت المدينة خلاله إلى نقص المواد الغذائية والمياه ممّا أدى إلى سقوطها في يد أورليانوس الذي ترك فيها حامية كبيرة لإدارة شؤونها لمصلحة روما. إلاّ أن ثورة على الرومان قامت داخل المدينة، مما أدى إلى تدميرها وقتل كلّ من فيها.

التقييم:

١ - رغم عبقريتها العسكرية أخلّت زنوبيا بمبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل). لقد قررت مجابهة روما في زمن كانت هذه الأخيرة تسيطر على نصف العالم المعروف يومذاك، بعدما رفضت القبائل العربية الانضمام إليها في حربها ضدّ الإمبراطورية الرومانية. كان على زنوبيا تجنّب الصراع ضدّ عدوّ يفوقها قوّة بأضعاف مضاعفة.

٢ - أحسنت زنوبيا قيادة معركتها الأولى ضدّ الجيش الروماني مطبّقة مبدأيْ الحرب، الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل). فعندما هاجمها الفرسان الرومان استعملت فِرَق جيشها الثلاثة لصدهم، وذلك كالآتي:

- تلقت موجة هجوم الفرسان بفِرْقةِ المشاة.
- أمطرتهم فِرْقَة الرُّماة بوابل من سهامها.
- شنّت فِرقة الفرسان التدمريين عليهم هجوماً معاكساً أدى إلى تضعضعهم وهزيمتهم.

والهجوم المعاكس هو مفهوم حديث في الاستراتيجية العسكرية إذ إن الجيش المُشتَبِك في القتال يحتفظ عادة بوحدة احتياطية لاستعمالها في إحدى المهام الآتية:

- رأب تصدّع في إحدى جوانب الجيش.
- شنّ هجوم معاكس لاستعادة المبادرة التي يكون العدو قد أخذها.
- أو ملاحقة العدو المنهزم في عملية يطلق عليها العسكريون اسم «استغلال النصر».

٣ - أحسن أورليانوس في استخدام الخدعة إذ أوهم فرقة فرسان تدمر بأن هجوم خيّالته موجه في أحد الاتجاهات، وذلك من خلال إثارة غبار كثيف. وقد وقعت الخيّالة التدمرية في الشباك فلاحقت فرقة الخيّالة الرومانية التي تراجعت أمامها فقادتها إلى مكان الكمين الذي كان قد نصبه اورليانوس بإتقان رائع.

وهكذا نجح الامبراطور الروماني في تحقيق حرية عمله (مبدأ الحرب الثاني) والحصيل الأقصى لوسائله من الخيّالة (مبدأ الحرب الثالث) وقواعد المباغتة والحدّة والاستمرارية واختيار المكان والزمان، فنجح في مناورته.

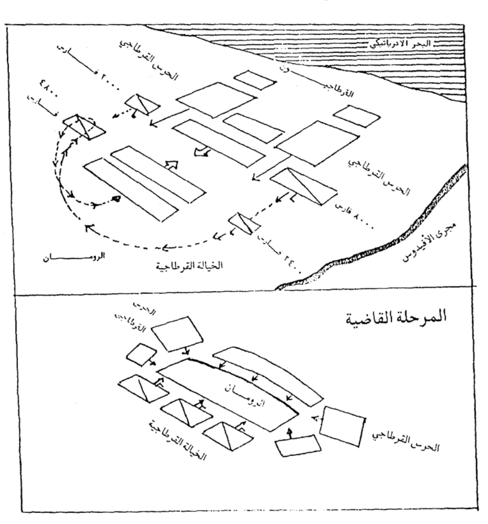
كما تمكّن أورليانوس من فصل مشاة تدمر عن فرسانها. وهذه الاستراتيجية تستعملها الجيوش الحالية إذ تحاول فصل المشاة عن الدبابات التي يَسْهُل اصطيادها حينذاك في القتال المتقارب.

ولنا في التاريخ أمثلة عن معارك ربحها قادة كبار بعد ان تمكّنوا من الفصل بين خيّالة العدو ومشاته. نذكر منها معركة «كان» التي تمكّنت خلالها خيّالة هنيبعل من وضع الخيّالة الرومانية خارج القتال في نصف ساعة لتلتف بعد ذلك وتهاجم مشاة الرومان من الخلف فيما كانت رجّالة قرطاجة تهاجمهم من الأمام. وهكذا تمكّن القرطاجيون من محاصرة جيش روما وإفنائه رغم تفوّقه العددي[1].

(١) للمزيد من التفاصيل عن معركة «كان» التي جرت السنة ٢١٦ق.م.، يمكن مراجعة كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ»، إنتاج دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٢٥ - ١٢٧.
انظر الخريطة المرفقة.

معركة «كان» (إيطاليا) ٢١٦ قبل الميلاد

المرحلة الأولى



الفصل الثالث
الطبقة الثانية: القحطانية أو عرب الجنوب

قحطان هو جدّ عرب الجنوب الذين عرفوا بـ«العرب المتعرّبة» والذين أنشأوا الدول في اليمن المتميّزة بتاريخها المديد والقديم وبقيام حضارات متطوّرة ما تزال معالمها التاريخية حتى الآن مغلّفة بالأسطورة والخيال والعَظَمَة. هذه الحضارات والمجتمعات اعتمدت على الزراعة والصناعة والتجارة في اقتصادها وأقامت السدود على الوديان والمدن التي عرفت بأسواقها وقصورها ومعابدها.

أولاً – التاريخ العسكري لليمن

يُقصد باليمن وفق المصادر العربية، الجزء الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة العرب(١) بمدنها وجبالها وسدودها. وأشهر مدنها مأرب أو سبأ ومعين ونجران وصنعاء وظفار وريدان والسوداء والبيضاء وحيران وغيرها. وهذه البلاد خُرِّبَت قبل الإسلام وبقيت أنقاضها فقط.

وينتسب عرب اليمن إلى يعرب بن قحطان، وقد دعيت جموعهم بالمتعرّبة لأنّهم اقتبسوا اللغة العربية عن العرب العاربة أي البائدة(٢). وكان يعرب من أعاظم ملوك العرب، وقيل إنه أول من حيّاه أتباعه بتحيّة الملك. ذكر ابن سعد(٣) أنه ولّى إخوته على جميع أعمالهم. فولّى جرهماً على

---

(١) اليعقوبي، ج ١، ص ٢٢٧.

(٢) ابن خلدون، التاريخ، جز٢ء ، ص ٤٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات.

الحجاز، وعاد بن قحطان على الشحر، وحضرموت بن قحطان على جبال الشحر، وعمان على عمان.

المسعودي، من جهته، ذكر ملوك اليمن كالآتي[1]:

«أول من يُعَدّ من ملوك اليمن سَبَأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، واسمه عبد شمس. وكان ملكه أربعمائة سنة وأربعاً وثمانين سنة.

ثمّ ملّك بعده ولده حِمْيَرَ بن سبأ بن يشجب بن يعرب، وكان أشجع الناس في وقته، وأفرسهم، وأكثرهم جمالاً. وكان مُلكه خمسين سنة، وقيل: أكثر من ذلك، وقيل: أقل. وكان يُعرف بالمتوَّج، وكان أول من وضع على رأسه تاج الذهب من ملوك اليمن.

ثمّ ملك بعده أخوه كَهلان بن سبأ، فطال عمره، وكَبُرَ سنّه، واستقامت له الأمور، وكان مُلكه ثلثمائة سنة، وقيل غير ذلك.

ثمّ عاد الملك بعد أن هلك كهلان إلى ولد حِمْيَر، لأخبار يطول ذكرها، وتنازع في الملك بين ولد حِمْيَر وكهلان.

ثمّ ملك أبو مالك عمرو بن سَبأ، واتصل ملكه، وغمر الناس عدله، وشملهم إحسانه، وكان مُلكه ثلثمائة سنة».

أما الطبري فقد أورد تسلسل ملوك اليمن كالآتي[2]:

«ذكر الخبر عن ملوك اليمن

في أيام قابوس وبعده إلى عهد بهمن بن إسفنديار

ومعاركهم

قال أبو جعفر: قد مضى ذكرنا الخبر عمّن زعم أن قابوس كان في عهد سليمان بن داود عليهما السلام، ومضى ذكرنا مَن كان في عهد سليمان من ملوك اليمن والخبر عن بلقيس بنت إيليشرح.

فحدّثت عن هشام بن محمّد الكلبيّ أن المُلك باليمن صار بعد بلقيس بن عمرو بن يعفر الذي كان يقال له ياسر أنعم. قال: وإنما

(١) المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨٠.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جزء أول، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

سمّوه ياسر أنعم لإنعامه عليهم بما قوى من ملكهم، وجمع من أمرهم.

١ - الملك ياسر بن عمرو:

قال: فزعم أهل اليمن أنه سار غازياً نحو المغرب حتى بلغ وادياً يقال له وادي الرمل، ولم يبلغه أحد قبله، فلما انتهى إليه لم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل. فبينما هو مقيم عليه إذ انكشف الرمل، فأمر رجلاً من أهل بيته - يقال له عمرو - أن يعبُر هو وأصحابه؛ فعبروا فلم يرجعوا. فلما رأى ذلك أمر بصنم نحاس فصنع، ثمّ نصب على صخرة على شفير الوادي، وكُتب في صدره بالمسند: «هذا الصنم لياسر أنعم الحِمْيريّ، وليس وراءه مذهب، فلا يتكلّفنّ ذلك أحد فيعطب».

قال: ثمّ ملك من بعده تُبّع، وهو تُبان أسعد، وهو أبو كرب بن ملكي كرب تُبّع بن زيد بن عمرو بن تُبَّع؛ وهو ذو الأذعار بن أبرهة تبّع ذي المنار بن الرائش بن قيس بن صيفيّ بن سبأ. قال: وكان يقال له الرائد.

٢ - الملك تبّع:

قال: فكان تُبّع هذا في أيام بشتاسب وأردشير بهمن بن إسفنديار بن بشتاسب، وأنه شخص متوجّهاً من اليمن في الطريق الذي سلكه الرائش، حتى خرج على جبلي طيء، ثمّ سار يريد الأنبار، فلما انتهى إلى الحيرة - وذلك ليلاً - تحيّر، فأقام مكانه وسُمّي ذلك الموضع الحيرة. ثمّ سار وخلّف به قوماً من الأزد ولخم وجُذام وعاملة وقُضاعة، فبنوا وأقاموا به. ثمّ انتقل إليهم بعد ذلك ناس من طيء وكلب والسّكون وبلحارث بن كعب وإياد. ثمّ توجّه إلى الأنبار ثم إلى الموصل، ثمّ إلى أذربيجان، فلقي الترك بها فهزمهم، فقتل المقاتلة، وسبى الذريّة، ثمّ انكفأ راجعاً إلى اليمن، فأقام بها دهراً، وهابته الملوك وعظّمته وأهدت إليه. فقدِم عليه رسول ملك الهند بالهدايا والتّحف، من الحرير والمسك والعود وسائر طُرَف بلاد الهند، فرأى ما لم ير مثله، فقال: ويحك! أكلّ ما أرى في بلادكم! فقال: أبيت اللعن! أقلّ ما ترى في بلادنا، وأكثره في بلاد الصين، ووصف له بلاد الصين وسِعَتها وخصبها وكثرة طُرَفها، فآلى بيمين ليغزونّها.

فسار بحمْيَر مساحلاً، حتى أتى الركائك وأصحاب القلانس السود، ووجّه رجلاً من أصحابه، يقال له ثابت نحو الصين، في جمع عظيم فأصيب، فسار تُبّع حتى دخل الصين، فقتل مقاتلها، واكتسح ما وجد فيها. قال: ويزعمون أن مسيره كان إليها ومقامه بها ورجعته منها في سبع سنين. وأنه خلّف بالتُّبّت اثني عشر ألف فارس من حِمْيَر، فهم أهل التّبت، وهم اليوم يزعمون أنهم عرب، وخلقهم وألوانهم خلق العرب وألوانها.

حدّثني عبدالله بن أحمد المروزيّ، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني سليمان، قال: قرأت على عبدالله، عن إسحاق بن يحيى، عن موسى بن طلحة: أن تُبّعاً خرج في العرب يسير، حتى تحيّروا بظاهر الكوفة، وكان منزلاً من منازله، فبقي فيها من ضعفة الناس، فسمّيت الحيرة لتحيّرهم. وخرج تُبّع سائراً، فرجع إليهم وقد بنوا وأقاموا، وأقبل تُبّع إلى اليمن وأقاموا هم، ففيهم من قبائل العرب كلّها من بني لحيان، وهذيل وتميم، وجُعفيّ وطيء، وكلب».

وحميَر هو مؤسّس الدولة الحِمْيَرية في الجنوب، وأشهر ملوكها وائل وكهلان ويعفر والحارث الرائش الذي كان أول التبابعة، أما آخرهم فكان ذوجدن الذي حكم بعد ذي نؤاس.

بعد ذلك فتح الأحباش اليمن، بدعوة من رجل يمني اسمه ذو ثعلبان، انتقاماً من ذي نؤاس، وأقاموا فيها بقيادة أبرهة الاشرم الذي أراد هدم الكعبة فهاجمها سنة ٥٧٠م[١]، فهلك جيشه.

ثمّ قام من سلالة التبابعة سيف بن ذي يزن الذي يُعتبر من أبطال العرب في الجاهلية، فاستنجد بكِسْرى الذي أنجده وطرد الأحباش من اليمن فحكمها سيف وبعده ابنه معد يكرب.

روى ابن الأثير قصّة الاستنجاد بملك الحبشة وصولاً إلى سيطرة معد يكرب بن ذي يزن على اليمن، فكتب[٢]:

«قيل: لما قَتل ذو نؤاس مَن قَتل من أهل اليمن في الأخدود لأجل العَود عن النصرانية أفلت منهم رجل يُقال له «دوس ذو

---

(١) هو عام الفيل الذي ولد فيه النبيّ محمّد ﷺ.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ١، ص ٣٣٤.

ثعلبان» حتى أعجز القوم فقدم على قيصر فاستنصره على ذي نؤاس وجنوده وأخبره بما فعل بهم. فقال له قيصر: بعدت بلادك عنا، ولكن سأكتب إلى النجاشي ملك الحبشة وهو على هذا الدين وقريب منكم.

فكتب قيصر إلى ملك الحبشة يأمره بنصره، فأرسل معه ملك الحبشة سبعين ألفاً وأمّر عليهم رجلاً يقال له «أرياط»، وفي جنوده «أبرهة الأشرم»، فساروا في البحر حتى نزلوا بساحل اليمن. وجمع ذو نواس جنوده فاجتمعوا ولم تكن حرباً غير أنه ناوش شيئاً من قتال، ثمّ انهزموا ودخلها أرياط. فلمّا رأى ذو نؤاس ما نزل به وبقومه اقتحم البحر بفرسه فغرق.

ووطىء أرياط اليمن فقتل ثلث رجالها، وبعث إلى النجاشي بثلث سباياهم، ثمّ أقام بها وأذلّ أهلها.

وقيل: إن الحبشة لما خرجوا إلى المندب من أرض اليمن كتب ذو نؤاس إلى أقيال اليمن يدعوهم إلى الاجتماع على عدوّهم فلم يجيبوه وقالوا: يقاتل كلّ رجل عن بلاده. فصنع مفاتيح وحملها على عدّة من الإبل ولقي الحبشة، وقال: هذه مفاتيح خزائن الأموال باليمن فهي لكم ولا تقتلوا الرجال والذرية.

فأجابوه إلى ذلك، وساروا معه إلى صنعاء، فقال لكبيرهم: وجّه أصحابك لقبض الخزائن. فتفرّق أصحابه ودفع إليهم المفاتيح، وكتب إلى الأقيال بقتل كلّ ثور أسود، فقتلت الحبشة ولم ينج منهم إلاّ الشريد.

فلمّا سمع النجاشي جهز إليهم سبعين ألفاً مع أرياط والأشرم، فملّك البلاد وأقام بها سنين. ونازعه أبرهة الأشرم وكان في جنده فمال إليه طائفة منهم وبقي أرياط في طائفة. وسار أحدهما إلى الآخر وأرسل أبرهة إنك لن تصنع بأن تلقي الحبشة بعضها على بعض شيئاً فيهلكوا، ولكن أبرز إليّ فأيُّنا قَهَر صاحبه استولى على جنده، فتبارزا، فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه فوقعت على رأسه فشرمت أنفه وعينه فسمي «الأشرم». وحمل غلام لأبرهة يقال له عتودة كان قد تركه كميناً من خلف أرياط على أرياط فقتله. واستولى أبرهة على الجند والبلاد وقال لعتودة: احتكم. فقال: لا تدخل عروس على زوجها من اليمن حتى أصيبها قبله. فأجابه إلى ذلك فبقي يفعل

بهم هذا الفعل حيناً. ثمّ عدا عليه إنسان من اليمن فقتله فسُرّ أبرهة بقتله وقال: لو علمت أنه يحتكم هذا لم أُحكِّمه.

ولما بلغ النجاشي قتل أرياط غضب غضباً شديداً، وحلف لا يدع أبرهة حتى يطأ أرضه ويجز ناصيته. فبلغ ذلك أبرهة فأرسل إلى النجاشي من تراب اليمن، وجزّ ناصيته وأرسلها أيضاً وكتب إليه بالطاعة وإرسال شعره وترابه ليبرَّ قسمه بوضع التراب تحت قدميه، فرضي عنه وأقرّه على عمله.

فلمّا استقرّ باليمن بعث إلى «أبي مرة ذِي يَزن» فأخذ زوجته ريحانة بنت ذي جدن ونكحها، فولدت له مسروقاً. وكانت قد ولدت لذي يزن ولداً اسمه معد يكرب - وهو سيف - فخرج ذو يزن من اليمن، فقدم الحيرة على عمرو بن هند وسأله أن يكتب له إلى كِسْرى كتاباً يعلمه محله وشرفه وحاجته. فقال: إني أفِد إلى الملك كلّ سنة وهذا وقتها، فأقام عنده حتى وفد معه، ودخل إلى كسرى معه فأكرمه وعظّمه وذكر حاجته وشكا ما يلقون من الحبشة، واستنصره عليهم، وأطمعه في اليمن، وكثرة مالها.

فقال له كسرى أنو شروان، إني لأحب أن أسعفك بحاجتك ولكنّ المسالك إليها صعبة، وسأنظر، وأمر بإنزاله فأقام عنده حتى هَلَكَ.

ونشأ ابنه «مَعَدّ يكرب بن ذي يَزَن» في حجرة أبرهة وهو يحسب أنه أبوه، فسبَّه ابن لأبرهة وسبّ أباه، فسأل أمه عن أبيه فصدقته. وأقام حتى مات أبرهة وابنه يكسوم، وسار عن اليمن ففعل ما نذكره إن شاء الله».

ويروي المسعودي قصّة مسير أبرهة إلى مكّة لتخريب الكعبة كما يلي[1]:

«وأبرهة أبو يكسوم هو الذي سار بأصحاب الفيل إلى مكّة لإخراب الكعبة، وذلك لأربعين سنة خَلَت من ملك كِسْرى أنو شروان. فعدل إلى الطائف، فبعثت معه ثقيف بأبي رِغال ليدله على الطريق السهل إلى مكة، فهلك أبو رغال في الطريق بموضع يقال له المغمس بين الطائف ومكّة، فرجم قبره بعد ذلك، والعرب تتمثّل بذلك. وفي

(١) المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨٤ - ٨٥.

ذلك يقول جرير بن الخطفي في الفرزدق: [من الوافر]

إذَا ماتَ الفرزدقُ فارْجُمُوهُ
كما تَرْمُونَ قَبْرَ أبي رِغَال

... فكان ملك أبرهة على اليمن إلى أن هلك بعد أن رجع من الحرم وقد سقطت أنامله وتقطعت أوصاله حين بعث الله عليه الطير الأبابيل(١)، ثلاثاً وأربعين سنة.

وكان قدوم أصحاب الفيل مكة يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خَلَت من المحرم ثمانمائة واثنتين وثلاثين للإسكندر، وست عشرة سنة ومائتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة الغدير.

... ثمّ ملك اليمن بعد أبرهة الأشرم ولده يكسوم، فعمّ أذاه اليمن، وكان ملكه إلى أن هلك عشرين سنة»(٢).

ثانياً – من معارك العرب

حرب معد يكرب للسيطرة على اليمن وطرد الأحباش منها.

روى المسعودي قصّة الحرب التي خاضها القائد العربي معد يكرب بن ذي يزن ضدالأحباش لطردهم من اليمن وإعادة السيطرة العربية عليها، فكتب(٣):

«ومات سيف بن ذي يزن، فأتى بعده ابنه معد يكرب بن سيف، فصاح على باب الملك، فلما سئل عن حاله، قال: لي قبل الملك ميراث.

فوقف بين يدي أنو شروان، فسأله عن ميراثه، فقال: أنا ابن الشيخ الذي وعده الملك بالنُّصرة على الحبشة.

فوجّه معه وهرز اصبهبذ الدّيلم في أهل السجون، فقال: إن فتحوا فلنا، وإن هلكوا فلنا، وكلا الوجهين فتح.

---

(١) كان أبرهة قد حاصر الكعبة بهدف هدمها العام ٥٧٠م. ودعي هذا العام عام الفيل، لأنّ أبرهة كان يركب فيلاً ضخماً اسمه محمود. وروى المؤرّخون العرب أن الله أرسل من السماء طيوراً اسمها الأبابيل راحت تحمل حجاراً ترميها على جيش أبرهة، مما أدى إلى تراجعه عن مدينة مكّة بعد هلاك قسم من جيشه (المؤلف).

(٢) انظر الملحق الرقم ١: سلسلة ملوك اليمن من القحطانية.

(٣) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨٦ – ٨٨.

فحملوا في السفن في دجلة ومعهم خيولهم وعددهم وأموالهم، حتى أتوا أبلة[1] البصرة، وهي فرج البحر، ولم يكن حينئذ بصرة ولا كوفة، وهذه مدن إسلامية. فركبوا في سفن البحر، وساروا حتى أتوا ساحل حضرموت بموضع يقال له مثوب، فخرجوا من السفن. وقد كان أصيب بعضهم في البحر، فأمرهم وهرز أن يحرقوا السفن ليعلموا أنه الموت، ولا وجه يؤملون المفرّ إليه فيجهدون أنفسهم.

ونمي خبرهم إلى ملك اليمن مسروق بن أبرهة، فأتاهم في مائة ألف من الحبشة وغيرهم من حِمْيَر وكهلان ومن سائر من سكان اليمن من الناس وتصاف القوم.

وكان مسروق على فيل عظيم، فقال وهرز لمن كان معه من الفرس: أصدقوهم الحملة، واستشعروا الصبر. ثمّ تأمل ملكهم وقد نزل عن الفيل فركب جملاً، ثمّ نزل عن الجمل فركب فرساً، ثمّ أنف أن يحارب على فرس فركب حماراً، استصغاراً لأصحاب السفن، فقال وهرز: ذهب ملكه، وتنقل من كبير إلى صغير.

وكان بين عيني مسروق ياقوتة حمراء معلّقة في تاجه بمعلاق من الذهب تضيء كالنار، فرمى وهرز، ورمى القوم، وقال وهرز لأصحابه: قد رميت ابن الحمارة، فانظروا إن كان القوم يجتمعون عليه ولا يتفرّقون عنه فهو حي، وإن كان أصحابه يجتمعون عليه ويتفرّقون عنه فقد هلك.

فنظروا إليهم فرأوهم يجتمعون ويتفرّقون عنه، فأخبروه بذلك، فقال: احملوا على القوم واصدقوهم.

فحملوا عليهم وصدقوهم، فانكشفت الحبشة وأخذهم السيف، ورفع رأس مسروق ورؤوس خواص الحبشة ورؤسائهم فقتل منهم نحو ثلاثين ألفاً.

وقد كان أنو شروان اشترط على معد يكرب شروطاً: منها أن الفرس تتزوّج باليمن ولا تتزوّج اليمن منها... وخراج يحمله إليه.

---

(١) أبلة: بلدة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى البصرة. وهي أقدم من البصرة وفق «معجم البلدان».

فتوّج وهرز معد يكرب بتاج كان معه وبدنة[1] من الفضة ألبسه إياها، ورتّبه في ملكه على اليمن، وكتب إلى أنو شروان بالفتح، وخلّف هناك جماعة من أصحابه.

وكان جميع ما ملكت الأحباش اليمن اثنتين وسبعين سنة. وكان ملك مسروق بن أبرهة إلى أن قتله وهرز ثلاث سنين، وذلك لخمس وأربعين خَلَت من مُلك أنو شروان.

وأتت معد يكرب الوفود من العرب تهنّئه بالملك، فأتاه عبد المطلب وجد أمية بن أبي الصلت.

وأقام معد يكرب بن سيف بن ذي يزن ملكاً على اليمن، واصطنع عبيداً من الحبشة حرابة يمشون بين يديه بالحراب. فركب في بعض الأيام من باب قصره المعروف بغمدان بمدينة صنعاء، فلمّا صار إلى رحبتها عطفت عليه الحرابة من الحبشة، فقتلوه بحرابهم.

وكان مُلكه أربع سنين، وهو آخر ملوك اليمن من قحطان، فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكاً، وملكوا ثلاثة آلاف سنة ومائة وتسعين سنة».

التقييم:

أ - رغم عدم اعتياد العرب على ركوب البحر، فإنّ انتقال الجيش بما فيه الرجال والخيول والأموال، من بلاد كسرى إلى حضرموت جرى بواسطة السفن. وهكذا، سُجِّل أول عبور بحري عربي عسكري في تاريخ اليمن.

ب - بعد ترجّل المقاتلين من السفن أمر القائد الفارسي بحرقها «ليعلموا أنه الموت، ولا وجه يؤملون المفر إليه فيجهدون أنفسهم».

إنّ حادث حرق السفن سيتكرّر عبر التاريخ الإسلامي مع القائد طارق بن زياد بعد عبور جيشه إلى إسبانيا. وهذا ما سوف نفصّله في الجزء السابع من هذه الموسوعة.

ج - أورد المسعودي أنّ ملك اليمن مسروقاً جنّد مائة ألف مقاتل من الأحباش وسار على رأسهم لمواجهة معد يكرب. وهنا لا بد من التنبّه إلى وجوب أخذ أعداد المقاتلين التي يذكرهم المؤرّخون العرب الأوائل بعين التحفّظ لأسباب أبرزها:

---

(١) البدنة: ثوب يلبس دون كمين.

١ - ميل هؤلاء إلى زيارة أعداد جيوش أعداء العرب وخفض أعداد جيوشهم، إظهاراً لبطولات القادة والمقاتلين العرب.

٢ - صعوبة التأكّد من هذه الأعداد خلال المرحلة التي سبقت عصر التدوين في شبه الجزيرة العربية.

٣ - الشك في إمكان تأمين اللوجستية لجيوش ضخمة في بلاد العرب حيث تمتد الصحاري ويندر وجود الطعام للرجال والكلأ للحيوانات.

د - استصغر مسروق شأن جيش معد يكرب، وفق المسعودي، فخسر معركته.

ونحن نرى أنّ القائد الناجح هو الذي يدرس أوضاع خصمه ويقدّره حقّ قدره ضمن استراتيجية «إعرف عدوّك»، ويبذل الجهد اللازم لمحاربته، هو الذي ينجح في عملياته العسكرية. فاستصغار شأن العدو يؤدّي إلى التهاون في مواجهته. لذلك تعمَد الجيوش، ومنذ القدم، إلى تجنيد عملاء لها ضمن صفوف العدو يزوِّدونها مختلف المعلومات عنه، تمهيداً لتقدير حجم قواته وإمكاناتها وتحضيراً لمنازلتها.

فمبدأ الحرب الأول الذي تعتمده المدارس العسكرية العليا حالياً ينصّ على وجوب تأمين نسبية الأهداف للوسائل، أي ان يميل ميزان القوى مع العدو إلى جانب القوات الصديقة قبل شن حرب عليه.

شرح مبادىء الحرب:

نظراً إلى أنّ مفاهيم مبادىء الحرب قد تكون غير معروفة من قبل القارىء العزيز، رأينا وجوب شرحها في الجزء الأول من الموسوعة. ففي تقدير الموقف العملاني تعتمد المدارس العسكرية، في عدد كبير من الدول، مبادىء حرب ثلاثة، هي:

- المبدأ الأول: نسبية الأهداف للوسائل.
- المبدأ الثاني: حرية العمل.
- المبدأ الثالث: الحصيل الأقصى للوسائل.

يعني المبدأ الأول أن تتناسب الأهداف التي تُحدّد للجيش مع إمكاناته. والثاني أن يحافظ القائد دوماً على حرية عمله لجهة:

- فرض زمن ومكان المعركة على عدوّه.
- فرض إرادته خلال المواجهة.
- المحافظة على إمكانية تحريك قواته وتوجيهها إلى حيث تدعو الحاجة.

- إمكان زجّ كلّ وحداته في المعركة قبل حسمها وانتهائها.
- تحقيق قواعد المفاجأة وحرية المناورة وحراكية الوحدات واستقلاليتها.
- تأمين اللوجستية لجيشه بشكل دائم.
- وبكلمة موجزة أن يتمكّن القائد من القيام بما يريد في ساحة القتال وأن يمنع عدوّه من ذلك.

أما المبدأ الثالث فيتعلق بإدارة المعركة وتحضير الخطط العملانية وتنفيذها وحسن إدارة الوحدات خلال القتال كي تعطي الحصيل الأقصى لإمكاناتها.

هذه المبادىء الموغلة قدماً في عصور التاريخ العسكري، طبّقها سان تزو والإسكندر المقدوني وهنيبعل ويوليوس قيصر وخالد بن الوليد وجنكيزخان وهولاكو ونابوليون بونابرت وغيرهم من كبار القادة الاستراتيجيين في العالم، فانتصروا في معاركهم. فالقائد الذي يحسن تطبيق هذه المبادىء يكون قد عمل ما بوسعه لربح معركته، فإن ربحها يكون قد نال مبتغاه، وإن خسرها يكون قد بذل كلّ إمكاناته في سبيل النصر، لكنه فشل.

سنعمد عبر أجزاء هذه الموسوعة، إلى دراسة المعارك الكبرى في التاريخ العسكري العربي ضمن إطار المبادىء التي ذكرنا وقواعد الفن العسكري المتفرّعة عنها، وذلك بهدف تقييم عمل القادة المسلمين الذين قادوا الجيوش العربية والإسلامية من نصر إلى نصر وتمكّنوا، خلال مدّة لا تتجاوز عشرات السنين، من فتح الشرق الأدنى وآسيا الصغرى والوسطى، وصولاً إلى حدود الصين وشمال أفريقيا والأندلس، وضمّها إلى الإمبراطورية الإسلامية.

ملحق رقم ١

سلسلة ملوك اليمن من القحطانية

المستند: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٩١ - ٩٤.

«قال المسعودي: وأما عبيد بن شرية الجرهمي حين وفد على معاوية، وسأله أخبار اليمن وملوكها وتواريخ سننها، فإنه ذكر أن أول ملوك اليمن على حسب ما قدمنا في هذا الباب سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ملك مائة سنة وأربعاً وثمانين سنة.

ثمّ ملك بعده الحارث بن شداد بن ملطاظ بن عمرو، مائة وخمساً وعشرين سنة.

ثمّ ملك بعده أبرهة بن الرائش، وهو أبرهة ذو المنار، مائة وثلاثاً وثلاثين سنة.

ثمّ ملك بعده فريقس بن أبرهة، مائة وأربعاً وستين سنة.

ثمّ ملك بعده أخوه العبد بن أبرهة، خمساً وأربعين سنة.

ثمّ ملك بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو وهو ذو الصرح، سنة.

ثمّ ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد، سبع سنين.

ثمّ ملك سليمان بن داود عليهما السلام، ثلاثاً وعشرين سنة، على حسب ما قدمنا من أمر بلقيس.

ثمّ ملك أرخبعم بن سليمان سنة.

ثمّ رجع الملك على حِمْيَر فملك من بعد أرخبعم بن سليمان ناشر النعم بن يعفر بن عمرو ذي الأذعار خمساً وثلاثين سنة.

ثمّ ملك بعده عمرو بن شمر بن أفريقس ثلاثاً وخمسين سنة.

ثمّ ملك بعده تبع الأقرن بن عمرو وهو تُبّع الأكبر، مائة سنة وثلاثاً وخمسين سنة.

ثمّ ملك بعده ابنه ملكيكرب بن تبع خمساً وثلاثين سنة.

ثمّ ملك بعده تبع بن ملكيكرب بن تبع، وهو تبع أبو كرب أسعد بن ملكيكرب، أربعاً وثمانين سنة.

ثمّ ملك بعده كلال بن متوب، أربعاً وسبعين سنة.

ثمّ ملك بعده تبع بن حسان بن تبع ثلثمائة سنة وستاً وعشرين سنة.

ثمّ ملك بعده مرثد سبعاً وثلاثين سنة.

ثمّ ملك بعده أبرهة بن الصباح ثلاثاً وسبعين سنة.

ثمّ ملك بعده ذو شناتر بن زرعة، ويقال يوسف، ويقال: بل اسمه عريب بن قطن، تسعاً وثمانين سنة.

ثمّ ملك بعده لخنيعة، ويعرف بذي الشناتر، أربعاً وثمانين سنة.

فذلك ألف وتسعمائة سنة وسبع وعشرون سنة.

وإنما ذكرنا ما حكيناه عن عبيد بن شرية في ترتيب ملوكهم، وتباين تواريخ سنيِّهم، لنأتي على جميع ما قيل في ذلك من التنازع، والله ولي التوفيق.

مُلكُ فارس باليَمَن:

ولمّا قتلت الحبشة معد يكرب بن سيف بن ذي يزن - على حسب ما قدمنا - في الرحبة بحرابهم كان بصنعاء خليفة لوهرز في جماعة من العجم، ممن كان ضمهم وهرز إلى معد يكرب فركب وأتى على من كان هنالك من الحبشة، وضبط البلد، وكتب بذلك إلى وهرز وهو بباب أنو شروان الملك، وذلك بالمدائن من أرض العراق.

فأعلم وهرز بذلك الملك، فسيّره في البر في أربعة آلاف من الأساورة، وأمره بإصلاح اليمن، وألا يبقي على أحدٍ من بقايا الحبشة، ولا على جعد قط قد شرك السودان في نسبه.

فأتى وهرز اليمن، ونزل صنعاء، فلم يترك بها أحداً من السودان ولا من أنسبائهم، وملك أنو شروان وهرز على اليمن إلى أن هلك بصنعاء.

ثمّ ملك بعده النوشجان بن وهرز إلى أن هلك بها.

ثمّ ملك بعده رجل من فارس يقال له سبحان.

ثمّ ملك بعده خرزاد ستة أشهر.

ثمّ ملك بعده ابن سبحان.

ثمّ ملك بعده المرزبان وكان من أهل بيت مملكة فارس.

ثمّ ملك بعده خرخسرو، وكان مولده باليمن.

ثمّ ملك بعده باذان بن ساسان.

مُلك اليَمَن في أبناء إبراهيم:

قال المسعودي: فهؤلاء جميع من ملك اليمن من قحطان والحبشة والفرس.

وقد ملك اليمن رجل من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو يعدّ من ملوك اليمن واسمه هينبة بن أميم بن بدل بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام. وكان له شأن عظيم في ملك اليمن - وطالت أيامه».

ثانياً – الدولة المعينية

قامت الدولة المعينية في شمال اليمن في منطقة الجوف ودعيت عاصمتها قرنا[1] التي كانت محطّة للقوافل المتجهة شمالاً نحو الحجاز. ودام ازدهار معين من القرن الثامن ق.م. إلى القرن الثالث ق.م. وامتدّ نفوذها حتى البحر المتوسّط شمالاً والخليج العربي شرقاً، أي أنّها شملت معظم شبه الجزيرة العربية.

ومعين لم تكن دولة عسكرية إنما سيطرت تجارياً واقتصادياً.

ويرى جرجي زيدان أنّ دولة معين سبقت بني قحطان إذ كتب[2]:

«ويظهر أنهم أقدم من ذلك بكثير، لأنهم عثروا على أمة بهذا الإسم، ذكرت في أقدم آثار بابل بين أخبار نرام سين سنة ٣٧٥٠ ق.م. على نصب عليه نقوش مسمارية فيها أن الملك البابلي حمل على معان وقهر ملكها وأنه اقتطع حجارة من جبالها حملها إلى مدينة أكاد...

(١) شرقي صنعاء، وهي الآن تدعى معين.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ١٥٥.

وجاء ذكر هذه الأمة أيضاً مع أمة ماليق في آثار بابل مرّة أخرى سنة ٢٥٠٠ق.م.».

وفي رواية أخرى أنّ المعينيين كانوا في الألف الرابع قبل الميلاد في جزيرة سيناء، وقيل إنّهم جاؤوا اليمن بعد نزولهم في العراق واقتباسهم التمدّن عن السومريين والبابليين، ومذ ساعدهم هذا التمدّن في التغلّب على كلّ من كان في اليمن قبلهم.

وعندما دبّ الضعف في دولة معين استولت دولة سبأ على أملاكها.

ثالثاً – الدولة السبئية

(٨٥٠ – ١١٥ ق.م.)

للدولة السبئية أهمية كبرى في تاريخ عرب الجنوب كونها كانت تتمتع بشهرة واسعة وبحضارة عريقة وقوّة ونفوذ، كما ورد ذكرها في الكتاب المقدّس عند ذكر زيارة ملكتها إلى النبيّ سليمان ونقلها هدايا له من ذهب ومجوهرات وغير ذلك. ويرى بيضون وزكار أنّ سبأ التي زارت ملكتها النبيّ سليمان هي غير سبأ اليمن، وربما هي قبيلة كانت تسكن في فلسطين(١).

وما زاد سبأ أهمية أنّ ذِكْرها ورد أيضاً في القرآن الكريم ويبدو من وصفها أنّها سبأ اليمن(٢).

وفي المصادر العربية أن سبأ من قحطان، وهم العرب المتعربة، وأنهم نزلوا اليمن وتكلّموا العربية. ومن الآثار الباقية في اليمن يمكن القول إن دولة سبأ تبدأ نحو القرن الثامن ق.م.، وهم قد اختلطوا بالمعينيين قبل أن يستولوا على أملاكهم ويزيلوا دولتهم من الوجود بعد اقتباس حضارتهم ولغتهم وديانتهم(٣).

وأقام السبئيون دولة كبرى في اليمن ذكرت في أخبار آشور في زمن سرجون الثاني (٧٢١ – ٧٠٥ق.م.). والدولة السبئية، كما دولة معين، لم تكن دولة

(١) بيضون وزكار، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) سبأ: ١٥ – ٢١.

(٣) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ١٥٩.

عسكرية، إنما برزت في التجارة والاقتصاد، وكان لها عاصمتان مأرب وريدان أو ظفّار، وبلغ عدد ملوكها المعروفين بضعة وثلاثين ملكاً. ومرّ ملكهم بأربعة أطوار كانت تسميته تتسع، فبدأ باسم «مكرب سبأ» ثمّ «ملك سبأ»، ثمّ ملك سبأ وريدان، لينتهي باسم «ملك سبأ وريدان وحضرموت واعرابها في الجبال وتهامة»(١).

عسكرياً، ورغم أن سبأ لم تكن دولة عسكرية، فقد نقلت المصادر أن روما عزمت على احتلالها وإلحاقها بملكها في عهد أوغسطس، فأرسلت في ٢٥ - ٢٤ ق.م. حملة بقيادة إليوس جللوس. لكن الحملة فشلت لأسباب عدّة، منها صعوبة طبيعة الأرض في بلاد اليمن وبعدها عن القواعد الرومانية وطول خطوط مواصلاتها. أما السبب الأهم للفشل فكانت شراسة مقاومة سكان سبأ الذين كانوا في هذه الحقبة في أبهى مراحل حضارتهم(٢).

أما دور سبأ التجاري فكان أهم من دورها العسكري إذ أنه كان سبب قوّتها ومنْعتها. فهي كانت قد خَلَفَت دولة معين في نقل التجارة بين مصر والشام والعراق والحبشة والهند بحيث أمست أهم وسائل الاتصال بين هذه الدول. وهكذا اتسعت ثروتهم وتطوّرت بلادهم وامتدّت سيطرتهم إلى شمال وشرق بلاد العرب، فبنوا السدود وأقاموا الزراعات الخصبة وأقاموا القصور والهياكل(٣). وكانوا يرمّمون السدود كلّما تصدعت.

وفي زمن لاحق، عندما بدأت التجارة تتحوّل من البر إلى البحر، أخذت دولة سبأ في التراجع، فأهملت السدود إلى ان تهدم سد مأرب وحصل «سيل العرم» فنزحت القبائل العربية السامية من اليمن نحو بلاد ما بين النهرين والشام والحجاز(٤).

وهكذا زالت دولة سبأ حوالى العام ١١٥ ق.م. لِتَرِثَها دولة حِمْيَر التي كان أصحابها

---

(١) زيدان، المرجع نفسه، ص ١٦١.

(٢) بيضون وزكار، مرجع سابق، ص ١٥.

(٣) بطرس البستاني، موسوعة بطرس البستاني، المركز الثقافي الحديث، طبعة ٢، ٢٠٠١، الجزء الأول، ص ٤٦.

(٤) ريحانا، شعوب الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٨٥.

في «ريدان»، وهي أقرب إلى البحر جنوباً، قد أفادوا من تحوّل التجارة من البر إلى البحر للسيطرة على فرع السبئيين وأقاموا دولتهم الجديدة فبدأ العصر الحميري[١].

رابعاً – دولة حِمْيَر
(١١٥ ق.م. – ٥٢٥ ب.م.)

الحِمْيَريون فرع من السبئيين وحِمْيَر هو ابن سبأ، وقيل إنهم تغلبوا على السبئيين واتحدوا معهم فأصبح لقب ملكهم «ملك سبأ وريدان وحضرموت».

وحِمْيَر، بعكس دولَتَيْ معين وسبأ، كانت ذات وجه عسكري افتتحت الممالك وحاربت الفرس والأحباش. ملوكها في الطبقة الثانية أخذ أولهم لقب «شمرّ يرعش»، ونقل جرجي زيدان لائحة بأسمائهم ومدات حكمهم نوردها في الملحق رقم ٢[٢].

أ – قادة من حمير ومعاركهم:

بالغ العرب في أخبار فتوحات دولة حمير وخاصة معارك أشهر ملوكها شمر يرعش الذي قيل إنّه وطىء أرض العجم وفارس وخراسان وافتتح مدائنها وخرّب مدينة الصغد وراء جيحون[٣].

١ – الملك أبو كرب:

أما الملك أبو كرب اسعد، فقيل إنه غزا أذربيجان وهزم الترك وخاض معارك قاسية قبل أن يعود إلى اليمن، فهابته الملوك وهادنه ملوك الهند. ثمّ أرسل قادته شمالاً وشرقاً فهزم ابن أخيه شمر ذي الجناح ملك الفرس وملك سمرقند وقتله، ووصل إلى الصين يسانده أخوه حسان فاثخنا في القتل والسبي قبل أن يعودا بالغنائم إلى اليمن[٤].

وأرسل ملك اليمن ابنه يعفر إلى القسطنطينية فتلقوه بالجزية والإتاوة، وسار

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ١٦٤.
(٢) انظر ملحق رقم ٢: لائحة ملوك حمير.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٥٢.
(٤) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٥٣.
وفي هذه الأخبار مبالغات عديدة، إنما لا يمكن التثبت منها.

إلى روما وحاصرها قبل أن يتفشى الطاعون في جنده فيَثِبْ عليهم جند روما ويقتلهم جميعاً[١].

وهذه الأخبار التي نقلها ابن خلدون عن مؤرّخي العرب الأوائل لا يمكن التثبت منها لأنها لم ترد في كتابات غير العرب من جهة، وكونها بعيدة عن التصديق من جهة أخرى. لكننا أوردناها بسبب احترامنا لابن خلدون وللمؤرّخين العرب الذين سبقوه.

وإلى الملك أسعد ينسب المؤرّخون أيضاً غزو يثرب وكساء الكعبة.

٢ - الصراع ضد الأحباش:

خاض الحِمْيَريُّون صراعاً طويلاً ضدّ الأحباش الذين كانت لهم أطماع في اليمن. ومن أخبارهم أن نجاشياً حمل على اليمن في أواخر القرن الثالث الميلادي ففتح بعض مدائنها وبعض جهات تهامة. لكن الحِمْيَريين حاربوه وانتصروا عليه وطردوه من بلادهم[٢].

وتوالت الحروب بين أهل الحبشة وحمير في أواسط القرن الرابع للميلاد وكانت الحرب بينهما سجالاً.

ب - دخول اليمن في حوزة فارس:

روى الأصفهاني في كتاب الأغاني نهاية حُكم حِمْيَر لليمن ودخولها في عهدة الإسلام[٣]، نقلها جرجي زيدان كما يلي[٤]:

«وملّ الحِمْيريون سلطة الأحباش، وكان في أمراء حمير رجل من الأذواء اسمه سيف بن ذي يزن، استنجده قومه فسعى في إنقاذهم من سلطة ذلك الأجنبي. وأشاروا عليه أن يستنصر قيصر الروم فاستنصره فردَّه، فمضى إلى كِسْرى فنصره بجنده تحت قيادة رجل اسمه وهرز، فقهر الحبشة وأخرجهم واحتلّ مكانهم وكتب إلى كِسْرى

(١) المرجع نفسه.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ١٧١.

(٣) الأصفهاني، الأغاني ٧٥، ص ١٦.

(٤) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ١٧٧.

يقول: «إني قد ملكت للملك اليمن، وهي أرض العرب القديمة التي تكون فيها ملوكهم». وبعث إليه بجوهر وعنبر ومال وعود وزباد، وهي جلود لها رائحة طيبة. فكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذي يزن ويقوم هو إليه، فخلف سيفاً على اليمن. فلما خلا سيف باليمن وملكها عدا على الحبشة، فجعل يقتل رجالها ويبقر نساءها عما في بطونهنّ حتى أفناها، إلاّ بقايا منها أهل ذلّة وقلة فاتخذهم خولاً. فمكث على ذلك غير كثير، وركب يوماً وتلك الحبشة معه ومعهم حرابهم يسعون بها بين يديه، حتى إذا كان وسطاً منهم مالوا عليه فطعنوه حتى قتلوه. ولم يقم على الحميريين ملك حتى كان الإسلام، ودخلوا في حوزة المسلمين. ومدة حكم الأحباش على قول العرب ٧٤ سنة: منها ٢٠ سنة لأرياط، و٢٣ لأبرهة، و١٩ ليكسوم، و١٢ لمسروق. وصارت عاصمة اليمن منذ فتحها الأحباش «صنعاء» والملك يجلس في قصر غمدان».



الفصل الرابع

معارك حِمْيَر

نقل المؤرّخون العرب في صورة تفصيلية المعارك التي قادها ملوك اليمن وقادتها عبر تاريخها الجاهلي. وسنختصر في هذا الفصل ما جاء من كتاباتهم:

كتب الطبري[١]:

«كان يخدم الملوك من حِمير أبناء الأشراف وغيرهم من القبائل. وكان قد ملك عليها تُبَّع بن حسان فهابته حِمير والعرب. ثمّ أرسل ابن أخته الحارث بن عمرو الكندي في جيش عظيم إلى بلاد معد والحيرة وما والاها. فسار إلى النعمان بن امرىء القيس فقتله وعدّة من أهل بيته، وهزم أصحابه. وهكذا ذهب مُلك النعمان ومَلَكَ الحارث بن عمرو الكندي مكانه...».

أ - أخبار الملك تُبَّع:

وكان تُبَّع هذا في أيام بشتاسب وبهمن، وقد شخص متوجّهاً من اليمن حتى خرج على جبلي طيء، ثمّ سار يريد الأنبار، فلما انتهى إلى موضع الحيرة تحيّر، وذلك في الليل، فأقام مكانه فسمي ذلك الموضع الحيرة.

ثمّ سار وخلّف به قوماً من الأزد ولخم وجُذام وعاملة وقضاعة، فبنوا وأقاموا به، ثمّ توجّه إلى الأنبار، ثمّ إلى الموصل، ثمّ أذربيجان، فلقى الترك بها فهزمهم وقتل المقاتلة، وسبى الذرية، ثمّ انكفأ راجعاً إلى اليمن، فهابته الملوك وأهدت إليه.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٤١٧ - ٤١٨.

ثمّ غزا الصين فاكتسح ما فيها، وقتل مقاتلتها[1].

وكان تُبَّع قد جعل طريقة على المدينة وخلف بين أظهر أهلها ابناً له، فقتل غيلة، فعاد إليها وهو مجمع على إخرابها واستئصال أهلها. خرج أهل المدينة لقتاله فجرى قتال نقل خبره ابن كثير الذي كتب[2]:

«إنهم كانوا يقاتلونه بالنهار، ويقرونه بالليل[3]، فيعجبه ذلك منهم...

قال ابن إسحاق: فبينا تبّع على ذلك من حربهم إذ جاءه حَبْران من أحبار اليهود، من بني قُرَيظة، قال: عالمان راسخان في العلم حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهله، فقالوا له: أيها الملك، لا تفعل، إنك إن أبيت إلاّ ما تريد حِيلَ بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجِل العقوبة. فقال لهما: ولِمَ ذلك؟ قالا: هي مهاجر نبيّ يخرج من هذا الحَرم من قريش في آخر الزمان، تكون دارَه وقراره. فتناهى، وروى أنّ لهما علماً، وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة، وأتبعهما على دينهما».

وقيل إنّ تُبّع مضى حتى قدم مكّة، فطاف بالبيت، ونحر عنده، وحلق رأسه، وأقام بمكّة ستة أيام ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل. ثمّ رأى في المنام وجوب أن يكسو البيت، فكساه. وكان تُبّع أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جُرهم، وأمرهم بتطهيره وأن لا يقربوه دماً ولاميتة ولا مئلاةً[4]. كما جعل للبيت باباً ومفتاحاً.

ثمّ سار تبع متوجّهاً إلى اليمن بمن بقي معه من الجنود فدعى قومه إلى الدخول فيما دخل فيه فاحتكموا إلى النار. ونقل ابن كثير خبر هذا الاحتكام الذي أدى إلى دخول اليهودية إلى اليمن، فكتب[5]:

(١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العملية، بيروت، ١٩٩٥، جزء ١، ص ٤١٥.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٣) يقرونه أي يضيفونه لأنه كان نازلاً بهم.

(٤) المئلاة: خرقة الحيض.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٨٢.

«وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن، نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأخذ الظالم ولا تضرّ المظلوم. فخرج قومه بأوثانهم وما يتقرّبون به في دينهم، وخرج الحَبْران بمصاحفهما في أعناقهما متقلّدَيها، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه. فخرجت النار إليهم، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها، فزجرهم مَن حضرهم من الناس، وأمروهم بالصبر لها، فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قرّبوا معها، ومَن حمل ذلك من رجال حِمير. وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تَعرَق جباههما ولم تضرّهما، فأصفقت[2] عند ذلك حِمْيَر على دينها، فمن هناك كان أصل اليهودية باليمن».

ب - مقتل الملك حسان بن تيّان أسعد أبي كرب:

كتب الطبري[1]:

«فلما هلك ربيعة بن نصر، واجتمع مُلك اليمن إلى حسّان بن تُبّان أسعد أبي كرب بن مَلكيكَرِب بن زيد بن عمرو ذي الأذعار، كان ممّا حاج أمر الحبشة وتحوّل الملك عن حِمير وانقطاع مدّة سلطانهم - ولكلّ أمر سبب - أنّ حسان بن تُبان أسعد أبي كرِب، سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض العجم، كما كانت التبابعة قبله تفعل؛ حتى إذا كان ببعض أرض العراق، كرهت حِمْيَر وقبائل اليمن السير معه، وأرادوا الرّجعة إلى بلادهم وأهليهم؛ فكلّموا أخاً له كان معه في جيشه، يقال له عمرو، فقالوا له: اقتل أخاك حسان نملّكك علينا مكانه، وترجع بنا إلى بلادنا. فتابعهم على ذلك، فأجمع أخوه ومن معه من حِمير وقبائل اليمن على قتل حسّان، إلاّ ما كان من ذي رُعَين الحميري، فإنّه نهاه عن ذلك، وقال له: إنّكم أهل بيت مملكتنا، لا تقتل أخاك ولا تشتّت أمر أهل بيتك. فلمّا بلغ حسّان ما أجمع عليه أخوه عمرو وحِمير وقبائل اليمن من قتله، قال لعمرو:

يا عَمْرُو لا تُعْجِلْ عَلَيَّ مَنِيَّتي
فالمُلْكُ تأخُذُه بِغَيْرِ حُشُودِ

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.
(٢) أصفقت: اجتمعت.

فأبى إلاّ قتله، فقتله ثمّ رجع بمن معه من جنده إلى اليمن.

فلمّا نزل عمرو بن تيان أسعد أبي كرب اليمن مُنع منه النّوم، وسلّط عليه السهر - فيما يزعمون - فجعل لا ينام. فلمّا جهده ذلك جعل يسأل الأطبّاء والحُزاة من الكهّان والعرّافين عمّا به، ويقول: مُنع منّي النوم فلا أقدر عليه، وقد جَهَدني السهر. فقال له قائل منهم: والله ما قتل رجل أخاه قطّ أو ذا رحِم بغياً على مثل ما قتلت عليه أخاك إلاّ ذهب نومه، وسلّط عليه السّهر. فلما قيل له ذلك، جعل يقتل كلّ من كان أمره بقتل أخيه حسّان من أشراف حِمْيَر وقبائل اليمن.

قال: ثمّ لم يلبث عمرو بن تيان أسعد أن هلك.

قال هشام بن محمّد: عمرو بن تُبّع هذا يدعى موثَبان؛ لأنه وثب على أخيه حسّان بفُرضة نُعم فقتله - قال: وفُرضة نُعْم رَحَبة طوق بن مالك - وكانت نُعْم سرّية تُبّع حسان بن أسعد.

رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق. قال: فمرج أمرُ حِمْيَر عند ذلك، وتفرّقوا، فوثب عليهم رجل من حِمير لم يكن من بيوت المملكة منهم، يقال له لخنيعة ينوف ذو شناتر، فملكهم فقتل خيارهم، وعبث ببيوت أهل المملكة منهم».

التقييم:

١ - كان ملك حِمْيَر قد سار بأهل اليمن إلى أرض العجم ليسيطر عليها. لكن تآمر أمرائه عليه، وعلى رأسهم أخوه عمرو، جعل حملته تفشل، إذ قتله هؤلاء وعادوا إلى اليمن.

٢ - أما سبب تآمرهم عليه فيعود إلى صعوبة الحملة ورغبة جنوده في العودة إلى بلادهم.

وهذا الأمر يذكّرنا بحملة الإسكندر المقدوني على آسيا، عندما كان يريد متابعة حملته شرقاً، لكن أمراءه كانوا قد ملّوا الحروب ورغبوا بالعودة إلى مقدونيا. وهذا ما جعلهم، وفق بعض المؤرّخين، يتآمرون عليه ويقتلونه.

٣ - لذلك على القائد السهر على تحفيز مرؤوسيه، وجعلهم يندفعون في مشاريعه القتالية كي لا يقع في ما وقع به ملك حِمْيَر أو الإسكندر المقدوني.

ج - أخبار ذي نؤاس:

بعد ذلك ملك ذو نؤاس بن تُبان أسعد أبو كرب الذي استجمعت عليه حمير وقبائل اليمن، فكان آخر ملوك حِمْيَر وذو نؤاس هذا هو الذي تهوّد من ملوك اليمن

أما عن أهل نجران فقد كتب الطبري[1]:

«فسار إليهم ذو نؤاس بجنده من حِمير وقبائل اليمن، فجمعهم ثمّ دعاهم إلى دين اليهودية، فخيّرهم بين القتل والدخول فيها، فاختاروا القتل. فخدّ لهم الأخدود، فحرّق بالنار، وقتّل بالسيف؛ ومثّل بهم كلّ مُثلة، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً. وأفلت منهم رجل يُقال له دَوْس ذو ثعلبان، على فرس له، فسلك الرّمل فأعجزهم.

قال: وقد سمعت بعض أهل اليمن يقول: إنّ الذي أفلت منهم رجل من أهل نجران يقال له جبّاز بن فيض.

قال: وأثبت الحديثين عندي الذي حدّثني أنه دوس ذو ثعلبان.

ثمّ رجع ذو نؤاس بمن معه من جنوده إلى صنعاء من أرض اليمن.

يقال: كان فيمن قَتل ذو نؤاس عبدالله بن الثامر رئيسهم وإمامهم. ويقال: عبدالله بن الثّامر قُتل قبل ذلك، قتله ملك كان قبله، هو كان أصل ذلك الدين؛ وإنما قتل ذو نؤاس مَن كان بعده من أهل دينه.

وأما هشام بن محمّد فإنه قال: لم يزل مُلك اليمن متصلاً لا يطمع فيه طامع، حتى ظهرت الحبشة على بلادهم في زمن أنو شِروان. قال: وكان سبب ظهورهم أن ذا نُؤاس الحِميري ملك اليمن في ذلك الزمان، وكان يهودياً، فقدم عليه يهوديّ، يقال له دَوس من أهل نَجران، فأخبره أنّ أهل نجران قتلوا ابنين له ظلماً، واستنصره عليهم - وأهل نجران نصارى - فحمي ذو نؤاس لليهودية، فغزا أهل نجران، فأكثر فيهم القتل. فخرج رجل من أهل نجران، حتى قدِم على ملك الحبشة، فأعلمه ما ركبوا به، وأتاه الإنجيل قد أحرقت النار بعضه، فقال له: الرّجال عندي كثير، وليست عندي سفن، وأنا كاتب إلى قيصر في البعثة إلى بسفن أحمل فيها الرّجال. فكتب إلى قيصر في

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٤٣٦.

ذلك، وبعث إليه بالإنجيل المحرّق، فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة.

وخرج دَوس ذو ثعلبان، حين أعجز القوم على وجهه ذلك؛ حتى قدم على قيصر صاحب الروم، فاستنصره على ذي نؤاس وجنوده، وأخبره بما بلغ منهم، فقال له قيصر: بُعدت بلادك من بلادنا، ونأت عنا، فلا نقدر على أن نتناولها بالجنود؛ ولكنّي سأكتب لك إلى ملك الحبشة؛ فإنه على هذا الدّين، وهو أقرب إلى بلادك منّا فينصرك ويمنعك ويطلب لك بثأرك ممن ظلمك، واستحلّ منك ومن أهل دينك وما استحلّ. فكتب معه قيصر إلى ملك الحبشة يذكر له حقّه وما بلغ منه ومن أهل دينه، ويأمره بنصره، وطلب ثأره ممّن بغى عليه وعلى أهل دينه. فلما قدم دَوس ذو ثعلبان بكتاب قيصر على النّجاشي صاحب الحبشة بعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمّر عليهم رجلاً منهم من أهل الحبشة، يقال له أرياط؛ وعهد إليه: إن أنت ظهرت عليهم فاقتل ثلث رجالهم، واخرب ثلث بلادهم، واسبِ ثلث نسائهم وأبنائهم. فخرج أرياط ومعه جنوده، وفي جنوده أبرهة الأشرم، فركب البحر ومعه دَوس ذو ثعلبان، حتى نزلوا بساحل اليمن. وسمع بهم ذُو نُؤاس فجمع إليه حِمير ومَن أطاعه من قبائل اليمن، فاجتمعوا إليه على اختلاف وتفرّق، لانقطاع المدّة وحلول البلاء والنّقمة. فلم يكن له حرب غير أنّه ناوش ذو نؤاس شيئاً من قتال، ثمّ انهزموا، ودخلها أرياط بمجموعه. فلمّا رأى ذو نُؤاس ما رأى ممّا نزل به وبقومه وجّه فرسه إلى البحر، ثمّ ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر، حتى أفضى إلى غمرة، فأقحمه فيه، فكان آخر العهد به. ووطيء أرياط اليمن بالحبشة، فقتل ثلث رجالها، وأخرب ثلث بلادها، وبعث إلى النجاشي بثلث سباياها ثمّ أقام بها.

وكان أرياط قد أخرب مع ما أخرب من أرض اليمن سِلْحين وبينون وغمدان، حصوناً لم يكن في الناس مثلها.

قال هشام بن محمّد إنّ ذي نؤاس لما وجد إلاّ طاقة له على جيش الحبشة، ركب فرسه واعترض البحر فاقتحمه، فكان آخر العهد به».

الدروس المستقاة:

١ - يظهر ممّا تقدّم من قتل أهل نجران أن الصراع بين الديانتين السماويتين المسيحية واليهودية كان مستعِراً في جنوب شبه الجزيرة العربية، لذلك عجزت هاتان الديانتان عن ملء الفراغ الديني الذي كان قد بدأ يظهر لدى القبائل العربية، بعد أن فشلت الوثنية التي كانوا يدينون بها في إقناعهم بصوابيّتها. هذا الفراغ ملأه الدين الجديد، أي الإسلام.

٢ - لاحظنا أيضاً أن ملك حِمْيَر قتل كلّ أهل نجران. فالعنف الجسدي رافق كلّ الحروب القديمة واعتُبر طبيعياً في ذلك العهد البعيد عن الحضارة. أما الدعوات الإنسانية للقائد المنتصر في القتال إلى الرأفة بأعدائه، فقد جاءت متأخرة، ولم تكن تعني شيئاً للمجتمعات البدوية البدائية، وهذا ما دفع بهذه المجتمعات، وفق ابن خلدون، إلى الاعتماد على رجالها في الدفاع عن عائلتهم وقبائلهم.

٣ - استنجد الناجي الوحيد من نجران بالإمبراطور البيزنطي الذي كلّف ملك الحبشة النصراني بالانتقام من ملك حِمْيَر اليهودي. وهذا ما دفع بالنجاشي إلى إرسال جيش كبير بلغ سبعين ألف مقاتل إلى اليمن فأخربها وسبى النساء والأولاد وقتل الرجال.

بعد ذلك سيطر ملك الحبشة على اليمن وقام أبرهة الأشرم بمهاجمة مكّة ومحاصرة الكعبة.

٤ - ولا يمكن تبرير كلّ هذه المعارك من خلال الشعور الديني. فالأسباب الاقتصادية كان لها أيضاً دور مهم في إقناع ملك الحبشة بإرسال حملته إلى بلاد اليمن التي عرفت بغناها وخصب أراضيها.

د - أبرهة الأشرم وحصار مكّة:

أبرهة أبو يكسوم الأشرم هو الذي سار بأصحاب الفيل إلى مكّة لإخراب الكعبة، وذلك لأربعين سنة خَلَت من ملك كِسْرى أنو شروان[(١)]. وجمع أبرهة جيشاً من اليمن وسار باتجاه مكّة، فخرج له رجل من أشراف أهل اليمن وملوكها يقال له: ذو نغر، فدعا قومه ومن أجابه إلى ذلك فاجتمع إليه جيش

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨٤.

تصدّى به لأبرهة الذي انتصر وأسر ذي نغر[١].

وفي طريقه إلى مكّة تصدّى لأبرهة عديدون وقاتلوه، نذكر منهم[٢]:

- نُفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم وشهران وناعس ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله وانتصر أبرهة وأخذ نفيلاً أسيراً.
- مسعود بن معتّب في رجال ثقيف في الطائف الذي أرسل معه أدلاء لقيادته إلى مكّة.

وبوصوله إلى مكّة بعث رجلاً من الحبشة، يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكّة، فساق إليه أموال أهل مكّة من قريش وغيرهم، وأصاب منها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم؛ وهو يومئذ كبير قريش وسيّدها. فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومَن كان بالحَرَم من سائر الناس بقتاله، ثمّ عرفوا أنه لا طاقة لهم به؛ فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة حُناطة الحميريّ إلى مكّة، وقال له: «سل عن سيّد هذا البلد وشريفهم؛ ثمّ قل له: إن الملك يقول لكم: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم البيت؛ فإن لم تعرضوا دونه بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم». فإن لم يُرِد حربي فأتني به.

فلمّا دخل حُناطة مكّة سأل عن سيّد قريش وشريفها، فقيل له: «عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي». فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة. فقال له عبدالمطلب: «والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة؛ هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم. فإن يمنعه فهو بيته وحَرَمه، وإن يخلّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا من دفع عنه». فقال له حُناطة: «فانطلق إلى الملك، فإنّه قد أمرني أن آتيه بك». فانطلق معه عبدالمطلب، ومعه بعض بنيه.

وهنا تدخّل مع أبرهة ذو نغر لمصلحة عبدالمطلب الذي قابل أبرهة وجرى نقاش

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٣٨.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٨٤.
والطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٣٨ - ٤٥٢.
وابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٤٢ - ٣٤٥.

بينهما نقل تفاصيله ابن الأثير الذي كتب:[1]

«وكان عبد المطلب رجلاً عظيماً جليلاً وسيماً، فلما رآه أبرهة أجلّه وأكرمه ونزل عن سريره إليه وجلس معه على بساط، وأجلسه إلى جنبه. وقال لترجمانه قُل له ما حاجتك، فقال له الترجمان ذلك، فقال عبد المطلب: حاجتي أن يردَّ علي مائتي بعير أصابها لي.

فقال أبرهة لترجمانه: قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثمّ زهدت فيك حين كلّمتني. أتكلّمني في إبلك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه.

قال عبد المطلب: أنا ربّ الإبل وللبيت ربّ يمنعه. قال: ما كان ليمنع مني. وأمر بردّ إبله، فلما أخذها قلّدها وجعلها هدياً وبثّها في الحَرَم لكي يصاب منها شيء فيغضب الله.

وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج معه من مكّة والتحرّز في رؤوس الجبال خوفاً من مَعَرَّة الجيش.

ثمّ قام عبد المطلب، فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة».

وكان أبرهة قد ردّ لعبد المطلب إبله، فلمّا انصرف من مقابلته أمر أهل مكّة بالخروج منها واللجوء إلى الجبال خوفاً من الجيش الكبير الذي يقوده ملك اليمن.

وفيما هم كذلك أرسل الله عليهم طيوراً من البحر اسمها الأبابيل راحت تضربهم بالحجارة إلى أن ارتدّوا عن مكّة. نقل الطبري خبر الأبابيل فكتب:[2]

«فأقبلت الطّير من البحر أبابيل، مع كلّ طير منها ثلاثة أحجار: حجران في رجليه وحجر في منقاره، فقذفت الحجارة عليهم، لا تصيب شيئاً إلاّ هشّمته، وإلاّ نَفَط ذلك الموضع، فكان ذلك أوّل ما كان الجُدريّ والحصبة والأشجار المرّة، فأهدمتهم الحجارة. وبعث الله سيلاً أتيّاً، فذهب بهم فألقاهم في البحر.

قال: ولمّا ردّ الله الحبشة عن مكّة، فأصابهم ما أصابهم من النّقمة، عظّمت

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٤٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٤٢ - ٤٤٣.

العرب قريشاً، وقالوا: أهل الله، قاتل الله عنهم، فكفاهم مؤونة عدوّهم».

الدروس المستقاة:

١ - في القتال بين القائد اليمني أرياط وأبرهة، استعمل هذا الأخير الخدعة بأن جعل أحد رجاله يكمن في مكان غير منظور ويغدر بأرياط فيقتله.

فالخدعة والغدر كانا من الأسلحة التي استعملها المقاتلون في كلّ العصور. لذلك على القائد المتبصّر أخذ الحذر دوماً في نشاطاته القتالية.

٢ - قرّر أبرهة هدم الكعبة بعد احتلال مكّة، فجمع جيوش اليمن واتجه بها نحو مدينة مكّة، فجرت وقائع بينه وبين بعض القبائل العربية انتصر فيها وصالح الذين قاتلوه واستعملهم كأدلاء في الصحراء.

فالقائد المتبصّر يستعمل كلّ ما يتوافر لديه من مساعدات للوصول إلى هدفه الأساسي. وكان هدف أبرهة الأساسي احتلال مكّة وليس محاربة القبائل العربية التي كانت على طريقة إلى هدفه.

٣ - قارن أهل مكّة بين قواتهم وقوات ملك اليمن، فلما وجدوا أنّ قواته متفوّقة لم يواجهوه في معركة مباشرة، بل قصدوا شعاب الجبال فطبقوا بذلك مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل». وهذا المبدأ يفرض على القائد العسكري إجراء مقارنة بين إمكانات جيشه وإمكانات جيش خصمه. فإن كانت الثانية تفوق الأولى فعليه تجنّب المواجهة. هذا مع العلم أنّ المقارنة بين جيشين لا تقتصر على العديد والأسلحة، إنما تتعدّى ذلك لتشمل خصائص أخرى أهمها:

- قيمة القائد وإمكاناته الاستراتيجية.
- درجة تدريب الجند وقوّة معنوياتهم وحوافزهم.
- مدى تطوّر الأسلحة.
- حراكية الوحدات.
- الوسائل القتالية المتوافرة.
- خطة العمليات.
- الخ.

٤ - كان إيمان أهل مكّة بإله الكعبة قوياً إذ أنّ عبد المطلب بن هاشم، ولدى مواجهته أبرهة، طالب بإعادة إبله ولم يطالب بعدم تدمير الكعبة. ولمّا سأله أبرهة عن السبب

قـال: «إني أنـا ربّ الإبـل، وإن لـلـبيت ربّاً سيمنعه».

هذا الإيمان البدائي، ورغم أن قبيلة قريش كانت تعبد الأصنام، يظهر مدى تعلّق إنسان العصور القديمة بالدين والآلهة. هذا الإيمان تُرجم، وفق الطبري، برفض فيل أبرهة البارك القيام من موضعه، وإرسال طيور الابابيل الـتـي راحت تـرمـي جنـود جيش الـيـمـن بـالحجـارة، الأمـر الـذي جـعـلـهـم يُـهـزمـون ويرتدون عن الكعبة خائبين.

هـ - نهاية حكم الأحباش في اليمن:

كتب الطبري عن نهاية حكم الأحباش في اليمن ما يأتي:[١]

«رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق. قال: فلمّا انصرف وهرز إلى كِسْرى، وملّك سيفاً على اليمن، عدا على الحبشة فجعل يقتّلها ويبقر النساء عمّا في بطونها، حتى إذا أفناها إلاّ بقايا ذليلة قليلة، فاتّخذهم خَوَلا، واتخذ منهم جمّازين يسعون بين يـديه بحـرابهم، فمكث بذلك حيناً غير كثير. ثمّ إنه خرج يوماً والحبشة تسعى بين يـديـه بـحـرابـهـم؛ حتى إذا كان في وسط منهم وجئوه بالحراب حتى قتلوه، ووثب بـهـم رجـل مـن الحبشـة، فـقـتـل بـالـيـمـن وأوعث، فـأفسـد. فـلـمّـا بلغ ذلك كسرى بـعـث إلـيـهـم وهـرز في أربـعـة آلاف مـن الفُرس، وأمره ألاّ يترك باليمن أسود ولا ولد عربيّة من أسود إلاّ قتله؛ صغيراً أو كبيراً، ولا يدع رجلاً جعداً قططاً قد شرك فيه السودان إلاّ قتله.

فأقبل وهرز، حتى دخل اليمن، ففعل ذلك؛ ولم يترك بها حبشياً إلاّ قتله، ثمّ كتب إلى كسرى بـذلك، فأمّره كسرى عليـهـا. فكان عليها، وكان يَجبيها إلى كسرى حتى هلك. وأمّر كسـرى بـعـده ابـنـه المرزبان بن وهرز، فكان عليها حتى هلك، فأمّر كسرى بـعـده البينجان بن المرزبان بن وهرز حتى هلك، ثمّ أمّر كسرى بعده خُرّ خسرَه بن البينجان بن المرزبان بن وهرز، فكان عليها.

ثمّ إنّ كسرى غضب عليه، فحلف ليأتينه به أهل اليمن يحملونه على أعناقهم ففعلوا.

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

فلمّا قدِمَ كسرى تلقّاه رجل من عظماء فارس، فألقى عليه سيفاً لأبي كسرى، فأجاره كسرى بذلك من القتل ونزعه، وبعث باذان إلى اليمن، فلم يزل عليها حتى بعث الله رسوله محمّداً ﷺ.

وكان - فيما ذُكر - بين كسرى أنو شروان وبين يخطيانوس ملك الروم، موادعة وهدنة، فوقع بين رجل من العرب كان ملّكه يخطيانوس على عرب الشام، يقال له خالد بن جبلة، وبين رجل من لخم، كان ملّكه كسرى على ما بين عُمان والبحرين واليمامة إلى الطائف وسائر الحجاز ومن فيها من العرب؛ يقال له المنذر بن النّعمان - نائرة، فأغار خالد بن جَبَلة على حيّز المنذر، فقتل من أصحابه مقتلة عظيمة، وغنم أموالاً من أمواله. فشكا ذلك المنذر إلى كسرى، وسأله الكتاب إلى ملك الروم في إنصافه من خالد. فكتب كسرى إلى يخطيانوس، يذكر ما بينهما من العهد على الهدنة والصلح، ويعلمه ما لقي المنذر عامله على العرب من خالد بن جَبَلة الذي ملّكه على مَن في بلاده من العرب، ويسأله أن يأمر خالداً أن يردّ على المنذر ما غنم من حَيزه وبلاده، ويدفع إليه ديّة مَن قتل من عربها. وينصف المنذر بن خالد، وألاّ يستخفّ بما كتب به من ذلك، فيكون انتقاض ما بينهما من العهد والهدنة بسببه.

وواتر الكتب إلى يخطيانوس في إنصاف المنذر، فلم يحفل بها، فاستعدّ كسرى، فغزا بلاد يخطيانوس في بضعة وتسعين ألف مقاتل، فأخذ مدينة دارا، ومدينة الرّهاء، ومدينة منبج، ومدينة قنسرين، ومدينة حلب، ومدينة أنطاكية - وكانت أفضل مدينة بالشام - ومدينة فامية، ومدينة حمص؛ ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدائن؛ عنوة، واحتوى على ما كان فيها من الأموال والعروض. وسبى أهل مدينة أنطاكية، ونقلهم إلى أرض السواد، وأمر فبنيت لهم مدينة إلى جنب مدينة طيسبون على بناء مدينة أنطاكية - على ما قد ذكرت قبل - وأسكنهم إياها؛ وهي التي تسمّى الروميّة، وكور لها كورة، وجعل لها خمسة طساسيج: طسّوج نهروان الأعلى، وطسّوج نهروان الأوسط، وطسّوج نهروان الأسفل، وطسّوج بادرايا، وطسّوج باكسايا. وأجرى على السَّبي الذين نقلهم من أنطاكية إلى الروميّة

الأرزاق. وولّى القيام بأمورهم رجلاً من نصارى أهل الأهواز، كان ولاّه الرّياسة على أصحاب صناعاته، يقال له: براز، رِقّة منه لذلك السّبي، إرادة أن يستأنسوا ببراز لحال ملّته، ويسكنوا إليه. وأمّا سائر مدن الشام ومصر فإنّ يخطيانوس ابتاعها من كسرى بأموال عظيمة حملها إليه، وضمن له فدية يحملها إليه في كلّ سنة هي ألاّ يغزو بلاده، وكتب لكسرى بذلك كتاباً، وختم هو وعظماء الروم عليه، فكانوا يحملونها إليه في كلّ عام».

وكان مولد رسول الله ﷺ في عهد كسرى أنو شروان، عام قَدِمِ أبرهة الأشرم أبو يكسوم مع الحبشة إلى مكّة، وساق فيه إليها الفيل؛ يريد هدم بيت الله الحرام؛ وذلك لمضيّ اثنتين وأربعين سنة من ملك كسرى أنو شروان. وفي هذا العام كان يوم جَبَلَة، وهو يوم من أيام العرب المذكور.

ملحق رقم ٢
لائحة ملوك حِمْيَر[1]

الطبقة الأولى من ملوك حِمْيَر
ملوك سبأ وريدان
من السنة ١١٥ ق.م. إلى السنة ٢٧٥ ب.م.

إسم الملك	مدة الحكم
علهان نهفان	١١٥ – ٨٠ ق.م.
شعرا وتار بن علهان نهفان	٨٠ – ٥٠ ق.م.
بريم ايمن بن علهان نهفان	
فرع ينهب	٥٠ – ٣٥ ق.م.
اليشرح يخضب (Elisaras) وابنه يزل بيين	٣٥ – ١٥ ق.م.
اليشرح يحمل بن يزل بيين	١٥ – ٥ ب.م.
وتار	٥ – ٣٥ ب.م.
كرب ايل وتار يوهنعم (وهو Charibael بريبلوس)	٣٥ – ٧٠ ب.م.
ذمر علي ذرح بن كرب ايل	٧٠ – ٩٥ ب.م.
هلك أمير بن كرب ايل	٩٥ – ١٢٠ ب.م.
ذمر علي بيين	١٢٠ – ١٤٥ ب.م.
وهب ايل يحز	١٤٥ – ١٧٠ ب.م.
(ملوك مجهولون)	١٧٠ – ٢٥٠ ب.م.
ياسر انعم	٢٥٠ – ٢٧٥ ب.م.

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٨، ص ١٦٦ – ١٦٨.

الطبقة الثانية من ملوك حمير

ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من السنة ٢٧٥ إلى السنة ٥٢٥م

إسم الملك	مدة الحكم	
شمر يرعش	٢٧٥ - ٣٠٠	ب.م.
ذو القرنين أو أفريقس (الصعب)	٣٠٠ - ٣٢٠	ب.م.
عمرو زوج بلقيس	٣٢٠ - ٣٣٠	ب.م.
بلقيس وتسمى الفارعة	٣٣٠ - ٣٤٥	ب.م.
الهدهاد أخوها	٣٤٥ - ٣٧٤	ب.م.
ملكيكرب يوهنعم (ينعم)	٣٧٤ - ٣٨٥	ب.م.
أبو كرب أسعد بن ملكيكرب	٣٨٥ - ٤٢٠	ب.م.
حسان بن أسعد	٤٢٠ - ٤٢٥	ب.م.
شرحبيل يعفر بن أسعد	٤٢٥ - ٤٥٥	ب.م.
شرحبيل ينوف	٤٥٥ - ٤٧٠	ب.م.
معدي كرب ينعم وابنه لحيعة	٤٧٠ - ٤٩٥	ب.م.
مرثد اللات ينوف	٤٩٥ - ٥١٥	ب.م.
ذو نؤاس (ويُسميه اليونان دميانوس)	٥١٥ - ٥٢٥	ب.م.
ذو جدن (لم يكن له حكم)	٥٢٥ - ٥٣٣	ب.م.



الفصل الخامس
الطبقة الثالثة

العدنانية أو الاسماعيلية
أو عرب الشمال في الطور الثاني

تحكّم الوضع الجغرافي في تاريخ العرب قبل الإسلام أُسوة بجميع الشعوب التي تأثرت بطبيعة البلاد التي استوطنتها. ففيما رأينا أن بلاد اليمن عرفت حضارات مستقرّة وحضرية سنق الحديث عنها، ساد شمال شبه الجزيرة العربية جو من البداوة ساهمت طبيعتها الصعبة والصحراوية في امتداده من عصور الجاهلية وصولاً إلى صدر الإسلام.

هذه الطبيعة الصعبة عملت أيضاً على غرس صفات في نفس البدويّ العربي غالبيتها إيجابية كالشجاعة والكرم والإباء والفروسية والإيثار والقبلية والرعي والصيد والتنقّل شبه الدائم سعياً وراء الكلأ، والسلب وروح الثأر. كما أنشأ العربي في عصره الجاهلي مجتمعاً عسكرياً فرضته طبيعة الإقليم. وفي الوقت نفسه تمتّع بمفاهيم متعدّدة للشرف والشهامة والمروءة وغيرها من الفضائل الخلقية(١).

فقد عاش عرب الشمال في الطور الثاني في الجاهلية ضمن مجتمعات بدوية منغلقة ومقسّمة إلى قبائل متناحرة تملك جميع المواصفات العسكرية.

والعرب أطلقوا اسم الجاهلية على الفترة التاريخية من حياتهم التي سبقت قيام الإسلام، ويبدو أن هذه التسمية قد

---

(١) ريحانا، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ١٥١.

اشتقت من «جهل العرب للتوحيد وضلالتهم في اتّباع شرائع الأنبياء، ومن العنجهية وسرعة الغضب وحدّته»[1].

أولاً – عرب الشمال

يقصد بعرب الشمال عامة الاسماعيلية أو العدنانية الذين سكنوا شمال اليمن في تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك شمالاً حتى الشام والعراق. وهم ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

ورواية المؤرّخين العرب عن أصول عرب الشمال منقولة عن العهد القديم، إذ تُحدّثنا المصادر العربية أن النبيّ إبراهيم وصل إلى مكّة ومعه زوجته هاجرَ وابنها إسماعيل فتركهما هناك. ونشأ إسماعيل بين سكان مكّة الذين كانوا ينتسبون إلى قبيلة جُرهم والتي تزوّج منها إسماعيل. وأبناء إسماعيل تحدّر منهم أجداد قبائل العرب.

وفي المصادر العربية أن ابراهيم وابنه إسماعيل بشّرا بدين التوحيد وأقاما في مكّة معبداً لهذا الدين دعي باسم الكعبة راح الناس يحجّون إليه. أما بالنسبة إلى عدنان، فالمعروف أنّه أحد أعقاب إسماعيل.

ويروي جرجي زيدان خبر إسماعيل وأحفاده كما يلي[2]:

«أما العرب فروايتهم في أصل عرب الشمال تكاد تكون منقولة عن التوراة، إلا من حيث المكان الذي أقام فيه إسماعيل وأمه، فهم يجعلونه مكة بدل برية فاران، ويقولون إن إسماعيل أقام بمكة، وتزوج امرأة من جرهم أصحاب مكة في ذلك العهد، فولدت له ١٢ ولداً. وليس لدينا رواية ثالثة عن أصل أولئك العرب. والروايتان متفقتان في أن إسماعيل رُبّي في البادية، وأنه كان رامياً بالقوس شأن أهل البادية، وأنه خلّف ١٢ ولداً أسماؤهم تُطابق أسماء بعض قبائل الشمال، وإنما اختلفوا في المكان الذي أقام فيه إسماعيل. فالتوراة تقول إنه برية فاران أو جبل فاران، وكلاهما عند العقبة شمالي جزيرة سينا، والعرب يقولون إنه مكة بالحجاز. ويسهل تطبيق الروايتين متى علمنا

---

(١) بيضون وزكار، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٧.

أن جبال مكة أو جبال الحجاز تُسمى أيضاً فاران، فيكون المراد أن البرية التي أقام فيها إسماعيل برية الحجاز، أو أنه أقام حيناً في سينا، ثم خرج إلى الحجاز وسكن هناك وتزوج. والتوراة لم تذكر إسماعيل بعد خروجه من بيت أبيه إلا عند حضوره دفنه».

وهكذا يمكننا الجزم بأن عرب الشمال في الطور الثاني تُعتبر أخبارهم قديمة قِدَم أخبار عرب الجنوب، لأن الإسماعيلية بدأ تاريخها في القرن ١٩ قبل الميلاد، رغم قلّة الأخبار القديمة عنهم.(١) فقد جاء في سفر التكوين، في أثناء الأخبار عن قصّة يوسف بعد أن رماه إخوته في البئر ما يلي:(٢)

«ثمّ جلسوا يأكلون ورفعوا عيونهم ونظروا، فإذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم محمّلة نكعة وبلساناً ولاذناً وهم سائرون لينزلوا إلى مصر». وهؤلاء الإسماعيليون التجار هم الذين اشتروا يوسف وباعوه في مصر، وكان ذلك في القرن ١٨ ق.م.

وفي القرن الثالث عشر ق.م. جاء ذكر الإسماعيليين في سفر القضاة تحت تسمية «بني المشرق».(٣) ثمّ ذُكروا في سفر أشعيا تحت اسم «قيدار» أي في القرن الثامن ق.م. وفي القرن السادس ق.م. اكتسح نبوخذ نصر شمالي شبه الجزيرة العربية وغلب الإسماعيليين في البادية. وكان ذلك آخر ذكر لعرب الشمال في العهد القديم.

وفي أوائل النصرانية عاد الإسماعيليون للبروز بعد أن تكاثروا، وكانوا قبائل ذات شأن استوطنت تُهامة وتفرّق أفرادها في الحجاز ونجد وبادية الشام. وكانوا على البداوة باستثناء قريشاً التي تحضّرت في مكّة.

وكانت أحوال مكّة قد ازدهرت مع الأيام خاصة لوقوعها على طريق القوافل ولتطوّر تجارتها شمالاً مع بلاد الشام والعراق وجنوباً مع اليمن. وهذا ما أدى إلى الصراع على السلطة حيث انتزعتها قبيلة خُزاعة من

---

(١) زيدان، المصدر نفسه، ص ١١.

(٢) سفر التكوين، عدد ٢٥، ص ٣٧.

(٣) سفر القضاة، ص ٦، عدد ٣٣.

جرهم، قبل أن تسيطر قريش بزعامة قُصي بن كلاب في النصف الثاني من القرن الخامس.

ثانياً – المجتمع العربي الجاهلي

سكنت البادية في العصر الجاهلي قبائل بدوية لأنَّ البادية، وفق ابن خلدون، لا يكون سكناها إلا للقبائل أهل العصبية التي تقوم بالدفاع عن نفسها بنفسها. كتب ابن خلدون عن سكنى البادية[1]:

«فأما المدن والأمصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض أو يعدو عليهم فهم مكبوحون بحكمة القهر والسلطان عن التظالم إلاّ إذا كان من الحاكم بنفسه. وأما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الأسوار عند الغفلة أو الغرة ليلاً أو العجز عن المقاومة نهاراً أو يدفعه ذياد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة. وأما أحياء البدو فيذع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتخلة. وأما حللهم فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلاّ إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتدّ شوكتهم ويخشى جانبهم».

ويمكننا رسم صورة لهذا المجتمع كما يلي:

أ – الأسرة:

الأسرة هي الوحدة الأساسية في نظام البدو الاجتماعي. السلطة العليا هي سلطة الوالد، والإرث للذكور الذين يقطنون مع أهلهم عند زواجهم فتتسع الأسرة وتمتد. والبدوي متعدّد الزوجات اللواتي يقلّ عددهن لأسباب اقتصادية، إذ أنه من العسير جداً إعالة عائلة كبيرة في الصحراء. ويفضّل البدوي الزواج من قبيلته بهدف نقاء الجنس وحفظاً للتقاليد (وخصوصاً من ابنة عمّه).

---

(١) ابن خلدون، المقدّمة، مرجع سابق، ص ١٠١.

ب - **القبيلة:**

القبيلة هي أكبر تنظيم إجتماعي في الجاهلية، وهي مجموعة أُسَر وبطون وأفخاذ توحّد بينها صلات النسب والمصالح المشتركة فتعيش معاً وتهاجر معاً بسبب التماسك والأمن اللذين يُعتبران من أهم الملامح المميّزة للمجتمع البدوي. فالقبيلة تستنفر كلّها لردّ الإعتداء وتشارك كلّها في واجب الثأر والغزو. فإذا سارت إلى الغزو يسير جميع من بإمكانه حمل السلاح على صهوات الخيول، ويترك الفتيان والكهول للدفاع عن الحريم والأملاك. وأحياناً تسير النساء خلف الإرسالية العسكرية بهدف دفع المقاتلين إلى المزيد من البذل والعطاء حفاظاً عليهن.

ج - **السلطة:**

تمارس السلطة في القبيلة بدرجة محدودة جداً، فليس هناك حكومة، إنما زعيم يختاره مجلس من شيوخ القبيلة لصفات شخصية فيه، وهو مقدّم بين أنداد. يتولّى القضاء عندما يُحْتكم إليه المتنازعون فقط. وليس من الضروري أن يرث ابن الزعيم والده في الزعامة.

النظام السياسي الذي كان سائداً في بلاد العرب قبل الإسلام كان بدائياً قائماً على رابطة القربى التي تجمع الأُسَر في عشائر وقبائل. والعربي لم يشعر بواجب الولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة.

د - **الشعر:**

عُرف البدوي بنَظْم الشعر وحفظه وإنشاده، حتى قيل إن الشعر الجاهلي نقل غيباً حتى عصر التدوين. والشاعر الجاهلي اعتُبِر خطيب قبيلته والناطق باسمها ومشدّد عزائمها في الحرب، حتى أن بعض القبائل انتسبت إلى أحد الشعراء الجاهليين.

وسرعة انتقال الشعر في البادية كان قياسياً.

رُوي أنّ أحد أبناء قبيلة نُمير اختلف مع أحد الشعراء في سوق بجانب مكّة، وكان يرعى غنمه، فهجاه الشاعر وهجا قبيلته بقوله:

«وغُضَّ الطَرفَ إنَّكَ مِن نُمَير
فَلاَ كَعباً بَلَغْتَ ولا كِلاَبَا»(١)

(١) كعب وكلاب من قبائل العرب المشهورة.

ولم يعد بإمكان الراعي إلاّ المغادرة الفورية والسريعة نحو قبيلته التي تبعد مئات الفراسخ عن مكّة. إلاّ أنه، ومع وصوله إلى قبيلة نمير، كان هجاؤه قد سبقه إليها، ممّا أدى إلى طرده من القبيلة.

وأبرز الشعر الجاهلي المعلّقات السبع التي كانت معلّقة بالكعبة. كتب ابن كثير عن المعلّقات ما يلي(١):

«إن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش، فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيماً لشأنها، فاجتمع من ذلك هذه المعلّقات السبع. فالأولى لامرىء القيس بن حجر الكندي ومطلعها:

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
بِسقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

والثانية للنابغة الذبياني: واسمه زياد بن معاوية، ويقال زياد بن عمرو بن معاوية بن ضَباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض وأولها:

يَا دَار مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ
أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سالِفُ الأَبَدِ

والثالثة لزهير بن أبي سُلمى بن ربيعة بن رياح المزني وأولها:

أَمِنْ أُمّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تُكَلَّمِ
بِحَوْمَانةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ(٢)

والرابعة لطَرَفَة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة بن عُكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل وأولها: [الطويل]

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبُرقةِ ثَهمَدِ
تَلُوحُ كبَاقِي الوَشْمِ في ظَاهِرِ اليَدِ

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٠ - ٢٤١.
(٢) المتثلّم: جبل في بلاد بني مرّة.

والخامسة لعنترة بن شداد بن معاوية بن قُراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قُطَيعَة بن عبس العبسي وأولها: [الكامل]

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ
أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

والسادسة لعلقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس أحد بني تميم وأولها: [البحر الطويل]

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الحِسَانِ طَرُوبُ
بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

والسابعة - ومنهم من لا يثبتها في المعلقات، وهو قول الأصمعي وغيره - وهي للبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصفة بن قيس بن عيلان بن مضر وأولها: [الكامل]

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُها
بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُها»

ثالثاً – الحالة السياسية عشية ظهور الإسلام

شهدت شبه الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام صراعاً سياسياً تجلّى بين القوى الكبرى في ما بذله ملوك حِمْيَر من الجهد لبسط سلطانهم على أعالي الجزيرة؛ وفي سيطرة ملوك كِنْدة على القبائل في شمالي نجد. وفي المنافسة التقليديّة بين البيزنطيين والفرس للإستئثار بولاء العرب وبمنافع الإتجار معهم؛ وكذلك في النزاع المتواصل بين دولَتَيْ الغساسنة والمناذرة في شمال شبه الجزيرة. يضاف إلى ذلك اتساع سلطان قبيلة قريش في الوسط وارتفاع ميزتها عند العرب بشكل عام ممّا أهلها لقيادتهم في الإسلام.

إذاً، يستدلّ من كلّ ما ذكرنا أنه كان هناك في أواخر الجاهلية اتجاه لتكوين وحدات سياسية أكبر وأشمل من سلطان القبيلة. علاوة على ذلك ساد شبه الجزيرة صراع بين النصرانية واليهودية حاولت

خلاله بيزنطية السيطرة على اليمن ممّا ولّد ردّات فعل دفعت نبلاء اليمن الحِمْيَريين إلى اعتناق اليهودية.

وهكذا ومع نهاية العصر الجاهلي، حدثت تغييرات سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية فتلاحقت حوادث الغزو والمجاعات والجفاف فاحتاج الوضع إلى تسوية. وجاء الإسلام فحلّ جميع هذه المشاكل.

- الوضع في مكّة قُبيل الإسلام:

قُبيل الإسلام كانت قبيلة قريش تتزعّم مدينة مكّة برئاسة قصيّ من كلاّب، الذي طرد خزاعة منها ونظّم شؤونها في شكل جعل مجموعة من التجار تحكمها. ومارس القُرَيشيون التجارة في شكل ناشط جداً، وكانت لهم رحلتان تجاريتان، رحلة جنوباً وصولاً إلى اليمن، وأخرى شمالاً وصولاً إلى بلاد الشام.

وعُقدت الأسواق حول مكّة، وهي أسواق عكاظ وذو المجنة وذو الحجاز، منذ أول شوال من كلّ سنة، كانت تنتهي مع أول أيام الحج. وكانت مواسم الحج مناسبة للبيع والشراء والتبشير والدعاية وإقامة التحالفات وحل الخلافات وإلقاء القصائد التي عُرف أهمها بالمعلّقات السبع.

هذه المناسبات جعلت قريش تتزعّم عرب الشمال وتسيطر اقتصادياً وتجارياً على شمال شبه الجزيرة، وتوحّد لهجات الشمال تمهيداً لظهور الإسلام ونزول القرآن على أحد أبنائها، النبيّ محمّد بن عبدالله ﷺ.

عاش من أبناء قصي بن كلاب أربعة من الذكور، هم عبدالدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي، وكان عبد مناف أبرزهم وأغناهم.

وصف ابن الأثير وضع مكّة قبيل الإسلام وتوريث قصي عبدالدار ومنازعته من قِبَل آل عبدمناف السيادة على مكّة، فكتب(1):

أ - «ما أحدثته قريش بعد الفيل:

لمّا كان من أمر أصحاب الفيل ما ذكرناه عظمت قريش عند العرب فقالوا لهم أهل الله وقطنة يُحَامِي عنهم، فاجتمعت قريش

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٤٨ - ٣٥١.

بينها وقالوا: «نحن بنو إبراهيم عليه السلام وأهل الحَرَم، ووُلاة البيت، وقاطنو مكّة فليس لأحد من العرب مثل منزلتنا، ولا يعرف العرب لأحدٍ مثل ما يعرف لنا. فهلُمّوا فلنتفق على ائتلاف أنّنا لا نعظم شيئاً من الحل كما يُعظِّم الحرم. فإننا إذا فعلنا ذلك استخفت العرب بنا وبحرمنا». وقالوا: «قد عَظُمَت قريش من الحل مثل ما عظمت من الحرم». فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها وهم يعرفون ويُقِرّون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويرى سائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها. وقالوا: «نحن أهل الحرم، فلا نعظم غيره ونحن الحمس». وأصل الحماسة الشدّة أنهم تشدّدوا في دينهم، وجعلوا لمن ولد واحدة من نسائهم من العرب ساكني الحلّ مثل مالهم بولادتهم. ودخل معهم في ذلك كنانة وخزاعة وعامر لولادة لهم.

ثمّ ابتدعوا فقالوا: «لا ينبغي للحمس أن يعملوا الأقط ولا يسلؤا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتاً من شَعر، ولا يستظلّوا إلاّ في بيوت الأدَم ما كانوا حُرُماً». وقالوا: «ولا ينبغي لأهل الحِلّ أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحلّ في الحرم إذا جاؤوا حُجّاجاً أو عُمّاراً، ولا يطوفوا بالبيت طوافهم إذا قدموا إلاّ في ثياب الحمس. فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عُراةً، فإن أنِفَ أحدٌ من عظمائهم أن يطوف عرياناً إذا لم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه، ألقاها إذا فرغ من الطواف ولا يمسّها هو ولا أحد غيره». وكانوا يسمونها اللقى. فدانت العرب لهم بذلك، فكانوا يطوفون كما شرعوا لهم، ويتركون أزوادهم التي جاؤوا بها من الحل، ويشترون من طعام الحرم ويأكلونه.

فكانوا كذلك حتى بعث الله محمّداً ﷺ، فنسخه فأفاض من عرفات، وطاف الحجاج بالثياب التي معهم من الحِلّ، وأكلوا من طعام الحل في الحرم أيام الحج، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، أراد بالناس العرب. أمر قريشاً أن يفيضوا من عرفات».

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٩.

المسعودي تطرق بدوره إلى أوضاع مكّة قبيل الإسلام فكتب:[1]

ج - «ولاية خزاعة أمر البيت:

قال المسعودي: ولمّا خرج عمرو بن عامر وولده من مأرب، انخزع[2] بنو ربيعة فنزلوا تهامة، فسموا خزاعة لانخزاعهم.

ولمّا ثارت الحرب بين إياد ومضر ابني نزار وكانت على إياد، قلعت الحجر الأسود ودفنته في بعض المواضع، فرأت ذلك امرأة من خزاعة، فأخبرت قومها، فاشترطوا على مضر أنهم إن ردّوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم.

عَمرُو بنُ لُحَيَّ أوّل مَن عَبدَ الأصنام:

فوفوا لهم بذلك، وُولِّيت خزاعة أمر البيت وكان أول من ولي منهم عمرو بن لحي، واسم لحي حارثة بن عامر، فغيّر دين إبراهيم وبدله، وبعث العرب على عبادة التماثيل، لخبر قد ذكرناه في هذا الكتاب وغيره، حين خرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة.

وقويت خزاعة، وعمّ الناس ظلم عمرو بن لحي.

خِصَالُ ولايَة البَيت الثَّلاث:

وكانت ولاية البيت في خزاعة وفي مضر ثلاث خصال: الإجازة بالناس من عرفة، والإفاضة بالناس غداة النحر إلى مِنَى. فانتهى ذلك منهم إلى أبي سيارة، فدفع أبو سيارة من مزدلفة إلى منى أربعين سنة على حمار له، ولم يعتل في ذلك، حتى أدركه الإسلام، فكانت العرب تتمثل به فتقول: «أصح من عَيْر أبي سيارة».

د - ولايَة البيت تَؤول إلى قصيّ بن كِلاب:

وقد كان قصي بن كلاب بن مرّة تزوّج ابنة خليل، وخليل هو آخر من وُلّي البيت

(١) المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٦١ - ٦٥.

(٢) انخزع: تخلّف.

من خزاعة، وقد كان عمرو بن لحي - حين عمّر ما ذكرنا من السنين - مات وله من الولد وولد الولد ألف.

ولّما حضرت خليلاً الوفاة - وهو آخر من ولي البيت من خزاعة - وقد كان عمرو على ما ذكرنا جعل ولاية البيت إلى ابنته زوج قصي بن كلاب، فقيل له: إنها لا تقوم بفتح الباب وغلقه.

فجعل ولاية البيت إليها، وفتح الباب وغلقه إلى رجل من خزاعة يعرف بأبي غبشان الخزاعي، فباعه أبو غبشان إلى قصيّ ببعير وزق خمر، فأرسلت العرب ذلك مثلاً، فقالت: «أخسر من صفقة أبي غبشان».

وقد كانت ولاية البيت في خزاعة ثلثمائة سنة، واستقام أمر قصي، وعشّر على من دخل مكّة من غير قريش، وبنى الكعبة، ورتّب قريشاً على منازلها في النسب بمكّة، وبين الأبطحي من قريش، وهم الأباطح، وجعل الظاهري ظاهرياً.

قُرَيْش البِطاح:

وقريش البطاح: هي قبائل عبد مناف، وبني عبد الدار، وبني عبد العزى بن قصي، وزهرة، ومخزوم، وتيم بن مرة، وجمح، وسهم، وعدي، وهم لعقة الدم، وبنو عتيك بن عامر بن لؤي.

قُرَيش الظَّواهر:

وقريش الظواهر، بنو محارب والحارث بن فهر، وبنو الأدرم بن غالب بن فهر، وبنو هصيص بن عامر بن لؤي.

الأحلاف:

والأحلاف من قريش: بنو عبدالدار بن قصي، وسهم، وجمح، وعدي، ومخزوم.

المُطيِّبون:

والمطيّبون: بنو عبد مناف، وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة، وتيم، وبنو الحارث ابن لؤي».



الفصل السادس
نسب رسول الله ﷺ وأخبار آبائه وأجداده

من المعروف أنّ النبي محمّد ﷺ ولد السنة ٥٧٠م.، أي في عام الفيل في مكّة وكان ذلك في العصر الجاهلي الذي نتكلّم عنه في هذا الجزء من الموسوعة. والرسول ﷺ يعود في نَسَبَه إلى قريش التي كانت تسيطر قبيل الإسلام على مكّة وتنظّم شؤونها. ولولادة النبي العربي ﷺ أهمية قصوى في مجريات الأحداث والمعارك في المرحلة اللاحقة، أي مرحلة صدر الإسلام والفتوحات الكبرى ودول العرب خلال العصرين الأموي والعباسي والعصور التي تلتهما.

لذلك رأينا وجوب التكلّم بتفصيل عن نسب الرسول ﷺ وأخبار أجداده وآبائه، تمهيداً للخوض في تاريخ الإسلام ومعاركه في الأجزاء التالية في هذه الموسوعة.

أولاً – نسب رسول الله ﷺ

إسم رسول الله محمّد ﷺ، وهو ابن عبدالله بن عبد المطلب الذي كان أصغر إخوته. وكان عبدالله والزبير وعبد مناف (أبو طالب) هم بنو عبد المطلب من أم واحدة هي فاطمة بنت عمرو بن عمران بن مخزوم.

وكان جدّ النبي ﷺ عبد المطلب بن هاشم قد نذر حين أصابه من قريش في حفر زمزم ما أصابه، انه، إذا ولد له عشرة أبناء، لينحرنّ أحدهم لله عند الكعبة[١]. فلمّا بلغ بنوه عشرة،

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٩٧.

وعرف انهم سيمنعونه، جمعهم وأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء به، فأطاعوه واتفقوا على أن يكتب كلّ منهم اسمه على قدح من أقداح هبل[1]. ثمّ أمر عبد المطلب صاحب القداح قائلاً:

«إضرب على بنيّ هؤلاء بقداحهم هذه»، بعد أن أخبره بنذره، وأن من يأتي سهم هبل مقابل قدحه يذبح وفاءاً لنذره.[2]

وكان عبدالله أحبّ أبناء عبد المطلب إليه. رغم ذلك، وعندما ضرب صاحب القداح وخرج قدح عبدالله، أخذ عبد المطلب بيده، وأخذ الشفرة، ثمّ أقبل إلى أساف ونائلة[3] ليذبحه. منعته قريش من ذلك طالبين منه أن يفتديه بعدد من الإبل، ففعل بعد أن بلغ عدد الإبل التي ضربت عليها القداح، مائة نحرت بدلاً عن عبدالله[4].

نقل الطبرى تفاصيل ضرب القداح، فكتب[5]:

«وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق به إلى الحجاز، فإنّ به عرّافة لها تابع، فسلها، ثمّ أنت على رأس أمرك؛ إن أمرتك أن تذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قَبِلته.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدوها - فيما يزعمون - في خيبر، فركبوا إليها حتى جاؤوها، فسألوها، وقصّ عليها عبد المطلب خبر ابنه، وما أراد به، ونذره فيه. فقالت لهم: ارجعوا عنّي اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله. فرجعوا عنها، فلمّا خرجوا من عندها، قام عبد المطلب يدعو الله. ثمّ غدوا عليها، فقالت: نعم، قد جاءني الخبر، كم الدّية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل - وكانت كذلك - قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثمّ

(١) كان هُبَل أعظم أصنام قريش في مكّة، وكان في جوف الكعبة. وكان عند هبل سبعة أقداح، الأول فيه «العقل»، والثاني «نعم»، والثالث «لا»، والرابع «منكم»، والخامس «مُلصَق»، والسادس «من غيركم» والسابع «المياه».

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٧٠.

(٣) أساف ونائلة هما وثنا قريش اللذان تنحر عندهما ذبائحها.

(٤) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٣٠.

(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٩٩.

قرّبوا صاحبكم، وقربوا عشراً من الإبل، ثمّ أضربوا عليها وعليه بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا في الإبل حتى يرضى ربّكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها، فقد رضي ربّكم، ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكّة، فلما أجمعوا لذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثمّ قرّبوا عبدالله وعشراً من الإبل - وعبد المطلب في جوف الكعبة عند هُبَل يدعو الله - فخرج القِدح على عبدالله، فزادوا عشراً، فكانت الإبل عشرين. وقام عبد المطلب في مكانه ذلك يدعو الله، ثمّ ضربوا فخرج السّهم على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فكانت ثلاثين. ثمّ لم يزالوا يضربون بالقداح ويخرج القِدح على عبدالله، فكلّما خرج عليه زادوا من الإبل عشراً؛ حتى ضربوا عشر مرات، وبلغت الإبل مائة، وعبد المطلب قائم يدعو. ثمّ ضربوا فخرج القِدح على الإبل، فقالت قريش ومَن حضر: قد انتهى رضا ربّك يا عبد المطلب. فزعموا أنّ عبد المطلب قال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على الإبل وعلى عبدالله، وقام عبد المطلب يدعو فخرج القِدح عل الإبل، ثمّ عادوا الثانية وعبد المطلب قائم يدعو، ثمّ عادوا الثالثة فضربوا، فخرج القدح على الإبل فنُحرت، ثمّ تركت لا يصدّ عنها إنسان ولا سبع».

وكان عبدالله من أجمل رجال قريش. لذلك، ولما ذكر لآمنة بنت وهب، وكانت أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، ووالدها سيّد بني زُهرة سناً وشرفاً، قيل لها: «هل لك ان تتزوّجيه؟»، قبلت وتزوّجته، فكان محمّد ﷺ نتيجة زواجهما[1].

كتب ابن الأثير عن ولادة رسول الله ﷺ ما يأتي[2]:

«قال ابن إسحاق: ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وكان مولده بالدار التي تعرف بدار ابن يوسف. قيل: إن رسول الله ﷺ وهبها عُقَيل بن أبي طالب، فلم تزل في يده حتى

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٥٥.

(٣) اابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

توفّي؛ فباعها ولده من محمّد بن يوسف أخي الحجاج، فبنى داره التي يقال لها دار ابن يوسف وادخل ذلك البيت في الدار حتى أخرجته الخيزران، فجعلته مسجداً يُصَلّى فيه. وقيل: ولد لعشر خَلَوْن منه، وقيل: لليلتين خلتا منه.

قال ابن إسحاق: إن آمنة إبنة وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدّث أنّها أُتيت في منامها لّما حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: «إنك حملت بسيّد هذه الأمة فإذا وقع بالأرض قولي:

أعيذه بالواحد. من شرّ كلّ حاسد.

ثمّ سميه محمّداً. ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بُصرى من أرض الشام. فلما وضعته أرسلت إلى جدّه عبد المطلب أنه قد وُلِد لك غلام فأتِه فانظر إليه. فنظر إليه، وحدّثته بما رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسمّيه.

وقال عثمان بن أبي العاص: حدّثتني أمي أنها شهدت ولادة آمنة ابنة وهب رسول الله ﷺ فما شيء أنظر إليه من البيت إلاّ نور، وإني لأنظر النجوم لتدنو حتى أني لأقول لتقعن عليّ».

وبعد زواج عبدالله أقبل من الشام في إبل لقريش، فنزل المدينة وهو مريض، فأقام فيها حتى توفي ودُفِن في دار النابعة، وقيل التابعة، في الدار الصغرى[1]. ولما توفي عبدالله، كانت آمنة بنت وهب حاملاً بالرسول ﷺ[2].

أما وفاة والدة الرسول ﷺ فكانت بعد سبع سنين من ولادته ﷺ[3].

ثانياً – عبد المطلب

اسمه شيبة، سمّي ذلك لأنه كان في رأسه شيبة. وقيل له عبد المطلب أيضاً. وكان والده هاشم قد سار في تجارة له إلى الشام، فسلك طريق المدينة حيث نزل على عمرو بن زيد بن لبيد الخزرجي، فرأى ابنته سلمى فأعجبته وخطبها إلى أبيها عمرو، وتزوّجها

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٠١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٦١.

(٣) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٩٧.

فحملت منه في يثرب. ثمّ مضى إلى الشام فتوفي في غزّة[1].

وعن تسمية عبد المطلب نقل علي بن الموصلي أنّ هاشم بن عبد مناف تزوّج امرأة من بني عديّ بن النجار، ذات شرف، تشرط على من خطبها المقام بدار قومها. فتزوّجت بهاشم، فولدت له شيبة الحمد، فربي في أخواله مكرّماً. فبينا هو يناضل فتيان الأنصار إذ أصاب خصله، فقال: أنا ابن هاشم. وسمعه رجل مجتاز، فلمّا قدم مكّة، قال لعمّه المطلب بن عبد مناف: «قد مررت بدار بني قيلة فرأيت فتىً من صفته ومن صفته... يناضل فتيانهم، فاعتزي إلى أخيك، وما ينبغي ترك مثله في الغربة». فرحل المطلب حتى ورد المدينة، فأراد أصحابه، فقال: «ذلك إلى والدته». فلم يزل بها حتى أذِنت له، وأقبل به قد أردفه، فإذا لقيه اللاقي وقال: «مَن هذا يا مطّلب؟» قال: «عبد لي»، فسمي عبد المطلب.

فلمّا قدم مكّة، سلّمه مُلك أبيه. فعرض له نوفل بن عبد مناف في ساحة له فأخذها منه عنوة، فمشى عبد المطلب إلى رجالات قومه وسألهم النصرة على عمّه، فقالوا: لسنا بداخلين بينك وبين عمّك. فلمّا رأى ذلك كتب إلى أخواله من آل النجار فأنجدوه بثمانين راكباً أناخوا في فناء الكعبة. ثمّ طلبوا من نوفل إنصاف ابن أختهم فقال: «أفعل ذلك بالحب لكم والكرامة». وهكذا ردّ إليه الساحة، وانصرف آل النجار إلى بلادهم.

وبعد وفاة عمّه المطلب بن عبد مناف، آلت إليه السقاية والرفادة وعَظُم في قومه فأصبح المتقدّم بينهم. وهو الذي كشف عن زمزم، واستخرج ما كان مدفوناً فيها، ومنها غزالان من الذهب كانت جُرهم قد دفنتهما حين أخرجت من مكّة، وأسياف وأدرع. فجعل عبد المطلب الأسياف في باب الكعبة، وضرب في الباب الغزالين صفائح من ذهب، فكانا أول من ذهب للكعبة. وكانت كنية عبد المطلب أبا الحارث لأن الأكبر من أولاده الذكور كان اسمه الحارث[2].

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٠١.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٧٤ - ٢٨٤.

ثالثاً – هاشم

اسمه هاشم عمرو؛ وإنما قيل له هاشم، لأنه أوّل مَن هشم الثريد لقومه بمكّة وأطعمه، وله يقول مطرود بن كعب الخُزاعيّ – وقال ابن الكلبي: «إنّما قاله ابن الزّبعرَى».

عَمْرُو الذي هَشَمَ الثّرِيدَ لِقَوْمِه
ورِجالُ مَكّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

ذُكر أنّ قومه من قريش، كانت أصابتهم لَزبة وقَحط، فرحل إلى فلسطين، فاشترى منها الدقيق، فقدم به مكّة، فأمر به فخبز له ونحر جَزوراً، ثمّ اتّخذ لقومه مرقة ثريد بذلك الخبز.

وذُكر أنّ هاشماً هو أوّل مَن سنّ الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء والصيف[1].

وكان هاشم أكبر أولاد أبيه، وقيل إنه كان توأماً مع أخيه عبد شمس، وأن هاشماً خرج ورجله ملتصقه برأس عبد شمس، فلمّا تخلّصت سال بينهما دم، فقال الناس إنه سيكون بين أولادهما حروب، فكانت الحرب بين بني أمية وبني العباس أثناء الثورة العباسية سنة ثلاث وثلاثين ومائة للهجرة[2].

وقيل إن أمية بن عبد شمس حسد هاشماً، وأراد أن يصنع صنيعه في إطعام القوم، فعجز عن ذلك.

نقل الطبري رواية عن الخلاف بين الأخوين وخروج أمية إلى الشام وبقائه فيها عشر سنين، فكتب[3]:

«قال: فحسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف – وكان ذا مال – فتكلّف أن يصنع صنيع هاشم، فعجز عنه. فشمت به ناس من قريش فغضب، ونال من هاشم، ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنّه وقدره، ولم تدعه قريش وأحفظوه. قال: «فإني أنافرك على خمسين ناقة سود الحدَق، تنحرها ببطن مكّة، والجلاء عن مكّة عشر سنين». فرضي بذلك أميّة، وجعلا بينهما الكاهن الخُزاعي،

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٠٤.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢٧٥ – ٢٧٦.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٠٤ – ٥٠٥.

فنفّر هاشماً عليه، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها مَن حضره، وخرج أميّة إلى الشام، فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه أوّل عداوة وقعت بين هاشم وأميّة».

وكان أوّل من مات من ولد عبد مناف ابنه هاشماً، مات في غزة من أرض الشام، ثمّ مات عبد شمس في مكّة فقبر في أجياد، ثمّ مات نوفل بسَلمان من طريق العراق، ثمّ مات المطلب بردمان من أرض اليمن. وكانت الرفادة والسقاية بعد هاشم إلى أخيه المطلب.

رابعاً – عبد مناف

هو المغيرة، وكان يقال له القمر لجماله وحسنه. ونقل عن قصيّ قوله: «ولد لي أربعة، فسميت اثنين باسمي صنمين، وواحد بداري، وواحد بنفسي. وهؤلاء هم عبد مناف وعبد العزى وعبد الدار وعبد قصيّ. أمهم كلّهم حُبّى بنت حُليل بن حُبيشة بن سلول بن كعب بن عمرو بن خزاعة[1].

خامساً – قصي بن كلاب

هو ابن كلاب بن مرّة كعب بن لؤي القرشي.

تحدثنا الروايات العربية أن النبي إبراهيم جاء إلى مكّة حيث ترك زوجته هاجر وابنها إسماعيل الذي نشأ بين سكّان مكّة، وكانوا من قبيلة جرهم. تزوّج إسماعيل من جرهم وأنجب أولاداً هم أجداد قبائل العرب. وبشر إبراهيم بديانة التوحيد في منطقة مكّة وبنى فيها معبداً عُرف باسم الكعبة، فأخذ الناس يحجّون إليها.

ومع توالي السنين ازدهرت مكّة، الأمر الذي أدى إلى الصراع حولها فانتزعتها قبيلة خزاعة من جُرهم، قبل أن تقوم قريش بزعامة قصي بن كلاب بطرد خزاعة منها في النصف الثاني من القرن الخامس.

ونظم قصي شؤون مكّة فأوجد فيها شبه دولة قائمة على التوافق بين سكانها، وخاصة التجار الذين سيطروا في المدينة. وتدفقت إليهم الأموال من خلال

---

(١) المرجع نفسه.

رحلتين تجاريتين كانت قوافلهم تقوم بهما مجتمعة:

- رحلة شمالاً إلى بلاد الشام.
- ورحلة جنوباً إلى بلاد اليمن.

علاوة على ذلك كانت تعقد حول مكّة أسواق تجارية عالمية دعيت بـ«عكاظ وذي المجنّه وذي الحجاز»، الأمر الذي دفع بجموع من القبائل العربية إلى زيارة مكّة خلال مدّة انعقاد الأسواق أي منذ أول شوال حتى أول أيام الحج. وفي هذه الأسواق كانت تحصل عمليات البيع والشراء والدعاية والتبشير وحل الخلافات وإقامة التحالفات وإلقاء القصائد والتمتّع بالطعام والشراب. وهذا ما مكّن قريشاً من السيطرة اقتصادياً على شمال شبه الجزيرة العربية ومن توحيد لهجات الشمال واعتماد اللهجة التي ستقوى بنزول القرآن الكريم بها.

أ - القتال بين قريش وخزاعة:

نقل الطبري رواية عن القتال بين قريش وخزاعة والأهمية التي بلغها قصي بعد ذلك، فكتب[1]:

«وانحازت عند ذلك خُزاعة وبنو بكر عن قصيّ بن كلاب، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفة، وأنه سيحول بينهم وبين الكعبة وأمر مكّة. فلما انحازوا عنه باداهم وأجمع لحربهم. وثبت معه أخوه رِزاح بن ربيعة بمن معه من قومه من قُضاعة. وخرجت لهم خزاعة وبنو بكر وتهيؤوا لحربهم. والتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ حتى كثرت القتلى من الفريقين جميعاً، وفشت فيهم الجراحة. ثمّ إنهم تداعوا إلى الصلح، إلى أن يُحكّموا بينهم رجلاً من العرب فيما اختلفوا فيه، ليقضي بينهم. فحكّموا يعمر بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فقضى بينهم بأنّ قُصيّاً أولى بالكعبة وأمر مكّة من خُزاعة، وأن كلّ دم أصابه قصيّ من خُزاعة وبني بكر موضوع يشدخه تحت قدميه، وأنّ ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبني كنانة وقضاعة ففيه الدّية مؤدّاة، وأن يُخلّى بين قصيّ بن كلاب وبين الكعبة ومكّة. فسمّي يعمر بن عوف يومئذ الشّدّاخ؛ لما شدخ من الدّماء ووضع منها. فولّي قصيّ البيت وأمر مكّة وجمع قومه من

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

منازلهم إلى مكّة، وتملّك على قومه وأهل مكّة فملّكوه، فكان قصّى أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسّقاية والرّفادة والنّدوة واللواء، فحاز شرف مكّة كلّه، وقطع مكّة أرباعاً بين قومه، فأنزل كلّ قوم من قريش منازلهم من مكّة التي أصبحوا عليها.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ويزعم الناس أن قريشاً هابت قَطع شجر الحرَم في منازلهم، فقطعها قصيّ بيده، وأعانوه، فسمّته العرب مُجمّعاً لما جمّع من أمرها. وتيمّنت بأمره، فما تُنكح امرأة ولا رجل من قريش إلاّ في دار قصيّ بن كلاب، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلاّ في داره، ولا يعقدون لواءً لحرب قوم من غيرهم إلاّ في داره، يعقدها لهم بعض ولده، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرّع من قريش إلاّ في داره؛ فشقّ عليها فيها درعها ثمّ تدرّعه، ثمّ يُنطلق بها إلى أهلها. فكان أمره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدّين المتّبع، لا يعمل بغيره تيمّناً بأمره ومعرفة بفضله وشرفه. واتخذ قصيّ لنفسه دار النّدوة، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها».

سادساً – قيام الأحلاف في مكّة

كان عبد مناف أبرز أبناء قصي وأكثرهم ثروة. ولمّا كانت لقصي جميع وظائف قريش من الحجابة إلى السقاية والرفادة[١] والندوة[٢] واللواء[٣]، فإنه أوصى بها لولده عبد الدار ليعوّض له بذلك ما نقصه من شرف وغنى عبد مناف.

إنّما، وبعد وفاة قصي بمدّة، نازع آل عبد مناف آل عبد الدار السيادة على مكّة، وكانت قريش قد توزّعت إلى اثني عشر بطناً وهي[٤]:

(١) الرفادة: ما كانت قريش تخرجه في الجاهلية من أموالها لتشتري به طعاماً وشراباً للحجاج الفقراء في موسم الحج.

(٢) الندوة: اتخذت قريش «دار الندوة» إزاء الكعبة في مشاوراتها، وجعلت بابها إلى المسجد.

(٣) اللواء: لواء الحرب – والحجابة: حجابة البيت.

(٤) جرجي زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٢٩.

- بطون بني الحارث بن فهر ومحارب بن فهر وعامر بن لؤي وعدي بن كعب وسهم بن عمرو وجمح بن عمرو وتيم بن مرة ومخزوم بن يقظة وزهرة بن كلاب وأسد بن عبد العزى وعبد الدار وعبد مناف.

بعد أن نازع آل عبد مناف آل عبد الدار السيادة على مكّة انشقت قريش إلى قسمين[١]:

- قسم مع آل عبد مناف، ومنهم عبد شمس ونوفل وعبد مناف. وقد رأى هؤلاء أنهم أحق بوظائف مكّة من آل عبد الدار لشرفهم عليهم.
- قسم مع بني عبد الدار يرى أنه لا يجوز أن يؤخذ منهم ما كان قصي جعله لهم.

وكان قائد جبهة بني عبد مناف عبد شمس لأنه كان أكبرهم سناً، وقائد جبهة بني عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار. وانضمّ إلى آل عبد مناف بنو أسد وزهرة وتيم والحارث، وإلى آل عبد الدار بنو مخزوم وسهم وجمح وعدي. وبقي آل عامر بن لؤي ومحارب بن فهر على الحياد[٢].

دعي حلف آل عبد مناف حلف المطيبين وحلف آل عبد الدار باسم حلف الأحلاف. وكادت الحرب أن تقع بين الحلفين لولا تدخّل البعض وتسوية الخلاف بتقاسم زعماء الحلفين وظائف السيادة على مكّة فينال آل عبد مناف السقاية والرفادة.

إلاّ أن هذه التسوية لم تنهِ الخلاف إذ ازدادت ثروة آل عبد شمس وازداد طغيانهم وتفرّدهم بالأمور، الأمر الذي سبّب انشقاقاً في حلف المطيبين الذي طرد منه آل عبد شمس والأغنياء من قريش وقام حلف جديد دعي حلف الفضول. وقد شهد النبيّ ﷺ احتفال توقيعه، وكان لمناقشاته وقراراته أثر كبير في نفسه إذ قال عنه: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحبّ أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لاجبت»[٣].

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(٢) جرجي زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٢٩.

(٣) بيضون وزكّار، مرجع سابق، ص ٣١.

كتب ابن الأثير عن قيام الأحلاف ما يأتي[1]:

«وعقد كلّ طائفة بينهم حلفاً مؤكّداً على أن لا يتخاذلوا ولا يُسلّم بعضهم بعضاً ما بلّ بحرٌ صُوفَة. فأخرجت بنو عبد مناف بن قصي جَفنة مملوءة طِيباً، قيل: إنّ بعض نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم؛ فوضعوها في المسجد وغمسوا أيديهم فيها وتعاهدوا، وتعاقدوا، ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسُموا بذلك المطيبين.

وتعاقد بنو عبد الدار ومن معهم من القبائل عند الكعبة على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، فسُمّوا الأحلاف. ثمّ تصافوا للقتال وأجمعوا على الحرب. فبينما هم على ذلك إذ تداعوا للصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار فاصطلحوا، ورضي كلّ واحد من الفريقين بذلك. وتحاجزوا عن الحرب، وثبت كلّ قوم مع من تحالفوا حتى جاء الإسلام وهم على ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «مَا كان مِن حِلفٍ في الجاهلية فإنّ الإسلام لَم يزده إلاّ شدّة. ولا حِلف في الإسلام».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٥٠ – ٣٥١.



الفصل السابع
قبائل عدنان

تقسم العدنانية إلى فرعين أساسيين: عك ومعد. نزلت عك في زبيد جنوبي تهامة، لكن أخبارها قليلة جداً رغم أنها بقيت حتى الإسلام. لذلك يمكننا اعتبار معد خليفة عدنان، ومنها نزلت القبائل العدنانية جميعاً.

وكانت معد قبيلة كبيرة منذ القرن السادس قبل الميلاد حين تفرّع عنها فرعان هما نِزار وقُنُص. ومن نزار تفرع قضاعة ومضر وربيعة وإياد وأنمار الذين سكنوا تهامة والحجاز ونجد.

قضاعة قطنت جده وصولاً حتى حدودها مع تهامة. ومضر تركّزت في حيز الحرم، وربيعة في مهبط الجبل من غمر ذي كندة (على مسيرة يومين من مكّة). إياد أقامت بين مصر ونجران، كذلك أنمار. أما قُنص فقد نزلت أرض مكّة.

كتب جرجي زيدان(١):

«وما زالت هذه القبائل في منازلها هذه بوفاق، كأنهم قبيلة واحدة في اجتماع كلمتهم وائتلاف أهوائهم، تضمهم المجامع وتجمعهم المواسم، حتى وقعت الفتنة بينهم فتفرقت جماعاتهم وتباينت مساكنهم».

أما الطبري فإنه يورد رواية طويلة عن عدنان وولده معد وغزو نبوخذنصر البابلي لبلاده. وينقل الطبري عن ابن هشام أن غزوة نبوخذنصر(٢) إلى بلاد عدنان جرت في تاريخ غزوته إلى فلسطين التي خرّب خلالها الهيكل وسبى العبرانيين إلى

---

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٦.

(٢) ويسميه الطبري، كالمؤرّخين العرب، بختنصر.

بابل. كما نقل أنّ معد كان عمره يومذاك اثنتي عشرة سنة. ولمّا كانت غزوة نبوخذنصر هذه قد حصلت السنة ٥٨٦ق.م. فيمكننا الترجيح أن ولادة معد كانت السنة ٥٩٩ق.م[١].

أولاً – أقدم أخبار عدنان ومعد

عدنان هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم، وقد اختلف المؤرّخون حول عدد الأجيال بينهما، فأورد المؤرّخون أرقاماً تتراوح بين سبعة وأربعين جيلاً. ذكر ابن كثير أنّ «مدة ما بين عدنان إلى زمن اسماعيل أكثر من أن يكون بينهما أربعة آباء أو عشرة أو عشرون، وذلك أنّ معد بن عدنان كان عمره زمن بختنصر اثنتي عشرة سنة. وقد ذكر أبو جعفر الطبري وغيره أنّ الله تعالى أوصى في ذلك الزمان إلى إرميا بن حلفيا أنْ اذهب إلى بختنصر فاعلمه أني قد سلطته على العرب. وأمر الله إرميا أن يحمل معه معد بن عدنان على البراق كي لا تصيبه بالنقمة فيهم، فإني مستخرج من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل»[٢].

وحمل إرميا معداً على البراق إلى أرض الشام، فنشأ هناك مع من بقي بعد خراب بيت المقدس، وتزوّج امرأة اسمها معانة بنت جوشن من بني دب بن جرهم، قبل أن يعود إلى بلاد عدنان. وبعد أن هدأت الفتن عاد إلى الحجاز.

أثبت الطبري رواية مماثلة عن غزوة نبوخذنصر التي حدثت في زمان معد بن عدنان فكتب[٣]:

«إن الله عزّ وجلّ أوحى إلى برخيا بن أحنيا بن زربابل بن شلتيل من ولد يهودا – قال هشام: قال الشرقيّ: وشلتيل أوّل من اتخذ الطفشيل – أن ائتِ بختنصر وامره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب، ويطأ بلادهم بالجنود، فيقتُل مقاتلتهم

---

(١) ريحانا، شعوب الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢١٢.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٢٦.

ويستبيح أموالهم. وأعلمه كفرهم بي، واتخاذهم الآلهة دوني، وتكذيبهم أنبيائي ورسلي.

قال: فأقبل برخيا بن نجران حتى قدم على بختنصّر ببابل - وهو «نبوخذ نصر» فعرّبته العرب - وأخبره بما أوحى الله إليه وقصّ عليه ما أمره به؛ وذلك في زمان مَعَدّ بن عدنان. قال: فوثب بختنصّر على مَن كان في بلاده من تجار العرب، وكانوا يقدمون عليهم بالتجارات والبياعات، ويمتارون من عندهم الحَبّ والتمر والثياب وغيرها.

فجمع من ظفر به منهم، فبنى لهم حَيراً على النّجف وحصّنه، ثمّ ضمّهم فيه ووكّل بهم حرساً وحفظة، ثمّ نادى في الناس بالغزو، فتأهّبوا لذلك وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب، فخرجت إليه طوائف منهم مسالمين مستأمنين، فاستشار بختنصّر فيهم برخيا، فقال: إن خروجهم إليك من بلادهم قبل نهوضك إليهم رجوع منهم عمّا كانوا عليه، فاقبل منهم، فأحسن إليهم».

وذكر بعض الرواة إنّ معد بن عدنان لما ولد، ابتدأ العبرانيون بقتل أنبيائهم، فكان آخر من قتل يحيى بن زكريا[1]. ورداً على ذلك أذنَ الله في فناء أهل ذلك القرن الذين كان معدّ بن عدنان من أنبيائهم، فأرسل الله نبوخذ نصر عليهم فاجتاح بلادهم وأخرب المسجد الأقصى والمدائن وسبى الذين بقوا من العبرانيين إلى أرض بابل[2].

وأوصى الله تعالى إلى إرميا وبرخيا باصطحاب معد بن عدنان وإخراجه من الأرض التي سيسلط عليها نبوخذ نصر، فسبقا نبوخذنصر وأخذا معد، وكان له يومئذ اثنتا عشرة سنة.

غزوة نبوخذنصر لبلاد العرب:

قصد نبوخذنصر بلاد العرب التي اجتمعت قبائلهم لمواجهته، فتواجه الجيشان وخندق كلّ منهما تمهيداً للقتال. ونصب نبوخذ نصر كميناً خرج على العرب بعد بدء القتال وهاجمهم ففاجأهم وأخذتهم السيوف

(١) أي يوحنا المعمدان.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ١، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

من الأمام والوراء. وجاءت في القرآن الكريم آيات عدّة عن هذا القتال وعن نوم العرب على ذنوبهم بعد أن وقع العديدون منهم بين قتيل وجريح نذكر بعضها:(١)

﴿«ما آمنت قَبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون»﴾.

﴿«وما أرسلنا قبلك إلاّ رِجالاً نُوحي إليهم فسلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون»﴾.

﴿«ثمّ صَدَقناهم الوعد فأنجيناهُم ومن نشاءُ وأهلكنا المسرفين»﴾.

﴿«وكم قصمنا من قرية كانت ظالمةً وأنشَأنَا بَعدَهَا قَوماً آخرين»﴾.

﴿«فلمَّا أحَسُّوا بأسَنَا إذا هُم منها يركضون»﴾.

﴿«قالُوا يا وَيلَنَا إنَّا كُنَّا ظالمين»﴾.

﴿«فما زالت تلكَ دعوَتُهم حتَّى جعلناهُم حَصيداً خامِدين»﴾.

وفي سنة وفاة نبوخذ نصر، أي السنة ٥٦٢ ق.م.، اتجه معد بن عدنان إلى مكّة.

يروي ابن الأثير رواية مشابهة، لكنه ينقل خبراً عن أن معد بن عدنان كان قد انتقل إلى حرّان عندما حصلت الغزوة، وأن عمره كان فعلاً ١٢ سنة. كتب ابن الأثير(٢):

«قيل: أوحى الله إلى برخيا بن حنانيا يأمره أن يقول لبختنصر: ليغزو العرب فيقتل مقاتلتهم ويسبي ذراريهم ويستبيح أموالهم عقوبة لهم على كفرهم.

قال برخيا لبختنصر، ما أمر به، فابتدأ بمن في بلاده من تجار العرب فأخذهم وبنى لهم حران بالنجف، وحبسهم فيه، ووكل بهم وانتشر الخبر في العرب، فخرجت إليه طوائف منهم مستأمنين فقبلهم وعفا عنهم فأنزلهم السواد فابتنوا الأنبار. وخلى عن أهل الحيرة فاتخذوها منزلاً حياة بختنصر، فلما مات انضمّوا إلى أهل الأنبار وهذا أول سكنى العرب السواد بالحيرة والأنبار. وسار إلى العرب بنجد والحجاز، فأوحى الله إلى برخيا وأرميا يأمرهما أن يسيرا إلى معدّ بن عدنان، فيأخذاه ويحملاه إلى حرّان وأعلمهما أنه يخرج من نسله محمّد ﷺ الذي يختم به الأنبياء.

(١) سورة الانبياء؛ الايات: ٦ - ٧ - ٩ - ١١ - ١٢ - ١٤ - ١٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

فسارا تُطوى لهما المنازل والأرض حتى سبقا بختنصر إلى معد فحملاه إلى حران في ساعتهما، ولمعد حينئذ اثنتا عشرة سنة. وسار بختنصر فلقي جموع العرب فقاتلهم فهزمهم، وأكثر القتل فيهم. وسار إلى الحجاز، فجمع عدنان العرب، والتقى هو وبختنصر بذات عرق، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عدنان وتبعه بختنصر إلى حصون هناك، واجتمع عليه العرب وخندق كلّ واحد من الفريقين على نفسه وأصحابه. فكمن بختنصر كميناً وهو أول كمين عمل وأخذتهم السيوف. فنادوا بالويل، ونهى عدنان عن بختنصر وبختنصر عن عدنان، فافترقا. فلمّا رجع بختنصر خرج معد بن عدنان مع الأنبياء حتّى أتى مكّة، فأقام أعلامهما وحجّ معه الأنبياء. وخرج معد حتى أتى ريشوب وسأل عمن بقي من ولد الحارث بن مضاض الجرهمي، فقيل له: بقي جوشم بن جلهمة فتزوّج معد ابنته معانة فولدت له نزار بن معد».

ثانياً – أنساب قبائل عرب الحجاز

لابن كثير أيضاً مقالة طويلة عن انتساب قبائل الحجاز إلى عدنان. ويروى أنه كان لمعد أربعة أولاد هم نزار وقضاعة وقُنُص وإياد، وأن بكره هو قضاعة، وأن النعمان بن المنذر هو من أعقاب قُنص، ونزار ولد له ربيعة ومضر وأنمار.

كتب ابن كثير عن إنسان قبائل الحجاز ما يأتي[1]:

«وذلك لأن عدنان ولد له ولدان معدّ وعك. قال السهيلي: «ولعدنان أيضاً ابن اسمه: الحارث، وآخر يقال: له المذهب». وقال: «وقد ذكر أيضاً في بنيه الضحّاك». وقيل إن الضحّاك ابن لمعدّ لا ابن عدنان. قال: «وقيل إن عدن الذي تعرف به مدينة عدن وكذلك أبين كانا ابنين لعدنان»، حكاه الطبري.

وأما معد فولد له أربعة: نزار وقضاعة وقُنُص وإياد. وكان قُضاعة بكره وبه [كان] يكنّى.

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢١٧ – ٢١٨.

وأما قُنُص فيقال: «إنهم هلكوا، ولم يبق لهم بقيّة». إلاّ أن النّعمان بن المنذر الذي كان نائباً لكِسْرى على الحيرة كان من سلالته، على قول طائفة من السلف. وقيل: «بل كان من حِميَر»، كما تقدّم والله أعلم.

وأما نزار فولد له ربيعة ومُضَر وأنمار، قال ابن هشام: «وإياد بن نزار».

قال: «وإياد ومُضَر شقيقان أمهما سَودَة بنت عكّ بن عدنان. وأم ربيعة وأنمار شقيقة بنت عك بن عدنان». ويقال: جمعة بنت عك بن عدنان: قال ابن إسحاق: «فأما أنمار فهو والد خثعم وبَجيلة قبيلة جرير بن عبدالله البجلي». قال: وقد تيامنت فلحقت باليمن».

قال ابن هشام: «وأهل اليمن يقولون أنمار بن أراش بن لحيان بن عمرو بن الغوث بن نَبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ».

قال ابن إسحاق: «فولد مضر بن نزار رجلين: إلياس وغيلان، وولد لإلياس مُدركة وطابخة وقَمَعة، وأمّهم خِندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة». قال ابن إسحاق: «وكان إسم مُدركة عامراً واسم طابخة عمراً». ولكن اصطادا صيداً فبينا هما يطبخانه إذ نفرت الإبل، فذهب عامر في طلبها حتى أدركها، وجلس الآخر يطبخ. فلما راحا على أبيهما، ذكرا له ذلك فقال لعامر: «أنت مُدركة»، وقال لعمرو: «أنت طابخة». قال: «وأما قمعة فيزعم نسّاب مُضَر أن خزاعة من ولد عمرو بن لحيّ بن قمعة بن إلياس». قلت: «والأظهر أنه منهم لا والدهم، وأنهم من حثمير كما تقدّم والله أعلم».

قال ابن إسحاق: «فولد مدركة رجلين خُزيمة وهُذيل وأمهما امرأة من قضاعة، وولد خُزيمة كِنانة وأسداً وأَسدَة والهُون». وزاد أبو جعفر الطبري في أبناء كنانة على هؤلاء الأربعة عامراً والحارث والنضير وغنماً وسعداً وعوفاً وجرولاً والجدال وغزوان. قال: «وولد كنانة النضر ومالكاً وعبد مناة وملكان».

قال ابن هشام: «النضر هو قريش، فمن كان من ولده فهر قرشيّ».

ثالثاً – قبيلة قضاعة

نزحت قضاعة من الحجاز بسبب حرب لها مع ربيعة انتصرت خلالها مضر وأياد

وأنمار لربيعة فيما انضمّت عك إلى قضاعة. خسرت قضاعة الحرب فانتقلت إلى نجد والبحرين ومشارف الشام، كما قامت لها دول في العراق والشام.

بطون قضاعة هي[١]:

- تيم اللات في البحرين.
- تزيد بن حلوان في العراق.
- سليح في الشام وفلسطين.
- أسلم بوادي القرى ثمّ في نجد ومنها عذرة ونهد وحوتكة وجهنية.
- تنوخ في البحرين ثمّ في الحيرة حيث أنشأوا دولة المناذرة.
- ربان بن حلوان في الشام، ومنها كلب وجرم والعلاف.
- بلّى وبهرا في اليمن قبل أن يتفرّقوا بين تيماء والمدينة.

أمّا أسباب نزوح أفخاذ قضاعة، علاوة على حربها مع ربيعة، فهي أسباب اقتصادية أيضاً، وذلك بسبب ضيق البادية وقلّة الماء والكلأ فيها، خاصة مع تكاثر القوم وتزايد أعدادهم. واعتبرت قضاعة أقدم النازحين من بني عدنان، فمنهم من نزل بلاداً عامرة فأنشأ دولاً فيها، ومنها من نزل البادية وضاعت أخباره.

أشهر بطون قضاعة هما جهينة وبلّى اللذان ذكر ابن خلدون أنهما «اجتاز منهم أمم إلى العدوة الغربية من البحر الأحمر، وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة، وكاثروا هناك سائر الأمم، وغلبوا على بلاد النوبة وفرّقوا كلمتهم، وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فارهقوهم إلى هذا العهد»[٢].

أ - دولة تنوخ ومعارك جزيمة الأبرش:

ومن كبريات فروع قضاعة تنوخ، وكان لها دول في مشارف الشام والعراق، أقدمها لجزيمة الأبرش[٣] الذي مهّد لدولة المناذرة. أول ملوك تنوخ مالك بن فهم، وخلفه ابنه جذيمة الذي كانت له معركة مع الزباء وكان ملكاً عظيماً.

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٧.

(٢) ابن خلدون، جزء ٢، ص ٢٤٧.

(٣) المسعودي، مرجع سابق، جزء ١، ص ٢٠٠.

وجزيمة أول من شكّل جيشاً وغزا به وشنّ غارات على قبائل العرب واستولى على السواد والقرى المتاخمة لبادية العراق وجبى الأموال من القبائل وملك ستين سنة.

خلف جزيمة ابن أخته عمرو بن عدي الذي كان أول من اتخذ الحيرة عاصمة لملكه، وهو جدّ دولة آل نصر أو لخم، ومنهم المناذرة[١].

وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد سيطرت على الشام فاستعملت تنوخ قبل الاعتماد على الغساسنة. وذكرت المصادر العربية ثلاثة من ملوك دولة تنوخ هم: النعمان بن عمرو وعمرو بن النعمان والحواري بن عمرو[٢]. وذلك قبل أن يسيطر عليها فرع آخر من قضاعة هو فرع سليح. وهكذا تفرّقت تنوخ وأقام بعضها في قنسرين[٣].

ب - معارك سليح:

قصدت سليح جنوب بلاد الشام مع تنوخ وملكت بعدها تحت اسم «ضجعم» في أرض البلقاء[٤]. وأخذت الضريبة من قبائل العرب فيها، ديناراً عن كلّ رجل لصالح البيزنطيين حتى غلبها الغساسنة وأقاموا مكانها.

يروي جرجي زيدان تفاصيل قتال بني غسان وضجعم كما يلي[٥]:

«ذكر أصحاب الأخبار أن بني غسّان لما أتوا مشارف الشام كانت في حوزة الضجاعم، وعليهم ملك منهم اسمه زياد اللثق بن هبولة، فطالب الغسانيين بالأتاوة فاستنكفت وأبت أداءها. فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على غسّان وأقرت بالصغار وأدّت الأتاوة، حتى صارت حكومة الضجاعم إلى سبطة بن المنذر بن داود وقيل سبيط بن ثعلبة بن عمرو. وفي أيامه تغلب

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٢٢.
(٢) اليعقوبي، جزء ١، ص ٢٣٤.
(٣) ياقوت الحموي، جزء ٤، ص ١٨٥.
(٤) الهمداني، ص ١٧٠.
(٥) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٢٣.

الغسّانيون وأخرجوا الضجاعمة من الشام في حديث ذهب مثلاً. وذلك أن سبيطاً لما طالب الغسّانيين بالأتاوة كان أميرهم ثعلبة بن عمرو، وشدّد في طلبها، وكان ثعلبة حليماً فقال: «هل لك فيمن يزيح علّتك في الأتاوة؟»، قال: «نعم»، قال: «عليك بأخي جذع بن عمرو». وكان جذع فاتكاً، فأتاه سبيط فخاطبه بذلك فخرج عليه ومعه سيف مذهب وقال: «هل فيه عوض من حقك؟» أي من أن أجمع لك الأتاوة، قال: «نعم»، قال: «خذه»، فمد سبيط يده وتناول غمد السيف، فاستلّ جذع نصله وضربه حتى قُتل، فقيل: «خذ من جذع ما أعطاك»، وذهبت مثلاً، وصارت مشارف الشام إلى غسان من ذلك الحين».

ج - حروب قبائل ونزوح عن تهامة:

وعرفت قضاعة دولاً صغرى في تبوك ودومة الجندل في الحجاز تعود إلى كلب. كما أقامت بطوناً أخرى لها في البحرين واليمن ووادي القرى، قبل الانتقال إلى شمالي شبه الجزيرة للتوسّع والفتوحات في سبيل الرزق. وهكذا هاجرت أنمار عن تهامة لخصام بينها وبين مضر، فاتجهت إلى جبال السروات وملكتها وتفرّقت بطون كثيرة بسبب الحروب والوقائع التي جرت بين بطونها.

أمّا أياد فنزوحها من تهامة كان بسبب حرب وقعت لها مع ربيعة ومضر وخسرتها أياد فانتقلت إلى بلاد ما بين النهرين حيث نزلت في السواد وراحت تغزو أهل العراق في البادية، كما العجم. وفي عهد كسرى أنوشروان نفّذت أياد غزوة على بلاد فارس سَبَت خلالها نساءً منهم، فشنّ كِسْرى حملة على القبيلة المعنية وطردها من بلاد ما بين النهرين فاتّجه قسم منها إلى تكريت، وقسم إلى الموصل. ثمّ قامت حروب بينهم وبين قبائل بكر بن وائل فتفرّقت أياد في بلاد الروم وبلاد الشام[1].

نقل جرجي زيدان باقي أخبار وقائع قبائل وبطون قضاعة فكتب[2]:

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٧١ - ٢٤٩.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٢٦.

«لم يبقَ من بني معد في تهامة من القبائل الكبرى إلا ربيعة ومضر، وهما أكبرها. فنزحت أولاً ربيعة، بسبب فتن قامت بين قبائلها وهذه أهم تلك القبائل بحسب تفرعها. وأشهر القبائل التي نزحت منها عبد القيس، نزلت البحرين، وهجر - وفيها أياداً - فأجلت أياداً. وغلبت عبد القيس على البحرين واقتسموها بين قبائلهم وهي كثيرة.

ونزلت قبائل أخرى من ربيعة في نجد والحجاز وأطراف تهامة وما والاها، ونزلت قبائل منها في بلاد اليمن فخالفت أهله ومنهم أكلب. وقامت سائر قبائل ربيعة في ظواهر نجد والحجاز، وهم بكر وتغلب وعنزة وضبيعة، حتى وقعت الحرب بينهم في قتل جسّاس كما سيجيء.

وما زالت الوقائع والحروب تنقلهم من أرض إلى أرض، وتغلب في كلّ ذلك ظاهرة على بكر، حتى التقوا يوم قضة، وهي عقبة في عارض اليمامة - فكانت الدائرة لبكر على تغلب، فتفرقوا وتبددت تغلب في البلاد. وانتشرت بكر بن وائل وعنزة وضبيعة باليمامة، فيما بينها وبين البحرين إلى أطراف سواد العراق ومناظرها وناحية الابلة إلى هيت. وانحازت النمر وغفيلة إلى أطراف الجزيرة، وعانات وما دونها إلى بلاد بكر بن وائل وما خلفها من بلاد قضاعة من مشارف أرض».

د - لواء الحرب:

كان لواء الحرب يعقد للقبيلة الأقوى والأعظم في تاريخ العرب، وكانت قبيلة ربيعة هي التي بدأت بإخراج قبائل عدنان من اليمن. بذلك كان اللواء لها في الزعامة بدءاً بعنزة قبل أن يتحوّل إلى عبد القيس ثمّ إلى النمر فبكر بن وائل. ثمّ انتقل إلى تغلب بقيادة وائل بن ربيعة، وهو كليب وائل الذي وقعت حرب البسوس بسببه[١].

ولم يطل عمر دولة كليب وائل إذ قتله جسّاس بن مرة ونشبت حرب البسوس التي يقال أنها بقيت أربعين سنة. وحرب البسوس ساهمت في تفرّق تحالف قبائل الشمال ومكّنت دولة كِنْدة من السيطرة على شمال شبه الجزيرة رغم أنها دولة من أصول جنوبية.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٢٣٦.

هـ - وقائع مُضَر:

آخر مجموعة القبائل الباقية في تهامة هي مُضَر التي تنافست قبائلها فانتصرت خندق عل قيس التي خرجت من تهامة إلى نجد واتجهت بعض قبائلها إلى أطراف الغور في تهامة.

ثمّ تفرّعت خندق إلى طابخة ومدركة فاتجهت طابخة إلى نجد والحجاز ونزحت تميم وضبّة من الحجاز إلى أطراف هجر بين اليمامة وهجر.

وأقامت قبائل مدركة في تهامة وولد النضر بن كنانة حول مكّة. وأقام أبناء فهر حول مكّة حتى أنزلهم قصي بن كلاب الحرم، وهم قريش.

وفي الحجاز أقامت أسد وعبس وغطفان وفزارة ومزينة وسليم وفهم وعدوان وهذيل وخثعم وسلول وهلال وكلاب بن ربيعة وطيء وجهينة وغيرها.

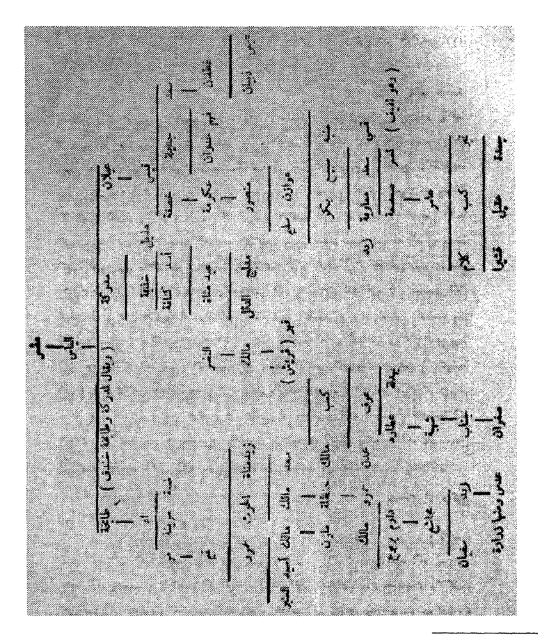
- خلاصة:

وهكذا تفرّقت قبائل عدنان في شمال شبه الجزيرة العربية، وذلك تدريجاً منذ القرن الأول قبل الميلاد وصولاً إلى الإسلام. وكانوا قبائل رُحّل مارسوا الغزو والسلب وقامت بينهم وقائع عرفت بـ«أيام العرب» سنأتي إلى تفصيلها في الفصول اللاحقة.

لكن بعض الدول القحطانية قامت في الشمال وسنعالج موضوعها فيما يلي.

ملحق رقم ٣

بيانة قبائل عدنان



المستند: ابن كثير، مرجع سابق، ص ٢١٧ - ٢١٩.

زيدان، جزء ٢٩، ص ٢٨.

الفصل الثامن
دول الشمال القحطانية

ظهرت في المرحلة التي سبقت الإسلام دول في شمال بلاد العرب اعتبرها المؤرّخون من القحطانية. وهذه الدول، بعكس دول الجنوب من عدنان، كانت دولاً محاربة خاضت غمار حروب عديدة في الشمال وسيطرت على بقاع من بلاد العرب، إنْ لمصلحتها أو لمصلحة إحدى الإمبراطوريات الكبرى التي عرفها العالم يومذاك.

وقد صُنِّفت هذه الدول في الطبقة الثالثة، وأهمها دولة الغساسنة في ضواحي الشام، ودولة المناذرة في العراق ودولة كندة في نجد. وقيل إن أصول هذه الدول هي من عرب اليمن الذين هاجروا شمالاً فوصل قسم منهم إلى الشام وقسم آخر إلى العراق.

اعتنق الغساسنة والمناذرة النصرانية وشاركوا في الصراع الذي نشب بين كنائسها يومذاك، أي بين الأرثوذكسية المستقيمة الرأي وأصحاب الطبيعة الواحدة أو المشيئة الواحدة. هذا الاعتناق أثّر في بعض القبائل العربية الشمالية التي كانت تربطها بالدولتين روابط سياسية ودينية وثقافية وعسكرية وتجارية.

أولاً – دولة الغساسنة

قيل إنّ رئيس القوم في اليمن عمران بن عامر علم بقرب انفجار سد مأرب فباع أرزاقه ورحلت أرهاطه شمالاً، فاتجه جفنة بن عمرو بن عامر نحو الشام وأقام دولة الغساسنة.

ويرى بعض النسابين أن الغساسنة أقاموا مدّة في تهامة على ماء يقال لها غسان، فنسبوا إليها.

ثمّ انتقلوا إلى مشارف الشام فأقاموا دولتهم تحت رعاية البيزنطيين وأصبحوا من الحضر وأقاموا المدن والقصور والقلاع، خاصة في عاصمتهم بصرى في حوران التي كان فيها دير بحيراء.

كتب المسعودي عن أول ملوك غسان[1]:

«ملوك غسّان عَلى الشّام:

وغلبت غسان على من بالشام من العرب، فملّكها الروم على العرب، فكان أول من ملك من ملوك غسان بالشام الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن، وهو غسان بن الأزد بن الغوث.

ثمّ ملك بعده الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة، وأمه مارية ذات القرطين بنت أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو.

وذكر أنها مارية بنت ظالم بن وهب بن معاوية بن ثور، وهو كندة.

وهي التي ذكرتها الشعراء في أشعارها، وتنسب جماعة من ملوك غسان إليها.

وملك بعده النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو.

ثمّ ملك بعده المنذر أبو شمر بن الحارث بن جبلة بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو.

ثمّ ملك بعده عوف بن أبي شمر.

ثمّ ملك بعده الحارث بن أبي شمر، فكان ملكه حين بعث رسول الله ﷺ.

جَبَلة بن الأيهم:

ثمّ ملك بعده جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن، وهو غسان بن الأزد بن الغوث.

منازل غسّان:

وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان، وغيرهما من غوطة دمشق

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٦.

وأعمالها، زمنهم من نزل الأردن من أرض الشام.

وجبلة بن الأيهم هو الذي أسلم وارتدّ عن دينه خوف العار والقود من اللطمة».

أما جرجي زيدان فنقل عن كتاب «سني الملوك» لحمزة الأصفهاني أن عدد ملوك غسان كان ٣٢ ملكاً حكموا نحو ٦٠٠ سنة (انظر الملحق رقم ٤)، أي من اوائل القرن الأول للميلاد إلى ظهور الإسلام[١].

ولمّا سيطر البيزنطيون على بلاد الشام، راحت قبائل الشمال تُغير على أطراف دولتهم وتعترض القوافل. كما أن الروم خافوا سيطرة الدولة الساسانية على بلاد الشام فأرادوا تقريب العرب إليهم. وتزامنت هذه الرغبة مع زمن نزوح الغساسنة إلى الشمال، فقرّبهم الروم واستنصروهم في حروبهم ضدّ الفرس وضدّ القبائل العربية.

أ - الحروب بين الغساسنة والمناذرة:

أوّل أمراء غسان الذين حاربوا في سبيل الروم هو جبلة بن حارث الأول الذي نصرهم وأخمد لهم إحدى الثورات. كذلك إبنه الحارث بن جبلة، فقد استعان به الروم في واقعة السامرة السنة ٥٢٨م. فمنح السنة ٥٢٩م لقب «ملك». وقد أبلى الحارث في نصرة الروم والدفاع عن مملكتهم بلاءً حسناً، كما ردّ هجمات الفرس والمناذرة عن مملكة الروم وذلك السنة ٥٣١م.

وخلال هذه المرحلة تواجه ملكان، جوستنيانوس الكبير البيزنطي وكِسْرى أنو شروان ملك الفرس. ولمّا كان الروم منشغلين في حرب أوروبا وأفريقيا، هادن جوستنيانوس الفرس. لكنّ حرباً نشبت بين الغساسنة والمناذرة أدّت إلى قيام كسرى بهجوم عام على بلاد الشام[٢].

وكتب المسعودي يصف هجوم كسرى على بلاد الشام[٣]:

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٢، ص ٢١٩.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ١، ص ٢٧٤.

(٣) المسعودي، المرجع نفسه، ص ٢٧٤.

«وسار أنو شروان في بلاده، ودار مملكته فأحكم البنيان، وشيّد القلاع والحصون، ورتّب الرجال. وغدر بقيصر، فسار نحو الجزيرة، فافتتح ما هنالك من المدن، وانتهى إلى الفرات فعبر إلى الشام فافتتح بها المدن، وكان مما افتتح بلاد حلب وقنّسرين وحمص وفامية، وهي بين أنطاكية وحمص.

وسار إلى أنطاكية وحاصرها، وفيها ابن أخت لقيصر، فافتتحها.

وافتتح مدينة عظيمة كثيرة العمران عجيبة البنيان كانت في ساحل أنطاكية رسومها تهدف إلى هذه الغاية وأثرها قائم، تدعى سلوقية. وأقبل يفتتح المدائن بالشام وأرض الروم، ويغنم الغنائم والجواهر والأموال وبذل السيف. وبثّ عساكره وسراياه.

فهادنه قيصر، وحمل إليه الخراج والجزية، فقبل ذلك منه».

أما جرجي زيدان فيصف القتال بين الغساسنة والمناذرة كما يلي[1]:

«ثم تقاتل الغساسنة واللخميون، وطالت الحرب بينهما وانتهت بواقعة آلت إلى دخول قنسرين في حوزة الحارث، بعد أن قتل بعض أبنائه وقتل المنذر بن ماء السماء، وهي المعركة التي يُسميها العرب يوم ذات الخيار أو عين أباغ. ويقولون في سببها إن المنذر المذكور نزل عين أباغ وبعث إلى الحارث بالشام يقول: «إما أن تعطيني الفدية فأنصرف عنك بجنودي، وإما أن تأذن بحرب»، فأرسل إليه الحارث: «أنظرنا ننظر في أمرنا». فجمع عساكره وسار نحو المنذر وأرسل إليه يقول: «إنا شيخان فلا تهلك جنودنا، وإنما يخرج رجل من ولدي ورجل من ولدك، فمن قُتل خرج عوضه آخر، وإذا فني أولادنا خرجت أنا إليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك». فتعاهدا على ذلك، وغدر المنذر بالحارث فأنزل بعض رجاله بدلاً من أولاده، فقتل للحارث ولدان، ثم علم بالمكيدة فحمل على المنذر برجاله وهم ٤٠,٠٠٠ فقتلوا المنذر وهزموا رجاله.

وأعقب «يوم أباغ» «يوم حليمة»، وفيه حمل المنذر بن المنذر المقتول «تولى سنة ٥٨٢» للأخذ بثأر أبيه، فلاقاه الحارث

---

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٤٩ – ٥١.

الأعرج «غير إبن أبي شمر» في مكان اسمه مرج حليمة، ودارت الحرب بينهما أياماً لا ينتصف أحدهما من صاحبه. فجعل الحارث ابنته زوجة لمن يقتل المنذر، فقتله لبيد بن عمرو الغساني. وكانت واقعة هائلة اجتمع فيها عرب العراق كافة تحت راية المنذر، وعرب الشام كلّهم تحت راية الحارث. وفي إبن الأثير أن الحارث صاحب يوم حليمة هو نفس الحارث صاحب يوم أباغ، ولكن سياق التاريخ يقتضي أن يكون سواه. فلعله الحارث حفيد إبن أبي شمر، ولم يذكره حمزة بين ملوك غسان بل ذكر ابنه جبلة أو لعل المنذر ثأر لأبيه قبل أن يتولى الملك.

والحارث هذا هو الذي توسط لامرئ القيس الشاعر في الذهاب إلى قصر القسطنطينية، بعد أن أودع السموأل أدراعه في القصة المشهورة[١]. وقد قضى أربعين سنة في الحروب والغزوات، ونال من المنزلة والسطوة ما لم ينله سواه، وخلفه إبنه المنذر، والروم يسمونه المنذروس. وكان على الحيرة قابوس، أخو عمرو بن هند، فحاربه المنذر وغلبه. وكان المنذر قد حارب مع جند الروم في حياة أبيه وهو أمير. فلما خلف أباه سُمّي بطريقاً وأعان الروم - في مواقع كثيرة، وحاز فوق ما حازه أبوه من الاحتفاء. فشخص إلى القسطنطينية سنة ٥٨٠ مع ولديه فاحتفل به الروم - وقيصرهم يومئذ طيباريوس فألبسه التاج ولم يلبس أبوه قبله غير الإكليل. وسمّاه بعض مؤرخي الروم لذلك «المنذر ملك العرب»[٢].

ب - التقييم:

أ - في معركة عين أباغ، طبّق المنذر استراتيجية «الحرب خدعة» في قتاله ضد الحارث الغساني. لكن هذا الأخير، عندما علم بالمكيدة، صمّم على النصر وحثّ رجاله الذين حملوا على غريمه حملة صادقة فقتلوه وهزموا رجاله. فتصميم القائد على النجاح يعتبر نصف النصر.

(١) الأصفهاني، الأغاني، جزء ١٩، ص ٩٩.

(٢) سنتكلّم بالتفصيل عن «يوم عين أباغ» و«يوم حليمة» في القسم المخصّص لأيام العرب في هذا الجزء من الموسوعة.

ب – وفي معركة مرج حليمة لجأ الحارث إلى استنهاض الهمم وتحفيز مقاتليه بجعل ابنته زوجة لمن يقتل غريمه الملك المنذر، فقام أحد المقاتلين بقتله طمعاً بالزواج من إبنة الملك.

ونحن نرى أن الحوافز النفسية وارتفاع المعنويات والثقة تعمل على دفع المقاتلين إلى المزيد من الحماس والإقدام في سبيل الجهد الحربي العام، وذلك تطبيقاً لمبدأ الحرب الثالث، أي الحصيل الأقصى للوسائل.

ج – طبّق البيزنطيون والفرس مقولة «فرّق تسد» في صراعهم ضدّ القبائل العربية، فأقام كلّ منهم دولة تابعة له عملت على قمع التحرّكات العربية في العصر الجاهلي ومنع جموع العرب عن غزو أطراف الدولتين المذكورتين.

وساهمت الخلافات القبلية العربية في نجاح السياسة هذه، فتمكّنت دولتا الغساسنة والمناذرة من حماية حدود دَوْلَتَي الروم والفرس في وجه الجيوش العربية القبلية. كما عملتا على مدّ السيطرة الفارسية والبيزنطية على أرجاء واسعة من شمال شبه الجزيرة العربية.

إلاّ أنّ هذا الواقع تغيّر مع ظهور الإسلام فاستبدل العرب الاستراتيجية الدفاعية باستراتيجية هجومية جهادية فاعلة، فانتصروا على الدولتين المذكورتين.

هذا ما سوف نفصله في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة.

ملحق رقم ٤

لائحة ملوك غسان

	إسم الملك	مدة الحكم
١	جفنة بن عمرو مزيقياء	٤٥
٢	عمرو بن جفنة	٥
٣	ثعلبة بن عمرو	١٧
٤	الحارث الأول بن ثعلبة	٢٠
٥	جبلة بن الحارث الأول	١٠
٦	الحارث ٢ بن جبلة «إبن مارية»	١٠
٧	المنذر الأكبر بن الحارث الثاني	٣
٨	النعمان بن الحارث	١٥,٥
٩	المنذر الأصغر بن الحارث	١٣
١٠	جبلة بن الحارث	٣٤
١١	الأيهم بن الحارث	٣
١٢	عمرو بن الحارث	٢٦
١٣	جفنة بن المنذر الأكبر	٣٠
١٤	النعمان بن المنذر الأكبر	١
١٥	النعمان بن عمرو المنذر الأكبر	٢٧
١٦	جبلة بن النعمان	١٦
١٧	النعمان بن الأيهم	٢١
١٨	الحارث الثالث بن الأيهم	٢٢
١٩	النعمان بن الحارث الثالث	١٨
٢٠	المنذر بن النعمان	١٩

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٣٨ - ٣٩. وذلك وفق رواية حمزة الأصفهاني.

	إسم الملك	مدة الحكم
٢١	عمرو بن النعمان	٣٣
٢٢	حجر بن النعمان	١٢
٢٣	الحارث الرابع بن حجر	٢٦
٢٤	جبلة بن الحارث الرابع	١٧
٢٥	الحارث بن جبلة «بن أبي شمر»	٢١
٢٦	النعمان بن الحارث «أبو كرب»	٣٧
٢٧	الأيهم بن جبلة بن الحارث	٢٧،٥
٢٨	المنذر بن جبلة بن الحارث	١٣
٢٩	شراحيل بن جبلة بن الحارث	٢٥
٣٠	عمرو بن جبلة بن الحارث	١٠
٣١	جبلة بن الحارث	٤
٣٢	جبلة بن الأيهم	٣

ثانياً – دولة اللخميين

اللخميون، أو المَنَاذِرة، كانوا عمالاً للفرس على الحيرة وكانوا على النصرانية، وكان أول من حكم العراق من قضاعة هو جزيمة الأبرش وصار الحكم بعده إلى ابن أخته عمرو بن عدي. وهذا الأخير هو أول من اتخذ الحيرة منزلاً له.

كتب الطبري عن بداية اللخميين في الحيرة[١]:

«ولمّا استولى أردشير[٢] على الملك بالعراق، كره كثير من تنوخ ان يقيموا في مملكته وان يدينوا له، فخرج من كان منهم من قبائل قضاعة الذين كانوا أقبلوا مع مالك وعمرو ابني فهم، ومالك بن زهير وغيرهم، فلحقوا بالشام إلى من هنالك من قضاعة...

وكانت الحيرة والأنبار بُنِيَتا جميعاً في زمن بختنصّر، فخرجت الحيرة لتحوّل أهلها عنها عند هلاك بختنصر إلى الأنبار. وعمرت الانبار خمسماية سنة وخمسين سنة، إلى أن عمرت الحيرة في زمن عمرو بن عديّ باتخاذه إياها منزلاً، فعمرت الحيرة خمسماية سنة وبضعاً وثلاثين سنة إلى أن وُضعت الكوفة، ونزلها الإسلام؛ فكان جميع ملك عمرو بن عدي مائة سنة وثماني عشرة سنة».

أمّا جرجي زيدان فنقل عن الأصفهاني لائحة ملوك لخم ومدّة معاصرة كلّ ملك فارسي لهم، وبلغ عددهم ٢٢ ملكاً تولوا الملك ٣٦٤ سنة وجميعهم من نسل عمرو بن عدي، باستثناء ستة[٣]، نورد اللائحة بهم في الملحق المرفق بهذا الفصل.

أ - انتقام عمرو بن عدي من الزباء:

أورد المسعودي قصّة عن خطبة جذيمة الأبرش للزباء[٤] التي طلب منه أن يشخص إليها، فقام إليها فاستقبلته قبل أن تقتله. كتب المسعودي[٥]:

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء أول، ص ٣٩٢.

(٢) ملك فارس.

(٣) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٥٥.

(٤) الزباء ابنة عمرو بن ظرب، ملكة الشام والجزيرة، من العماليق.

(٥) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٢.

«ثمّ أجلسته على نطع ودعت له بطست من عسجد، فقطعت رواهشه[1] واستنزفته، حتى إذا ضعفت قواه ضُرب بيده فقطرت قطرة من دمه على دعامة من رخام، وقد قيل لها: إنّه إنْ وقع من دمه قطرة في غير طست طُلب دمه».

أما طريقة أخذ عمرو بن عدي بثأر خاله، فيوردها المسعودي كما يلي[2]:

«ركب عمرو في ألْفَي رجل على ألف بعير في الصناديق، حتى صار إليها...

ودخلت الإبل المدينة، حتى إذا بقي آخرها جمل عيل صبر البواب، فطعن بمنخسة كانت في يده خاصرة رجل فأنّ، فقال البواب «في الجوالق شر».

وثار الرجال في الجوالق ضرباً بأسيافهم، فخرجت الزباء هاربة إلى سربها، فتلقاها عمرو بن عدي فضربها».

وهكذا انتقم عمرو بن عدي لخاله جذيمة الأبرش.

ب - وقائع ملوك الحيرة:

أورد الإخباريون العرب أخباراً كثيرة عن ملوك الحيرة الذين قاموا بإنجازات كبيرة نذكر أبرزها[3]:

- النعمان بن امرىء القيس (٤٠٣ - ٤٣١م) قاتل الفرس ٦٥ سنة. غزا الشام مراراً وأكثر من المصائب بأهلها، وسبى وغَنِم، وجنّد الجند على نظام خاص به. وكان في جيشه كتيبتان، الأولى تتألّف من رجال الفرس اسمها «الشهباء»، والثانية من تنوخ اسمها «دوسر» كان يغزو بهما من لا يدين له من العرب.

- المنذر بن النعمان بن امرئ القيس (٤٣١ - ٤٧٣م) الذي قام بتربية بهرام ابن ملك الفرس يزدجرد. فلمّا مات يزدجرد تعاهد عظماء الفرس على أن لا يملّكوا ابنه بسبب نشأته عند العرب وتخلّقه بأخلاقهم. استنصر بهرام المنذر فنصره ورد الملك إليه بالقوة فأطاعه الجميع.

---

(١) الرواهش: عروق ظاهر الكف.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٣.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١٠٦ - ١١٣.

- زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٦١ - ٧٧.

كما أعان المنذر بهرام في حروب كثيرة خاصة مع الروم عندما حاصروا نصيبين فاستنصر بهرام المنذر فنصره واكتسح سوريا وبالغ رجاله في النهب والقتل.

- الأسود بن المنذر بن النعمان (٤٧٣ - ٤٩٣م) الذي اشتهر بمعركة حارب فيها الغساسنة وأسر عدداً من ملوكهم.

- النعمان بن الأسود (٥٠٠ - ٥٠٤م.) الذي أمضى مدّة حكمه وهو يحارب الروم في سوريا والجزيرة حيث أبلى بلاءً حسناً.

- عمرو بن هند (٥٣٣ - ٥٧٨م.) وأمه هند ابنة الشاعر المشهور امرئ القيس، وهو الذي غزا بني تميم في دارهم وقتل من بني دارم كثيرين يوم أوارة الثاني. وهو الذي طلب من والدة عمرو بن كلثوم ليلى بنت المهلهل ان تخدم والدته هند فأبت.

روى جرجي زيدان القصّة كما يلي[١]:

«قال النعمان يوماً لجلسائه: «هل تعرفون أحداً من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي؟» قالوا: «ما نعرفه إلا أن يكون عمرو ابن كلثوم التغلبي، فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم، وابنها عمرو». فسكت مضرط الحجارة على ما في نفسه، وبعث إلى ابن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه أمي. فقدم ابن كلثوم في فرسان من تغلب ومعه أمه ليلى، فنزل على شاطئ الفرات. وبلغ عمرو بن هند قدومه، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات، وصنع طعاماً دعا إليه وجوه أهل دولته، فقرّب لهم الطعام على باب السرادق. وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص أصحابه في السرادق، ولأمه هند قبة في جانب السرادق، وليلى أم عمرو بن كلثوم معها في القبة. وكان مضرط الحجارة قد قال لأمه: «إذا فرغ الناس من الطعام ولم تبق إلا الطرف، نحّي خدمك عنك، فإذا دنت الطرف استخدمي ليلى ومُريها، فلتناولك الشيء بعد الشيء» ففعلت. فلما استُدعي الطرف، قالت هند لليلى: «ناوليني ذلك الطبق»، قالت: «لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها»، فألحّت عليها، فقالت ليلى: «واذلاه! يا آل تغلب!»، فسمعها ولدها إبن

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٧٢.

كلثوم فثار الدم في وجهه والقوم يشربون. فعرف عمرو بن هند الشر في وجهه. ونهض إبن كلـــثوم إلى سيف ابن هند وهو معلّق في السرادق وليس هـــناك سيف غيره، فأخـــذه وضرب به مضرط الحجارة فقتله، وخرج فنادى: «يا آل تغلب!» فانتهبوا، فمال عمرو بن هند وخيله وسبوا النساء ولحقوا بالحيرة. وعاصر عمرو المذكور كِسْرى أنو شروان.

وهي الحادثة التي نَظَمَ خلالها عمرو بن كلثوم قصيدته الشهيرة ومطلعها:

«أَبَا هِندٍ فَلاَ تَعجَل عَلَينَا
وأمهِلْنَا نُخَبِّركَ اليَقِينَا
بأَنَّا نُوردُ الرَايَاتَ بيضاً
ونُصدِرَهُنَّ حُمراً قَد رَوينَا
وأَيَّامٍ لَنَا غُرٍّ طِوَالٍ
عَصَينا المَلكَ فيها أن نَلينَا
إِذَا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَبيٌّ
تَخرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِينَا»

- النعمان بن المنذر أبو قابوس، أمه سلمى بنت وائل من كلب (٥٨٥ - ٦١٣م.)، وكان كلٌّ من يدخل مجلسه يقول: «أبيت اللعن». وهو الذي خطب كسرى أبرويز أخته فأجاب: أما لكسرى في مها السواد كفاية حتى تتخطى إلى العربيات؟،

فسأل: كسرى: ما المها؟،

قيل: البقر،

فقال: رب عبد صار في الطغيان إلى أكثر من هذا.

وهرب النعمان مدّة قبل أن يتوجّه إلى المدائن حيث صفَّ له كسرى ثمانية آلاف جارية صفين قبل أن يحبسه ويرميه تحت أرجل الفيلة فيلقى حتفه.

وكان النعمان قد أودع سلاحه[1] وعياله عند هانئ بن مسعود الشيباني، فلما أتى كسرى وطالب هانىء بتركته فامتنع، فكان ذلك السبب الذي أهاج حرب «ذي قار» التي سيأتي الكلام عنها والتي ربحها العرب[2].

(١) ٤٠٠ درع.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء أول، ص ٤٧٢.

ج - خراب الحيرة:

وصف المسعودي خراب الحيرة فكتب[1]:

«ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت الذي ذكرنا إلى صدر من أيام المعتضد، فإنه استولى عليها الخراب. وقد كان جماعة من خلفاء بني العباس - كالسفاح والمنصور والرشيد وغيرهم - ينزلونها ويصلون المقام بها لطيب هوائها، وصفاء جوهرها، وصحّة ترتبتها، وصلابتها، وقرب الخورنق، والنجف منها.

وقد كانت فيها ديارات كثيرة فيها رهبان، فلحقوا بغيرها من البلاد، لتداعي الخراب إليها، وأقفرت من كلّ أنيس في هذا الوقت، ليس بها إلاّ الصّدى والبوم. وعند كثير من أهل الدراية التامة بما يحدث في المستقبل من الزمان أن سعدها سيعود بالعمران، وأن هذا النحس عنها سيزول... وكذلك الكوفة».

د - الدروس المستقاة:

- أحسن عمرو بن عدي في استعمال الخدعة لإدخال رجاله المسلّحين إلى مدينة الزباء التي كان جنودها مستنفرين لمنع دخول أي غريب إلى مدينتهم. فقد أركب عمرو ألفي رجل من رجاله المسلحين على ألف بعير في الصناديق، الأمر الذي سمح له بإدخالهم آمنين إلى المدينة حيث انتصروا على سكانها وقتلوا الزباء.

وهذا الحادث يذكّرنا بحصار طروادة حين لجأ الإغريق إلى خدعة ناجحة أوردنا تفاصيلها في كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» كالآتي[2]:

«لم يتمكّن الآخائيون من فتح مدينة اليون بالقوّة بسبب مناعة أسوارها التي تحصّن الطرواديون خلفها.

فلمّا انتهت الموادعة استأنف الفريقان القتال. وكان فاريس شقيق هكطور قد رمى آخيل بسهم من فوق الأسوار أصاب عقب قدم آخيل، وهو المكان الوحيد

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٢، ص ١١٣.

(٢) ريحانا، عميد دكتور، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، ص ٥٤ - ٥٥.

الذي يمكن إصابته من جسده، فأرداه قتيلاً.(١)

وهنا لجأ اليونانيون إلى خدعة هيأها لهم داهيتهم أولليس، فصنعوا حصاناً خشبياً كبيراً على شكل كبش وفيه المحاربون المدججون بالسلاح، ثمّ تظاهروا بالملل وأقاموا الألعاب إيذاناً بانتهاء الحرب وتأهّبوا للإنصراف. وبالفعل غادروا المكان إلى السفن.

خُدع الطرواديون وخرجوا من مدينتهم وأدخلوا إليها الحصان الخشبي وانصرفوا إلى اللعب واللهو احتفاءً بالنصر. وخلال الليل تسلّل المقاتلون من داخل الحصان إلى الأسوار ففتحوا أبواب المدينة بغفلة من قاطنيها وأدخلوا الجيوش اليونانية إليها فبدأت معركة غير متكافئة دُمّرت فيها طروادة وقُتل رجالها وسُبيت نساؤها وأطفالها، ولم ينج منهم إلاّ نفر قليل لاذ بالهزيمة».

(١) لذلك سمي عقب القدم «عقب أخيل».

ملحق رقم ٥

لائحة الملوك المناذرة اللخميين

المرجع: زيدان، جزء ٢٩، ص ٥٦ - ٥٧.

جدول ملوك آل لخم في الحيرة			ملوك الدولة الساسانية في فارس		
إسم الملك	سنة الحكم	مدة الحكم	إسم الملك	سنة الحكم	مدة الحكم
عمرو بن عدي	٢٦٨م	٢٠	أردشير	٢٢٦	١٥
امرؤ القيس بن عمرو	٢٨٨	٤٠	سابور الأول بن أردشير	٢٤١	٣١
عمرو بن امرىء القيس	٣٢٨	٤٩	بهرام الأول هرمز		
أوس بن قلام	٢٧٧	٥	بن سابور	٢٧٢	١
أمرؤ القيس المحرق			بهرام الثاني بن بهرام	٢٧٣	٣
إبن عمرو	٣٨٢	٢١	بهرام الثالث بن بهرام		
النعمان الأعور			بن بهرام	٢٧٦	١٧
بن امرىء القيس	٤٠٣	٢٨	نرسي بن بهرام	٢٩٣	٩
المنذر بن النعمان الأعور	٤٣١	٤٢	هرمز الثاني بن نرسي	٣٠٢	٧
الأسود بن المنذر	٤٧٣	٢٠	سابور الثاني ذو الأكتاف	٣٠٩	٧٠
المنذر بن المنذر، أخوه	٤٩٣	٧	أردشير الثاني بن سابور	٣٧٩	٦

جدول ملوك آل لخم في الحيرة			ملوك الدولة الساسانية في فارس		
إسم الملك	سنة الحكم	مدة الحكم	إسم الملك	سنة الحكم	مدة الحكم
النعمان بن الأسود			سابور الثالث بن سابور	٣٨٣	٥
بن أخيه	٥٠٠	٤	بهرام الرابع بن سابور	٣٨٨	١١
علقمة أبو يعفر	٥٠٤	٣			
			يزدجرد الأوّل		
أمرؤ القيس بن النعمان	٥٠٧	٧	«الأثيم»	٣٩٩	٢١
المنذر بن امرىء القيس			بهرام جور الخامس		
الملقب إبن ماء السماء	٥١٤	٤٩	إبن يزدجرد	٤٢٠	١٨
والحارث بن عمرو الكندي			يزدجرد الثاني بن بهرام	٤٣٨	١٩
عمرو بن هند مضرط			هرمز الثالث فيروز		
الحجارة	٥٦٣	١٦	بن يزدجرد	٤٥٧	٢٧
قابوس أخوه	٥٧٨	٤	بلاش بن فيروز	٤٨٤	٤
فيشهرت «أو زيد»	٥٨١	١	قباذ الأول بن فيروز	٤٨٨	٤٣
المنذر بن المنذر بن			كسرى أنو شروان بن		
ماء السماء	٥٨٢	٣	قباذ	٥٣١	٤٧
النعمان بن المنذر			هرمز الرابع بن كسرى		
أبو قابوس	٥٨٥	٢٨	أنو شروان	٥٧٩	١١
أياس بن قبيضة	٦١٣	٥	كسرى إبرويز بن هرمز	٥٩٠	٣٨
زاديه	٦١٨	١١	من شيرويه بن كسرى		
المنذر المغرور	٦٢٨	٤	إلى يزدجرد الثالث	٦٢٨	٤

ثالثاً – دولة كندة

هاجرت كِنْدة من اليمن بعد أن كانت قد دخلت في خدمة حسّان بن تُبّع حِمير وكانت برئاسة حجر بن عمرو الملقب بـ«آكل المرار»، وكان شقيق ملك حمير لأم واحدة[1]. ويعتبر حجر أول وأعظم ملوك كندة. وهو كان قد مدّ ملكه من حدود اليمن إلى أطراف الشام والعراق في الربع الثاني للقرن الخامس الميلادي.

حكم حجر ٣٣ سنة وخلفه ابنه عمرو فحكم مدّة ٤٠ سنة. وقد حاولت قبائل شمال بلاد العرب في أيامه التخلّص من حكمه فوحّدت نفسها بزعامة كليب وائل زعيم قبيلة تغلب وحاربته. تحالف عمرو مع ملك اليمن الحميري فوقفت القبائل اليمنية إلى جانبه. لكن تحالف الشمال تمكّن من الانتصار في يوم خزارى[2].

ونصر خزارى هذا مكّن لغات أهل شمال شبه الجزيرة من التوحّد والسيطرة على لغة الجنوب فبرز شعراء شماليون سبق الحديث عنهم عندما ذكرنا المعلّقات السبع[3].

بعد عمرو ملَكَ إبنه الحارث الذي كان معاصراً للمنذر بن ماء السماء عندما حقد ملك الفرس قباذ عليه بسبب المزدكية فتسلّم الحارث الكندي الحيرة، وتقرّبت إليه القبائل، وولّى أبناءه عليها. وبقي الوضع كذلك إلى أن تولّى الحكم في فارس كسرى أنو شروان الذي أعاد المنذر إلى ملكه ففرّ الحارث.[4]

أ – حروب كندة:

حارب المنذر أبناء الحارث فحصلت معركة بينه وبينهم في جبل أوارة[5] حيث جرى قتال شديد انتصر فيه المنذر الذي ذبح

(١) الهمداني: ٨٨.
(٢) الأصفهاني: ١١٧.
(٣) بيضون وزكار، مرجع سابق، ص ٢٤.
(٤) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٨٤.
(٥) تسمّى هذه المعركة «يوم أوارة الأول»، سنتكلّم عنها لاحقاً في هذه الجزء.

عدداً كبيراً من الرجال وسبى النساء وأسر العديد من المقاتلين.[1]

وكان حجر بن الحارث قد تولّى بعهد والده بني أسد وغطفان، فلمّا ضعف أمسكت أسد عن دفع الأتاوة له فحمل عليهم بجند من ربيعة وأعمل السيف فيهم منتصراً عليهم. لكن رجال أسد، وبعد أن انهزموا، عادوا وقتلوه طعناً فانهزم رجاله. وحجر هو والد امرىء القيس الشاعر المشهور. وهذا ما سنفصّله في القسم الثاني من هذا الكتاب عند الحديث عن «أيام العرب».

ب - نهاية كندة:

بدأت دولة كندة بالتراجع ولم يبقَ من ملوكها سوى معد يكرب رئيساً على قيس عيلان، مع بعض الفروع الصغيرة أشهرها دولة الجندل والبحرين ونجران وعمر ذي كندة التي بقيت حتى ظهور الإسلام.

ومع انتهاء دور كندة دخلت القبائل العربية في شمال شبه الجزيرة في صراعات بينها دعيت «أيام العرب» سنفصّلها في القسم الثاني من هذا الكتاب.

ومع تراجع دور دول الشمال بدأ دور مدينة مكّة المكرّمة يبرز، وكان سكانها قد أقاموا نوعاً من الجمهوريات التي يحكمها التجار بزعامة قريش وعقدوا تحالفات مع مناطق شبه الجزيرة العربية وخارجها ومعاهدات تجارية سميت «الإيلاف». وكان ذلك تمهيداً لقيام الإسلام وانطلاقه من شمال بلاد العرب لنشر الدين الجديد في أقطار آسيا وأفريقيا وأوروبا. وهذا الموضوع سنفصّله أيضاً في الأجزاء اللاحقة من هذه الموسوعة.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جزء أول، ص ٤٣٧ - ٤٣٨.

القسم الثاني

أيام العرب



يقصد بـ«أيام العرب» الوقائع والمعارك التي جرت بين القبائل العربية الشمالية في الطور الثاني من تاريخها في سبيل السيطرة على الواحات وإثبات الوجود أو الأخذ بالثأر أو الانتقام من قبيلة أخرى أو للدفاع عن قوافل القبيلة أو عن مراكز رعي الماشية...إلخ.

وهذه الوقائع حصلت بين قبائل عدنان في الطبقة الثالثة من تاريخ العرب قبل الإسلام، ليس لنصرة مبدأ أو للدفاع عن عقيدة، إنما بسبب العصبية الجاهلية التي يصفها ابن خلدون كما يلي[١]:

«وذلك أن صلة الرحم طبيعية في البشر إلاّ في الأقل، ومن صلتها النصرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة...

وإذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى...

والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالاً في القفر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش، فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقيادهم بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحّش، ورئيسهم محتاج إليهم غالباً للعصبية التي بها المدافعة».

إن قول ابن خلدون هذا يصف عقلية البدوي الجاهلي النازعة إلى السيطرة والصراع مع الغير، ويفسّر بالتالي الوقائع والحروب التي حفلت بها مرحلة ما قبل الإسلام.

سنحاول في هذا القسم من الكتاب الأول من هذه الموسوعة التطرّق إلى الوقائع المهمّة في التاريخ الجاهلي، علماً أنّ القائمة لن تكون كاملة أو حصرية.

كتب جرجي زيدان عن جو حروب العدنانية ملخّصاً وضع قبائلها قبيل الإسلام مباشرة[٢]:

«والعدنانية كانوا أشداء، ولو أنهم اتحدوا لم تقوَ عليهم دولة، ولكنهم كانوا لا يبرحون في انقسام وخصام فيستظل الضعيف منهم بدولة تحميه من أخيه القوي. وكثيراً ما كانوا

(١) ابن خلدون، المقدّمة، مرجع سابق، ص ١٠٢ - ١٢٠.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٩٤.

يلجأون إلى بعض تلك الدول للحكم بينهم في ما يختصمون فيه لاحترامهم علوم الحضارة وقوانينها. فكانت القبيلة من أهل البادية إذا دخلت في رعاية حِمْيَر مثلاً، طلبت إليها أن تولي عليها أميراً، ويغلب أن تختار واحداً من أمراء تلك القبيلة، أو أحد رجال تلك الدولة، أو بعض المعروفين بالقوة والسطوة من إحدى القبائل التي تعوّدت السيادة، كقضاعة أو غسان أو لخم أو كندة.

وأشهر من تولّى الرئاسة على بدو الشمال تحت رعاية دولة اليمن، زهير بن جناب الكلبي من قضاعة في أواسط القرن الخامس للميلاد، وكان شديد البطش باسلاً شجاعاً وله عقل وسداد رأي حتى سموه الكاهن، وله وقائع مشهورة سيأتي ذكرها. واتفق في أثناء سيادته على نجد، أن صاحب اليمن أتى نجداً، فقدِم زهير إليه فأكرمه الملك وفضّله على من عرفهم من أمراء العرب، وولاّه الإمارة على بكر وتغلب وكلاهما من ربيعة، فكان يحكم فيهم ويجمع الأتاوة منهم».

هذه القبائل المتحاربة، التي كانت تنزل من عدنان بغالبيتها، لم تتوحّد في القتال سوى مرات ثلاث[1]:

- في المرّة الأولى اجتمعت قبائل عدنان تحت لواء ماهر بن الظرب خلال القرن الرابع للميلاد لمحاربة قبيلة مذحج القادمة من اليمن طلباً للكلأ.
- في المرّة الثانية اجتمعت قبائل معد بقيادة ربيعة بن الحارث في قضاعة خلال وقعة سميت «يوم السلاف».
- وللمرّة الثالثة عادت واجتمعت قبائل عدنان تحت لواء كليب بن ربيعة للخروج من طاعة دولة حِمْيَر، والقبيلة المحرّكة كانت ربيعة أي بكر وتغلب. أما سبب الحرب فكان الجدب وتأخّر ربيعة في تأدية الأتاوة لعميل حمير زعيم قضاعة زهير بن جناب الكلبي.

في هذه الحرب الأخيرة قاتل زهير بكر بجند من اليمن فغلبها قبل أن ينصرف إلى تغلب وتكثر القتلى فيها.

وفي أواخر القرن الخامس توفي ربيعة فتولى قيادة تغلب ابنه كليب وهو حاقد على

---

(١) ريحانا، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ١٥٥ - ١٥٦.

اليمن. وهكذا حاربها بربيعة ومضر وإياد ونزار في معركة عرفت بيوم خزار فهزمها وتولّى الملك على قبائل الشمال، وكان ذلك آخر عهد الشمال بسيطرة اليمن.

لكنّ قبائل الشمال ورغم اجتماعها للحرب ضدّ اليمن لم تشكّل دولة واحدة، بل بقيت قبائل متنافرة تتحارب في ما بينها في وقائع عرفت بأيام العرب، وتقسم إلى قسمين:

١ - حروب العدنانية مع سواها.

٢ - حروب العدنانية مع بعضها.

تقييم حروب قبائل العرب

يمكننا التمييز بين غايات عدّة للحرب عند العرب قبل الإسلام أبرزها الغزو والثأر والدفاع. فالغزو هو نوع من القتال دعت إليه ضرورات اقتصادية واجتماعية كالصراع على المراعي والمياه والواحات ومصادر العيش عامة في محيط يتميّز بالجفاف وشظف العيش والعداء. وقد يسمي البعض أعمال الغزو بالقرصنة، إنما المبرّرة كونها الطريقة المثلى للبقاء على قيد الحياة، وربما تحقيق الإزدهار للمجتمع القبلي. وغاية الغزو السيطرة على وسائل الحياة لا سيما الماشية والمتاع، وربما العنصر النسائي. وقلّما كان يُراق دم خلال أعمال الغزو، فالقبيلة الغازية تستغل فرصة غياب المقاتلين عن ربعهم لتنفيذ أعمالها بحيث لا تعترضها مقاومة تُذْكَر. وقد تطلب القبيلة الضعيفة الحماية من أخرى قوية فتعقد معها معاهدة حسن جوار ضمن مفهوم الأحلاف.

وإلى جانب أعمال الغزو نما مفهوم الثأر أو الإنتقام من المسيء، لأحد أفراد القبيلة التي تتحد لرد التحدّي أو لحماية المستجير بها والأخذ بثأره ممن يعتدي عليه. ويترافق الثأر مع مفهوم الإنتقام الذي يحصل ضدّ المذنب أو أحد أفراد قبيلته. فإذا تعرّض إعرابي للقتل على يد فرد من أفراد قبيلة ما، فإن جميع أبناء قبيلة الجاني يصبحون عُرضة للقتل من قبل أبناء قبيلة المجنى عليه؛ لذلك كانت بعض القبائل تعمد إلى دفع دية القتيل إذا قبل مبدأ الدفع بدلاً من الأخذ بالثأر.

أما الدفاع عن المصالح القبلية فيشمل، ليس فقط الخيام والعِرض والمراعي ومصادر المياه، إنما أيضاً القوافل التجارية التي درج

العرب على تسييرها. فقد عرف عن عرب الحجاز قيامهم برحلتين سنويتين باتجاه اليمن أو الشام ضمن قوافل مسلّحة قد تبلغ أحياناً آلاف الجمال التي يحيط بها مئات الفرسان المسلحين لحمايتها من غزوات القبائل المعادية. ومن المعروف أن النبيّ محمّد ﷺ شارك في هذه الرحلات ضمن قوافل قبيلة قريش لصالح زوجته في ما بعد، وأنه نفّذ أعمالاً هجومية ضدّ قوافل قريش بعد ظهور الدعوة والتي كان يقودها غالباً أبو سفيان والد الخليفة الأموي معاوية.

سنعمد في هذا القسم إلى التطرّق إلى أيام العرب تباعاً، مستمدين المعلومات من مختلف المؤرّخين العرب الذين عالجوا أيام العرب، وخاصة الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن كثير وسواهم.

١ - أيام زهير الكلبي مع غطفان وبكر وتغلب وبني القين

كان زهير بن جناب أحد من اجتمعت عليه قضاعة. وكانت بنو بغيض[١] حين خرجت من تهامة قد قاتلت بني صداء[٢] وغلبتها، فكثرت أموالها واتخذت حرماً مثل مكّة تولاّه بنو مُرَّة بن عوف. وهذا ما أثار زهيراً فاجتمعت عليه قضاعة وغزا غطفان وقاتلهم وانتصر عليهم ودمّر الحرم وأخذ أموالهم.

أمّا حربه مع بكر وتغلب فكان سببها أن أبرهة حين طلع من نجد جاءه زهير فأكرمه وفضّله على من أتاه من العرب وجعله رئيساً على بكر وتغلب ابني وائل فوليهم. لكن ما طلبه منهم من الخراج اشتدّ عليهم فقرروا الفتك به، فتولى المهمّة رجل من تميم قصده، وكان زهير نائماً، فضربه بالسيف على بطنه فمرّ السيف فيها حتى خرج من ظهره من دون ان يؤذي ما في بطنه. وظنّ التميمي أنّه قتله، ولم يتحرّك زهير كي لا يُجْهِز عليه.

انصرف التميمي إلى قومه وأعلمهم بأنه قتل زهيراً.

أمّا زهير فأمر قومه بأن يظهروا أنّه ميت وأنّ يستأذنوا بكراً وتغلب في دفنه، فإذا أذنوا دفنوا ثياباً ملفوفة وساروا به مُجدّين إلى

(١) بغيض بن ريث بن غطفان.

(٢) صداء من مذحج.

قومهم. ففعلوا ذلك، فأذنت لهم بكر وتغلب في دفنه، فحفروا وعمّقوا ودفنوا ثياباً ملفوفة لم يشك مَن رآها في أنه ميت.

لكن زهيراً جمع مَن قدر عليه من أهل اليمن، وغزا بكراً وتغلب، وكانوا علموا به، فقاتلهم قتالاً شديداً انهزمت به بكر. وقاتلت تغلب بعدها فانهزمت أيضاً، وأُسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة، وأخذت الأموال وكثرت القتلى في بني تغلب، وأُسرت جماعة من فرسانهم ووجوههم.

أمّا حربه مع بني القين فكان سببها أنّهم أهانوا أختاً له كانت متزوّجة فيهم. جمع زهير عشيرته من بني حباب وقاتلهم فهزمهم وقتل رئيسهم.

الدروس المستقاة:

- كان زهير الكلبي قائداً عسكرياً بارزاً. لذلك اجتمعت عليه قضاعة فغزا غطفان وانتصر عليها. ولمّا طعنه أحد بني تميم وظنّ أنه قتله اعتمد زهير الخدعة فادّعى قومه أنّه توفي ودفن، لكنه جمع جيشاً كبيراً من أهل اليمن وغزا بني بكر وتغلب فجرى قتال عنيف انتصر فيه زهير.

فالخدعة التي استعملها زهير أمّنت له حرية العمل العسكري ففاجأ خصومه وانتصر عليهم.

- أمّا حربه مع بني القين فكانت لأسباب ثأرية، كونهم أهانوا أختاً له. وقد سبق وشرحنا أهمية القربى بالنسبة للمقاتل الجاهلي. فشقيقة زهير كانت متزوّجة من بني القين، ورغم ذلك قرّر زهير الأخذ بثأرها منهم لأنهم أهانوها. وهذا يؤكّد ما سبق وأوردناه عن أسباب الحرب في العصر الجاهلي.

٢ – يوم البيضاء بين عدنان واليمن

هذا أقدم ما حفظه التاريخ من أخبار تلك الحروب، وهي حرب وقعت بين العدنانية ومذحج، في أواسط القرن الرابع للميلاد. وكانت مذحج قادمة من اليمن طلباً للتوسّع في المعاش، فنزلوا تهامة وفيها من بني معد قبائل متفرّقة ومن جملتها عدوان. وكان أمير عدوان يومئذ عامر بن الظرب المشهور بعقله وحكمته. فتضايق المعديّون من مذحج،

فاجتمعوا تحت لواء عامر بن الظرب، وهي أول مرّة اجتمعت كلّ قبائل معد تحت لواء واحد، وهي إنما تجتمع لدفع جيش يمني. وقد فازت معد بهذه الحرب تحت قيادة عامر حكم العرب المشهور(١).

التقييم:

- كانت قبائل معد متفرّقة وتقاتل بعضها البعض، لكنها توحّدت أمام الخطر الخارجي المتمثّل بحملة جيش اليمن على بلادها.

والخطر الخارجي الذي تتعرّض له بلاد ما يعدّ أكبر حافز لعناصر جيشها للقتال في سبيلها وللدفاع عن أرضهم ومجتمعهم وعائلاتهم. فعند تعرّض الوطن لغزو من الخارج يضع المقاتلون خلافاتهم جانباً لردّ المعتدي. إنما، بعد زوال الخطر قد يعود هؤلاء إلى الاختلاف مجدداً.

٣ - يوم البردان:

أغار حُجر بن عمرو الكندي ملك عرب نجد ونواحي العراق الملقب «آكل المُرار»(٢) على البحرين وكان معه كندة وربيعة. وعندما علم زياد بن الهبولة ملك الشام بهذه الإغارة سار مع بني سليح، من قضاعة، على أهل حجر وأخذ النساء والأموال وسبى منهم هنداً بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية.

سمع حجر ومعه كندة وربيعة بغارة زياد، فعادوا عن غزوهم، وأدركوا زياداً على ماء يقال له «حفير» قرب جبل «الضحصحان»(٣) فاقتتلوا قتالاً شديداً. انهزم زياد وأهل الشام وقتل منهم عدد كبير وأخذت بكر وكندة ما كان في أيديهم من الغنائم والسبايا وقتلوا زياداً واسترجع حجر زوجته.

هذه الرواية نقضها ابن الأثير الذي رأى صعوبة في حصولها لبعد الشام عن نجد(٤).

(١) الأغاني، جزء ٣، ص ٣.

(٢) المُرار: شجر مرّ أكله حجر وكان مهتاجاً فلم يشعر بالمرورة، فلقّب كذلك.

(٣) الضحصحان: موضع بين حلب وتدمر.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٣٩٧ - ٣٩٨.

التقييم:

أ – نفّذ زياد هجوم مشاغلة بدلاً من أن يتصدّى مباشرة للغزاة المتفوّقين على قواته عدداً وعدّة، مطبِّقاً بذلك مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل» ومبدأ الحرب الثاني أي «حرية العمل»، إذ هاجم أهل حجر وسبى النساء واستولى على الأموال.

وهجوم المشاغلة ينفّذه الجيش عادة لتخفيف ضغط عدوّه على إحدى الجبهات، إذ يرى هذا العدو نفسه ملزماً بتحويل قسم من وحداته إلى جبهته الجديدة المهدّدة.

ب – في المقابل قام حجر بمناورة بالخطوط الداخلية، فعاد من غزوته بسرعة وبكامل جيشه، ولاحق خصمه فبلغه وهو ما زال في طريق العودة، وانتصر عليه واستعاد نساء تابعيه وأموالهم.

والمناورة بالخطوط الداخلية ينفّذها الجيش عندما يكون مهدّداً من جهات عدّة من قِبَل أكثر من جيش واحد. وتقضي هذه المناورة بالقضاء على الأعداء الواحد تلو الآخر، بدءاً بالأقوى، وبسلوك طرق ومسالك مختصرة تجعل الانتقال سريعاً. والقائد الذي أحسن تطبيق هذه الاستراتيجية في حروبه هو نابوليون بونابرت خلال مواجهته التحالفات الأوروبية الموجّهة ضدّه.

٤ – مقتل حجر والد امرئ القيس

سبق الكلام عن تولية حجر بن الحارث بني أسد وغطفان وخلافه مع أسد لتمنّعها عن دفع الأتاوة.

سار حجر إلى بني أسد بجندٍ من ربيعة وقيس وكنانة ولاحقهم وراح يقتل منهم، وأباح أموالهم، وأرسلهم إلى تهامة، وحبس جماعة من أشرافهم، ثمّ رقّ لهم فأطلق سراحهم. فما كان منهم إلاّ أن اجتمعوا وساروا إليه فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان قائدهم علباء بن الحارث الذي حمل على حجر فقتله.

انهزمت كندة ومن معها، وأسر بنو أسد أهل حجر وغنموا غنائم كثيرة وسبوا النساء والجواري واقتسموهنّ في ما بينهم.

كتب ابن الأثير عن نهاية هذه الحرب ما يأتي[1]:

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٠٢.

«وقيل: إن حجراً أُخذ أسيراً في المعركة وجُعِل في قبة فوثب عليه ابن أخت علباء فضربه بحديدة كانت معه لأن حجراً كان قتل أباه. فلمّا جرحه لم يقض عليه، فأوصى حجر ودفع كتابه إلى رجل، وقال له: «انطلق إلى ابني نافع، وكان أكبر أولاده فإن بكى وجزع فاتركه واستقرِهم[1] واحداً واحداً حتى تأتي امرأ القيس وكان أصغرهم، فأيهم لم يجزع فادفع إليه خيلي وسلاحي ووصيتي». وقد كان بيّن في وصيّته مَن قتله وكيف كان خبره.

فانطلق الرجل بوصيته إلى ابنه نافع. فوضع التراب على رأسه، ثمّ أتاهم كلّهم ففعلوا مثله، حتى أتى امرأ القيس، فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلعب معه بالنرد، فقال: «قُتل حِجر»، فلم يلتفت إلى قوله وأمسك نديمه. فقال له امرؤ القيس: «اضربْ». فضرب، حتى إذا فرغ قال: «ما كنت لأفسد دستك».

ثمّ سأل الرسول عن أمر أبيه كلّه فأخبره، فقال له: «الخمر والنساء عليّ حرام حتى أقتل مِن بني أسد مائة وأطلق مائة».

ثمّ قال: «ضيّعني صغيراً وحمّلني دمه كبيراً. لا صحو اليوم ولا سكر غداً. اليوم خمر وغداً أمر». فذهبت مثلاً.

ثمّ ارتحل حتى نزل ببكر وتغلب فسألهم النصر على بني أسد فأجابوه، فبعث العيون إلى بني أسد فنذروا به فلجأوا إلى بني كنانة وعيون امرئ القيس معهم. فقال لهم علباء بن الحارث: اعلموا أنّ عيون امرئ القيس قد عادوا إليه بخبركم، وإنكم عند بني كنانة فارحلوا بليل، ولا تعلموا بني كنانة.

فارتحلوا وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب وغيرهم حتى انتهى إلى بني كنانة وهو يظنّهم بني أسد فوضع السلاح فيهم وقال: يا لثارات الملك، يا لثارات الهمام. فقيل له: «أبيت اللعن لسنا لك بثأر، نحن بنو كنانة، فدونك ثارك فاطلبهم، فإنّ القوم قد ساروا بالأمس». فتبع بني أسد ففاتوه ليلتهم.

فسار امرؤ القيس في آثار بني أسد فأدركهم ظُهراً وقد تقطعت خيله وهلكوا عطشاً وبنو أسد نازلون على الماء فقاتلهم

---

(١) أي استعرضهم.

حتى كثرت القتلى بينهم. وهربت بنو أسد فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالوا: «قد أصبت ثارك».

فقال: «لا والله». فقالوا: «بلى ولكنك رجل مشؤوم». وكرهوا قتلهم بني كنانة فانصرفوا عنه.

ومضى إلى أزد شنوءة يستنصرهم فأبوا أن ينصروه؛ وقالوا: «إخواننا وجيراننا». فسار عنهم ونزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذي جدن الحميري وكان بينهما قرابة فاستنصره على بني أسد، فأمدّه بخمسمائة رجل من حمير. ومات مرثد قبل رحيل امرئ القيس، وملك بعده رجل من حِمير يقال له قرمل فزوّد امرأ القيس. ثمّ سيّر معه ذلك الجيش وتبعه شُذّاذ من العرب واستأجر غيرهم من قبائل اليمن، فسار بهم إلى بني أسد وظفر بهم.

ثمّ إنّ المنذر طلب امرأ القيس ولجّ في طلبه ووجّه الجيوش إليه فلم يكن لامرئ القيس بهم طاقة. وتفرّق عنه من كان معه من حمير وغيرهم فنجا في جماعة من أهله ونزل بالحارث بن شهاب اليربوعي وهو أبو عتيبة بن الحارث، فأرسل إليه المنذر يتوعّده بالقتال إن لم يسلمهم إليه فسلّمهم. ونجا امرؤ القيس وابنته هند وأدراعه وسلاحه وماله، فخرج ونزل على سعد بن الضباب الإيادي سيّد قومه فأجاره. ثمّ تحوّل عنه».

ويروي جرجي زيدان قصّة امرىء القيس كما يلي[1]:

«وكان امرؤ القيس عند مقتل أبيه غائباً، فلما علم بقتله رجع وهو يعلم عجزه عن الأخذ بثأره لأن عدوه قوي. وعلم أيضاً أن ذلك العدو إذا عرف مقرّه قبض عليه، فقضى برهة من الدهر وهو يتجول متنكراً في اليمن، ونجد، والحجاز، يستجير القبائل فلم يجره أحد، حتى أتى السموأل صاحب حصن الأبلق فاستجاره فأجاره. فاستودعه أدراعه وأمتعته وهو لا يرى مرجعاً يستنصره على أعدائه إلا قيصر الروم، لأن ملوك الحيرة عمال الفرس نصروا أعداءه، على جاري عادة العرب في ذلك العهد: إذا تظلموا من إحدى الدولتين استنصروا الأخرى. ولم

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٨٦.

يكن لامرئ القيس سبيل إلى القيصر، فوسّط الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب النفوذ عند الروم يومئذ، وطلب إليه أن يوصله إليه ففعل، فسار امرؤ القيس إلى القيصر. ويقول العرب إن القيصر بعد أن أجاب دعوته وسمع مدائحه، وشى به أحد بني أسد إلى أعدائه وقال للقيصر: «إن امرأ القيس شتمك»، فصدّق الوشاية وألبس الشاعر حلة مسمومة قتلته، ولا نعرف سماً يفعل هذا الفعل. وعلى كلّ حال، فإن امرأ القيس قُتل ولم ينل أرباً.

ولّما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبي شمّر الغسّاني إلى السمؤال وطالبه بأدرع امرئ القيس، وكانت مائة درع، وبماله عنده فلم يعطِه. فأخذ الحارث إبناً للسمؤال فقال: «إما أن تسلّم الأدراع وإمّا قتلت ابنك، فأبى السمؤال أن يسلّم شيئاً، فقتل إبنه.

- الدروس المستقاة:

١ - بعد ان انتصر حجر بن الحارث على أعدائه من بني أسد رقّ لهم وأطلق سراحهم، فاجتمعوا وقاتلوه وقتلوه. ففي الحرب لا مجال للعاطفة، أما القادة الذين تغلبت عاطفتهم على عقولهم، فقد خسروا معاركهم. فالحرب هي صراع إرادات، وإرادة الأقوى والذي يكون أكثر صموداً هي التي تنتصر.

٢ - أما وصية حجر للرجل الذي سلّمه وصيته، ففيها فلسفة جاهلية وخبرة طويلة في التعامل مع رجال العرب في العصر الجاهلي. فأبناء حجر بكوه لكنهم لم يكونوا مصممين على الأخذ بثأره، باستثناء امرؤ القيس الذي صمّم على تنفيذ وصيّة والده وأمضى باقي حياته في ذلك.

٣ - وعندما قاتل امرؤ القيس بني أسد، كانوا قد اختاروا مكان المعركة وزمانها فانتظروه على ماءٍ حيث أراحوا خيولهم، فيما وصلها جيش امرئ القيس وقد تقطّعت خيله وهلك جنده عطشاً. وهكذا طبّق بنو أسد مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل»، إذ أنهم أحسنوا استعمال الزمان والمكان لمصلحتهم، فكان مقاتلوهم في وضع مناسب للقتال، بعكس مقاتلي امرئ القيس.

٤ - أما تصرّف السموأل فيعكس الأمانة العربية في أسمى معانيها، فقد حافظ على وديعة امرئ القيس رغم التهديد بقتل ابنه وتنفيذ هذا التهديد. وهذا ما يثبت ما سبق وأوردناه عن تمسّك العربي الجاهلي بشهامته وأمانته ومحافظته على الضيف وحمايته.

٥ - يوم خزار بين عدنان واليمن

كان السبب في نشوب القتال أنه وقع لملك اليمن أسرى من مضر وربيعة وقضاعة، وكلهم من بطون معد. أرسلت معد وفداً من كبارها إلى الملك يطلبون منه إطلاق سراح الأسرى، ففعل، لكنه احتجز بعض أعضاء الوفد رهينة لديه وقال للباقين: «إئتوني برؤساء قومكم لآخذ عليهم المواثيق بالطاعة لي، وإلا قتلت أصحابكم».

رجع هؤلاء إلى قبائلهم فأخبروهم بالأمر فاستاؤوا من غدره بهم. وكان زعيمهم يومذاك هو كليب وائل الذي جمع قبيلة ربيعة تحت رايته، وانضمّت إليها معد كلّها. فلمّا اجتمعوا إليه سار بهم، وجعل على مقدّمته السفاح التغلبي وأمره بأن يوقد ناراً على جبل خزار[1] ليهتدوا بها، فإذا هاجمه العدو يوقد نارين.

وبالفعل، أقبلت جموع اليمن من مذحج ومن يليهم من قبائل اليمن. فلمّا سمع أهل تهامة بمسير مذحج، انضمّوا إلى ربيعة. ووصلت مذحج إلى خزار ليلاً، فأوقد السفاح نارين رآهما كليب فأقبل إليهم بجموعه فالتقوا في خزار حيث جرى قتال عنيف كثر فيه القتل وانتصر كليب وائل وهزمت مذحج.

الدروس المستقاة:

أ - أخطأ ملك اليمن في تقدير قوّة عدوّه من مضر وربيعة فخسر حربه معهما. لقد سجلت حالات عدّة في التاريخ العسكري قام خلالها القادة بالاستهانة بأعدائهم وعدم تقدير قوتهم حقّ قدرها فخسروا معاركهم.

(١) خزار جبل على الطريق من البصرة إلى مكّة المكرّمة.

وتقدير قوّة العدو ضرورية للقائد وذلك لمقارنتها مع جيشه والعمل على تطبيق مبدأ الحرب الأول أي «نسبية الأهداف للوسائل». فعندما تفوّق قوى العدو قواته، عليه تجنّب القتال معه.

حالياً تعمل الجيوش جاهدة لجمع أكبر قدر من المعلومات عن أعدائها لأن «العدو المعروف هو نصف مغلوب» حسب المثل العسكري الفرنسي. أما الجهاز الذي يكلف بمهمة جمع هذه المعلومات فهو الاستخبارات العسكرية التي تعمل لهدفين:

١ - منع العدو من الحصول على معلومات دقيقة عن الوحدات الصديقة.

٢ - جمع أكبر قدر من المعلومات عن وحدات العدو وأسلحته وقياداته ومراكزه، ووضعها بتصرّف القيادة الصديقة التي ترسم خطتها العملانية استناداً لهذه المعلومات.

ب - استعمل كليب وائل النيران، التي أُوقدت على رأس أحد الجبال، كوسيلة اتصال مع مفرزة المراقبة التي أرسلها لاستطلاع أوضاع أعدائه.

واستعمال النيران لهذه الغاية قديم في التاريخ العسكري، مارسته الجيوش القديمة، وخاصة جيوش الصليبيين الذين أشادوا قلاعاً لهم على تلال وجبال الشرق الأدنى تمتدّ من فلسطين إلى شمال سوريا. وكانت تستعمل النيران التي توقد على هذه التلال كوسيلة لنقل الأوامر والتعليمات والإفادات من قيادة إلى قيادة أخرى.

ج - كما أحسن كليب وائل بإرسال مفرزة المراقبة التي نقلت إليه بسرعة فائقة المعلومات الضرورية له لوضع خطته لمواجهة أعدائه. وهكذا انتصر في حربه إذ إنه أحسن تطبيق مبادىء الحرب.

٦ - حرب البسوس بين بكر وتغلب

نقلها ابن الأثير كما يأتي[1]:

«كان لواء ربيعة بن نزار للأكبر فالأكبر من ولده، فكان اللواء في عنزة بن أسد بن ربيعة وكانت سنتهم أنهم يوفرون لحاهم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء أول، ص ٤١٠ - ٤٢٥.

ويقصون شواربهم فلا يفعل ذلك من ربيعة إلاّ من يخالفهم ويريد حربهم.

ثمّ تحوّل اللواء من إبن إلى إبن حتى وصل إلى تغلب فوليه وائل بن ربيعة الذي اجتمعت عليه معد يوم خزار فغلب جموع اليمن فأطاعته معد. ثمّ دخله زهو شديد فتكبّر حتى أصبح يقول: «وحش أرض كذا في جِواري فلا يصاد». ولا يورد أحد مع إبله، ولا يوقد ناراً مع ناره، ولا يمرّ أحد بين بيوته، ولا يحتبى في مجلسه.

وكانت بنو جشم وبنو شيبان أخلاطاً في دار واحدة إرادة الجماعة ومخافة الفرقة. وتزوّج كليب جليلة بنت مرّة بن شيبان بن ثعلبة وهي أخت جسّاس بن مُرّة. وحمى كليب أرضاً من العالية في أول الربيع، وكان لا يقربها إلاّ محارب. ثمّ إن رجلاً يقال له سعد بن شميس بن طوق الجرمي نزل بالبسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس ابن مُرّة. وكان للجرمي ناقة اسمها سراب ترعى مع نوق جسّاس وهي التي ضربت العرب بها المثل، فقالت: «أشأم من سراب، وأشأم من البسوس». فخرج كليب يوماً يتعهّد الإبل ومراعيها فأتاها وتردّد فيها؛ وكانت إبله وإبل جساس مختلطة، فنظرَ كليب إلى سراب فأنكرها، فقال له جساس وهو معه: «هذه ناقة جارنا الجرمي». فقال: «لا تعد هذه الناقة إلى هذا الحمى». فقال جسّاس: «لا ترعى إبلي مرعى إلاّ وهذه معها».

فقال كليب: «لئن عادت لأضعنّ سهمي في ضرعها». فقال جسّاس: «لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعنّ سنان رمحي في لبّتك».(١)

ثمّ تفرّقا، وقال كليب لامرأته: «أترين أنّ في العرب رجلاً مانعاً مني جاره». قالت: «لا أعلمه إلاّ جساساً». فحدّثها الحديث. وكان بعد ذلك إذا أراد الخروج إلى الحمى منعته وناشدته الله أن لا يقطع رحمه، وكانت تنهي أخاها جساساً أن يسرح إبله.

ثمّ إنّ كليباً خرج إلى الحمى وجعل يتصفّح الإبل فرأى ناقة الجرمي فرمى ضرعها فأنفذه فولّت ولها عجيج حتى بركت

---

(١) اللبّة: موضع القلادة في العنق.

بفناء صاحبها. فلمّا رأى ما بها صرخ بالذل. وسمعت البسوس صراخ جارها فخرجت إليه، فلما رأت ما بناقته وضعت يدها على رأسها، ثمّ صاحت: «واذلاه»، وجساس يراها ويسمع، فخرج إليها، فقال لها: «أسكتي ولا تُراعي». وسكن الجرمي. وقال لهما: «إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة، سأقتل غلالاً». وكان غلال فحل إبل كليب لم ير في زمانه مثله. وإنما أراد جساس بمقالته كليباً. وكان لكليب عين يسمع ما يقولون، فأعاد الكلام على كليب، فقال: «لقد اقتصر من يمينه على غلال». ولم يزل جساس يطلب غرة كليب، فخرج كليب يوماً آمناً، فلما بعد عن البيوت ركب جسّاس فرسه وأخذ رمحه وأدرك كليباً فوقف كليب، فقال له جساس: «يا كليب الرمح وراءك».

فقال: «إن كنت صادقاً فأقبل إليّ من أمامي»، ولم يلتفت إليه، فطعنه فأرداه عن فرسه. فقال: «يا جساس أغثني بشربة من ماء»، فلم يأته بشيء، وقضى كليب نحبه. فأمر جساس رجلاً كان معه اسمه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان، فجعل عليه أحجاراً لئلا تأكله السباع.

وكان همام بن مرة أخو جساس، ومهلهل أخو كليب في ذلك الوقت يشربان، فبعث جساس إلى همام جارية لهم تخبره الخبر، فانتهت إليهما وأشارت إلى همام، فقام إليها فأخبرته، فقال له مهلهل: «ما قالت لك الجارية؟» - وكان بينهما عهد أن لا يكتم أحدهما صاحبه شيئاً - فذكر له ما قالت الجارية وأحبّ أن يعلمه ذلك في مداعبة وهزل، فقال له مهلهل: «أست أخيك أضيق من ذلك». فأقبلا على شربهما.

فقال له مهلهل: «اشرب فاليوم خمر وغداً أمر»، فشرب همام وهو حذر خائف.

فلمّا سكر مهلهل عاد همام إلى أهله، فساروا من ساعتهم إلى جماعة قومهم وظهر أمر كليب فذهبوا إليه فدفنوه. فلمّا دُفن شُقّت الجيوب وخُمشت الوجوه وخرجت الأبكار وذات الخدور العواتق إليه.

فلمّا صحا المهلهل[1] انطلق إلى المكان الذي قتل فيه كليب فوقف على قبره ورثاه.

(١) وهو خال امرئ القيس ولُقّب مهلهلاً لأنه هلهل الشعر.

ثمّ جزّ شعره وقصّر ثوبه وهجر النساء والقمار والشراب، وجمع قومه وأرسل رجالاً إلى مرّة بن ذهل بن شيبان والدجساس عرضوا عليه مخرجاً من أربعة:

«إما أن تحيي لنا كليباً، أو تدفع إلينا قاتله جساساً فنقتله به أو هماماً فإنه كفء له، أو تمكّننا من نفسك فإنّ فيك وفاء لدمه».

لم يقبل مرّة فنشبت حرب البسوس فالتقت الجموع في أول قتال في يوم «عنيزة» فلم ينتصر أحد. وبعد زمن التقوا بماءٍ يقال له «النهي» وكان يرأس تغلب المهلهل ويرأس شيبان الحارث بن مرّة. وانتصرت تغلب، إلاّ أنه لم يقتل في ذلك اليوم أحد من بني مرّة.

وأعظم وقعة كانت في الذنائب انتصرت فيها تغلب وكثر القتل في بكر فقتل همّام بن مرّة، فعندما رآه المهلهل مقتولاً قال:

«والله ما قتل بعد كليب أعزّ عليّ منك، وتالله لا تجتمع بكر بعدكما على خيرٍ أبداً».

أكمل جرجي زيدان تفاصيل الحرب، فننقل عنه الآتي[1]:

«ويُقال بالإجمال إن الأيام التي اشتدت فيها الحرب بين الفريقين خمسة أيام: يوم عنيزة تناصفوا فيه، ويوم واردات كان لتغلب على بكر، ويوم الحنو كان لبكر على تغلب، ويوم القصيبات أُصيبت فيه بكر حتى ظنّ رجالها أنهم لن يستقيلوا، ويوم فضة وهو يوم التحالق.

وكان بعد ذلك أيام دون هذه، منها يوم «النقية» ويوم «الفصيل»، ثم لم يكن بينهما مزاحفة وإنما كانت مغاورات. ودامت الحرب بينهما أربعين سنة، مات في أثنائها الشيوخ، وشاخ الشبان، وشبَّ الولدان، ووُلدت طبقة من الناس لم تكن في الحسبان.

ثم قال مهلهل لقومه: «قد رأيت أن تُبقوا على قومكـــم فإنهم يُحبون صلاحكم، وقد أتت على حربكم أربعون سنة، وما لمتكم علـى مـا كان من طلبكـــم بوتركم. فلو مـرت هـذه السـنون في رفـاهيـــة عـيش لـكـانت تُملُّ من طولها، فكيف وقد فني الحيان وثُكِلت الأمهات ويُتِّم الأولاد؟.. ورُبَّ نـائحـة لا تـزال تصرخ في النـواحي، ودموع لا ترقأ، وأجساد لا تُدفن، وسيوف مشـــهـورة، ورمـاح مشــرّعــة، وإن الـقـوم سيرجعون إليكم غداً بمودتهم ومواصلتهم،

---
(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١١٠ - ١١١.

وتتعطف الأرحام حتى تتواصوا. أما أنا فما تطيب نفسي أن أقيم فيكم، ولا أستطيع أن أنظر إلى قاتل كليب، وأخاف أن أحملكم على الاستئصال، وأنا سائر عنكم إلى اليمن».

وفارقهم وسار إلى اليمن، قضى فيها حيناً ثم عاد إلى ديار قومه، فأخذه عمرو بن ضبيعة البكري أسيراً بنواحي هجر، فأحسن أسره وأفرد له بيتاً. فمرّ عليه تاجر يبيع الخمر قَدِم بها من هجر، وكان صديقاً لمهلهل، فأهدى إليه وهو أسير زقاً من خمر، فاجتمع إليه بنو مالك فنحروا عنده ناقة وشربوا معه في بيته. فلما أخذ فيهم الشراب، تغنّى مهلهل بما كان يقوله من الشعر وينوح على أخيه كليب، فسمع منه عمرو ذلك فقال: «إنه لريان، والله لا يشرب ماء حتى يشرب زبيب»، وزبيب فحل كان له لا يشرب إلا مرة كلّ خمسة أيام في حمّارة القيظ، فمات مهلهل عطشاً. وكان لوصية مهلهل تأثير على ربيعة، لأنهم قلما تحاربوا فيما بينهم بعد ذلك، وإنما كانت وقائعهم مع مضر كما تقدم، إلا واقعة جرت بقرب الفرات عُرفت بيوم «الفرات» قبيل الإسلام بين شيبان وتغلب، وفاز بنو شيبان».

الدروس المستقاة:

أ - تكبّر كليب وائل ودخله زهوٌ كبير فتحدّاه شقيق زوجته جسّاس مرّة بسبب رعي ناقة في أرض يحميها كليب، فقتل كليب الناقة فقتله جسّاس. وكان كليب مقدم بني وائل، لذلك نشبت «حرب البسوس» بين بكر وتغلب ودامت أربعين سنة.

أما طلبات المهلهل من مرّة والد جسّاس فكانت إمّا إحياء كليب أو تسليم جساس ليقتله أو تسليم نفسه وفاءً لدم كليب.

وتعكس أسباب هذه الحرب وطلبات المهلهل العقلية القَبَلية التي سادت شبه الجزيرة العربية في الجاهلية، والتي سبق وتكلّمنا عنها في هذا الجزء من الموسوعة. فطلباته لا يمكن للعقلية القبلية أن تقبل بها، كما أنّ شنّ حرب طويلة بسبب الخلاف على رعي ناقة في أملاك نسيب لا يمكن فهمها، إلاّ إذا عدنا بتفكيرنا إلى زمن الجاهلية حين كانت الحروب تقع لأسباب نعتبرها حالياً واهية.

ب - لاحظنا عند قراءة أحداث حرب البسوس أنّ المهلهل أسف لمقتل همام بن

مُرّة أخي جساس كونه كان صديقه. فحرب البسوس وقعت بين أنسباء وأصدقاء منعت العقلية القبلية عن تسوية خلافاتها إلاّ بالقتال. فالمجتمع الجاهلي لم يكن يقبل تراجع المقاتل عن الأخذ بالثأر مهما كان سبب هذا التراجع، أمّا المقاتل الذي لا يأخذ بالثأر، فكانت ترذله قبيلته قبل القبائل الأخرى.

حالياً، تغيّرت أسباب شنّ الحروب فأصبحت تلاحق المصالح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعقائدية للدول، وابتعدت عن الناحية الشخصية أو العائلية تمشياً مع المبدأ البريطاني الذي ينصّ على أنه «ليس لبريطانيا أعداء دائمون ولا أصدقاء دائمون، إنما لها مصالح دائمة». فمصالح الدول هي التي تحدّد حالياً مجرى الحروب والتحالفات التي تعقد خلالها. والحربان العالميتان الأولى والثانية مثال رائع عن تطبيق هذا المبدأ.

ج - يعكس قول المهلهل لقومه مدى تأثير علاقات الصداقة في مجرى الحروب في الجاهلية، وذلك قبل أن يفارقهم إلى اليمن. فقد قال لهم: «... وإن القوم سيرجعون إليكم غداً بمودتهم ومواصلتها، وتتعطّف الأرحام حتى تتواصوا...».

٧ - يوم عين أباغ

هو بين المنذر بن ماء السماء ملك اللخميين والحارث الغساني[١].

وسبب ذلك أنّ المنذر ملك اللخميين سار من الحيرة في معد كلّها حتى نزل بعين أباغ، وأرسل إلى الحارث ملك العرب الغساسنة بالشام: «إمّا أن تعطيني الفدية فأنصرف عنك بجنودي، وإما أن تأذن بحرب».

فأرسل إليه الحارث: «انظرنا ننظر في أمرنا». فجمع عساكره وسار نحو المنذر، وأرسل إليه يقول له: «إنا شيخان فلا تهلك جنودي وجنودك ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك فمن قتل خرج عوضه آخر وإذا فني أولادنا خرجت أنا إليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك»، فتعاهدا على ذلك. فعمد المنذر إلى رجل

(١) وهو الذي طلب دروع امرىء القيس من السموْال وقتل ابنه.

من شجعان أصحابه فأمره أن يخرج فيقف بين الصفين ويظهر أنه ابن المنذر فلما خرج أخرج إليه الحارث ابنه أبا كرب فلمّا رآه رجع إلى أبيه، وقال: إنّ هذا ليس بابن المنذر إنما هو عبده أو بعض شجعان أصحابه.

فقال: يا بني أجزعت من الموت! ما كان الشيخ ليغدر.

فعاد إليه وقاتله فقتله الفارس وألقى رأسه بين يدي المنذر وعاد. فأمر الحارث ابناً له آخر بقتاله، فحصل معه كما حصل مع شقيقه.

فلما رأى ذلك شمّر بن عمرو الحنفي، وكانت أمه غسانية وهو مع المنذر، قال: «أيها الملك إن الغدر ليس من شِيَم الملوك ولا الكرام، وقد غدرت بابن عمّك دفعتين». فغضب المنذر وأمر بإخراجه فلحق بعسكر الحارث فأخبره، فقال له: «سل حاجتك».

فقال له: «حلتك وخلتك». فلمّا كان الغد عبّأ الحارث أصحابه وحرضهم، وكان في أربعين ألفاً، واصطفوا للقتال فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ فقُتل المنذر وهُزِمت جيوشه فأمر الحارث بابنيه القتيلين فحُملا على بعير بمنزلة العدلين.

وسار إلى الحيرة فنهبها وأحرقها ودفن ابنيه بها وبنى الغريين عليهما.

التقييم:

أ - رغم غدر المنذر وخداعه، بعد أن اتّفق مع الحارث على أن يتبارز إبنان لهما فأرسل المنذر أحد مقاتليه بدلاً من ابنه، ورغم معرفة الحارث بهذه الحقيقة، فقد تابع تنفيذ ما اتفق عليه الملكان.

ولمّا لم يكن الخداع من عادات الملوك العرب في الجاهلية، فإن أحد قادة جيش المنذر اعترض على تصرّفه، الأمر الذي أدى إلى إخراجه من الجيش والتحاقه بجيش الحارث الذي انتصر في المعركة وقتل غريمه وسار إلى عاصمته الحيرة فنهبها وأحرقها.

ب - ومن يطّلع على عادات عرب ما قبل الإسلام وتقاليدهم يستغرب تصرّف الملك اللخمي. فالحرب خدعة، إنما ليست خيانة. ويمكن خداع العدو، إنما لا يمكن عدم التقيّد بالاتفاقات المعقودة لأنّ ذلك يعدّ خروجاً على الأصول الديبلوماسية والتقاليد الدولية.

٨ – يوم مرج حليمة ومقتل المنذر بن المنذر بن ماء السماء

ولّما قتل المنذر بن ماء السماء ملك ابنه المنذر الذي لقب بـ«الأسود». فلمّا ثبت حكمه جمع جيوشه وقصد الحارث الأعرج للأخذ بثأر أبيه، فنزل في مرج حليمة الذي غادره من كان ينزل فيه من غسان.

قصد الحارث أيضاً المرج ونزله وأمر أهل القرى فيه أن يحضّروا الطعام لجنوده، ففعلوا ذلك ووضعوا الطعام في المعسكر، فكان الرجل يقاتل، ثمّ يعود إلى المعسكر فيتناول الطعام قبل أن يعود إلى ميدان القتال.

دامت الحرب بين الفريقين أياماً، وكانت سجالاً. فلما رأى الحارث ذلك، جلس في قصره ودعا ابنته هنداً وأمرها بأن تتطيب، ثمّ نادى: «يا فتيان غسان، من قتل ملك الحيرة زوّجته ابنتي هند».

فقال لبيد بن عمر الغساني لأبيه: «أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتول دونه لا محالة، ولست أرضى فرسي، فأعْطِنِي فرسك الزيتية». أعطاه والده فرسه، فلمّا بدأ القتال هاجم لبيد الأسود وضربه ضربة قوية فالقاه عن فرسه وقتله وقطع رأسه، فانهزم أصحابه في كلّ وجه. أقبل لبيد بالرأس وألقى به بين يدي الحارث الذي كان يراقب المعركة من قصره، فقال للبيد: «شأنك بابنة عمّك، فقد زوّجتكما».[1]

- **الدروس المستقاة:**

أ – أحسن الحارث الغساني في تأمين الطعام لمقاتليه في منطقة يتبع سكانها لمملكته. فتأمين اللوجستية للجيش الذي يقاتل اعتُبِر خلال العصور التاريخية ضرورياً لمتابعة العمليات الحربية.

حالياً تعدّدت الحاجات اللوجستية للجيوش، من التغذية إلى الذخيرة والأعتدة والألبسة وغيرها. لذلك برز قول عسكري مأثور يقول: «إذا قالت اللوجستية لا، فعلى القائد تغيير مخطّطه العملاني»، لأن الجيوش بحاجة إلى التموين لمتابعة القتال.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٢٨.

ولنا في التاريخ العسكري أمثلة عديدة تظهر أهمية التموين اللوجستي في مجرى القتال. فعلى سبيل المثال، وخلال معركة ستالنغراد(١)، تمكّنت الجيوش الروسية من محاصرة مجموعة جيوش ڤون باوليس الألمانية، فتابعت المانيا تزويد هذه المجموعة لوجستياً عبر الجو بواسطة طائرات الشحن التي حُضّر لها مدرج للهبوط داخل الطوق.

قام الجيش الروسي بعملية تضييق الطوق تدريجياً وفق المبادىء الاستراتيجية المعروفة، فأصبح التموين اللوجستي ينقل بالطائرات ويرمى بالمظلات إلى داخل الطوق.

وتابع الروس تضييق الطوق، الأمر الذي منع الجيش الألماني من تأمين التموين اللوجستي لجيوشه المحاصرة بسبب ضيق البقعة التي كان ما يزال محاصراً بداخلها. وهكذا قُطِعت التغذية والذخيرة وقطع البدل وغيرها من الحاجات الضرورية كلّياً عن هذه الجيوش، ممّا دفع بقائدها الجنرال ڤون باوليس إلى الاستسلام للروس من دون شروط، رغم ترقيته إلى رتبة ماريشال وتذكيره من قبل هتلر بأنه لم يسبق أن استسلم للعدو أي ماريشال ألماني عبر تاريخ ألمانيا.

ب - طبّق الحارث الغساني استراتيجية تحفيز مقاتليه من خلال وعد من يقتل خصمه بتزويجه ابنته. وأعطت هذه الاستراتيجية نتيجة إيجابية إذ قام لبيد بن عمرو الغساني بالمهمّة على أفضل وجه.

ونحن نرى أنَّ قوّة الحوافز النفسية للجند هي من العوامل الرئيسية للنصر في المعارك. لذلك تجهد القيادات العسكرية في خلق الأجواء المناسبة للجند لرفع معنوياتهم ودفعهم إلى بذل أقصى الجهد في القتال، وذلك بهدف تحقيق مبدأ الحرب الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل». وهذه الحوافز قد تكون مادية أو معنوية، كالوعد الذي أطلقه الملك الغساني بتزويج ابنته ممن يقتل غريمه.

(١) جرت معركة ستالنغراد بين الجيوش الألمانية والجيوش الروسية خلال الحرب العالمية الثانية في إطار الهجوم الألماني على روسيا حين صمدت ستالنغراد في وجه هذه الجيوش فحصلت معركة طويلة غيرت مجرى الحرب.

٩ – يوم أوارة الأول

هو يوم كان بين المنذر بن امرىء القيس وبين بكر بن وائل، وكان سببه أن تغلب لمّا أخرجت سلمة بن الحارث عنها التجأ إلى بكر بن وائل. فلمّا صار عند بكر أذعنت له، وحشدت عليه وقالوا لا يملكنا غيرك. فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى طاعته فأبوا ذلك فحلف المنذر ليسيرنّ إليهم، فإن ظفر بهم فليذبحنّهم على قلّة جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض. وسار إليهم في جموعه فالتقوا بأوارة فاقتتلوا قتالاً شديداً وانجلت الواقعة عن هزيمة بكر، وأسر يزيد بن شرحبيل الكندي فأمر المنذر بقتله فقتل. وقتل في المعركة كثيرون، وأسر المنذر من بكر أسرى كثيرين أمر بذبحهم على جبل أوارة.

١٠ – يوم أوارة الثاني

كان عمرو بن المنذر اللخمي قد ترك ابناً له اسمه أسعد عند زرارة بن عدس التميمي. فلمّا ترعرع مرّت به ناقة سمينة فعبث بها فرمى ضرعها فشدّ عليه صاحبها سويد، أحد بني عبدالله بن دارم التميمي، فقتله، وهرب فلحق بمكّة فحالف قريشاً. وكان عمرو بن المنذر غزا قبل ذلك ومعه زرارة فأخفق. فلمّا كان حيال جبلي طيء قال له زرارة: «أي ملك إذا غزا لم يرجع ولم يصب، فمل على طيء فإنك بحيالها». فمال إليهم فأَسر وقتل وغَنِم فكانت في صدور طيء على زرارة.

لكن زرارة لم يلبث أن مرض وتوفي، فلمّا بلغ عمرو بن المنذر وفاة زرارة غزا بني دارم، وقد كان حلف أن يقتل منهم مائة. فسار حتى بلغ أوارة وبث سراياه، فيهم فأتوه فقتل منهم مائة.

١١ – الوقائع بين قبائل مُضَر

تفوق الوقائع بين القبائل المضرية تلك التي وقعت بين قبائل ربيعة ومضر، وأبرز القبائل التي شاركت فيها هي عبس وهوازن وذبيان وعامر بن صعصعة وأسد وغطفان وقيس عيلان وكنانة وقريش.

أ - يوم الرحرحان:

عاصر زهير بن قيس العبسي، سيّد قيس عيلان، في أوائل القرن الخامس الميلادي، النعمان بن امرئ القيس المتوفّي السنة ٤٣١م وجد النعمان بن المنذر. وكان زهير مطاعاً في قبيلته.

طلب النعمان أن يزوره أحد أبناء زهير فأرسل هذا الأخير ابنه الأصغر «شاساً»، فأكرمه النعمان ومنحه أموالاً وهدايا عاد بها إلى والده. إنما، وأثناء عودته، بلغ ماءً من مياه غني بن أعصر، فقتله عليها رباح بن الأشل الغنوي وأخذ ما معه وهو لا يعرفه.

علم زهير بالأمر فراح يُغِير على بني غني ويقتل أبناءهم. وكان هؤلاء حلفاء بني عامر بن صعصعة[١] الذين وقفوا إلى جانبهم في هذا الصراع، فوقعت الحرب بين عبس وهوازن.

وعندما سار زهير مع أهل بيته إلى عكاظ كجاري عادته في الشهر الحرام، التقى خالداً بن جعفر سيد هوازن فجرى نقاش بينهما كالآتي[٢]:

- خالد: «لقد طال شرّنا منك يا زهير».
- زهير: «أما والله ما دامت لي قوّة أدرك بها ثأراً فلا انصرام له».

ثمّ عاد زهير وخالد إلى قوميهما، وانتدب كلّ منهما رجاله للقتال، فسار زهير ونزل على أطراف بلاد هوازن رغم نصيحة ابنه قيس[٣] بالابتعاد عن أرض خصمه خوفاً من غدر غريمه.

وكان خالد يتجسّس أخبار عدوّه، فعلم بمكان زهير فقصده في رجاله فالتقيا واقتتلا طويلاً في معركة قتل خلالها زهير[٤].

أكمل زيدان رواية الأحداث فكتب[٥]:

«وحمل بنو زهير أباهم إلى بلادهم وخالد يعلم أن زهيراً سيد غطفان وعبس وذبيان، فخاف أن تطلبه فسار إلى النعمان بالحيرة فاستجاره فأجاره وضرب له قبة. أما

(١) عامر بن صعصعة من هوازن.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١١٥.

(٣) قيس بن زهير هو صاحب حرب داحس والغبراء.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٤٢.

(٥) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٣٣.

أبناء زهير فجمعوا لهوازن، فقال الحارث بن ظالم المري: «أكفوني حرب هوازن فأكفيكم خالد بن جعفر». وسار الحارث إلى النعمان فدخل عليه وعنده خالد وهما يأكلان تمراً، فأقبل النعمان على الحارث يسأله فحسده خالد فقال للنعمان: «أبيت اللعن، هذا رجل لي عنده يد عظيمة. قتلت زهيراً وهو سيد غطفان فصار هو سيدها»، فقال الحارث: «سأجزيك على يدك عندي». وجعل الحارث يتناول التمر ليأكله فيقع من بين أصابعه من الغضب. وكان عُروة أخو خالد حاضراً، فقال لأخيه: «ما أردت بكلامه وقد عرفته فتاكاً؟»، فقال خالد: «وما يخوّفني منه؟.. فواللّه لو رآني نائماً ما أيقظني». ثم خرج خالد وأخوه إلى قبتهما فشرجاها عليهما، ونام خالد وعُروة عند رأسه يحرسه. فلما أظلم الليل، انطلق الحارث إلى خالد فقطع شرج القبة ودخلها وقال لعروة: «لئن تكلمت قتلتك». ثم أيقظ خالداً، فلما استيقظ قال: «أتعرفني؟» قال: «أنت الحارث»، قال: «خذ جزاء يدك عندي»، وضربه بسيفه فقتله ثم خرج وركب راحلته وسار. وخرج عُروة من القبة يستغيث، حتى أتى باب النعمان فدخل عليه وأخبره الخبر، فبعث الرجال في طلب الحارث. قال الحارث: «فلما سرت قليلاً، خفت أن أكون لم أقتله، فعدت متنكراً واختلطت بالناس ودخلت عليه فضربته بالسيف حتى تيقّنت أنه مقتول، وعدت فلحقت بقومي».

فأصبح الحارث بن ظالم بين طالبين: النعمان يطلبه ليقتله بجاره، وهوازن تطلبه لتقتله بسيِّدها، فاستجار بتميم فأجاروه. فلما علم النعمان بذلك، جهّز جيشاً حمل به على تميم، وأعانهم أهل خالد ببني عامر، وأتى قيس بن زهير في بني عبس وذبيان، فانهزمت بنو عامر وجيش النعمان بعد معركة كبيرة في وادي رحرحان لم يشتف قيس بها.

- **التقييم:**

١ - كما سبق القول، كانت العصبية القبلية تحرّك القبائل العربية لأسباب شتى، منها الذود عن أبنائها، أكانوا معتدين أم مُعْتدى عليهم. وهذه العصبية بقيت متأجّجة في النفوس العربية طوال قرون

عديدة في شبه الجزيرة العربية، كما انتقلت مفاهيمها إلى العصور الإسلامية.

من جهة أخرى، لاحظنا من خلال حادث قتل إبن زهير العبسي، أن البدوي قد يجرّ قبيلته وحلفاءها إلى حروب طويلة يسقط فيها العديد من القتلى والجرحى، إذ إنّ القبيلة تلتزم الدفاع عنه. وكان من الممكن أن تلجأ قبيلة الجاني إلى دفع ديّة القتيل شرط قبول أهله، وقلّما كانوا يوافقون على ذلك.

٢ - لم يقبل زهير نصيحة ابنه قيس بالابتعاد عن أطراف بلاد خصمه، الأمر الذي سمح لهذا الأخير بشنّ هجوم عليه وخوض معركة معه قتل خلالها زهير. لقد أخطأ هذا الأخير في اختيار مكان المعركة الذي يشكّل أحد قواعد الفن العسكري. فمعرفة طبيعة الأرض وتعرّجاتها وخوض القتال في منطقة جغرافية يعرفها المقاتلون، يساهمان في تأمين تطبيق مبدأ الحرب الثاني (حرية العمل)، وبالتالي الاقتراب خطوة نحو النصر. وهذا ما حصل مع قبيلة هوازن التي انتصرت على عبس في منطقة سيطرتها.

ب - حرب داحس والغبراء:

كان سبب حرب داحس والغبراء أنّ قيساً بن زهير سيّد عبس قصد المدينة لشراء الأسلحة والدروع وغيرها من عتاد الحرب لقبيلته تمهيداً لشنّ حرب على بني عامر بن صعصعة للأخذ بثأر أبيه.

وأثناء عودته عرّج على الربيع بن زياد الذي أخذ منه درعاً ورفض إعادتها رغم تردّد الرسل بينهما بشأنها. ورداً على ذلك أغار قيس على إبل للربيع فاستاق منها أربعمائة بعير، وسار بها إلى مكّة حيث باعها واشترى بثمنها مجموعة من الخيول بينها فرسان أسمَاهما داحس والغبراء[1].

بعد ذلك غادر قيس مكّة ونزل ببني بدر، وهم بطن من بطون ذبيان، فأجاروه. وخلال إقامته عندهم جرى رِهَان حول سباق بين فرسي قيس وفرسين من خيل حذيفة سيّد بدر نقل تفاصيله جرجي زيدان الذي كتب[2]:

«ثم إن حذيفة رئيس بدر كره قيساً وأراد إخراجه عنهم، ولم يجد سبباً يستند إليه.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٤٩.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١١٦.

فاتفق خروج قيس للعمرة في مكة، وفي أثناء غيابه تفاخر مالك وحذيفة في الخيل، ثم تراهَنَا على فرسين من خيل قيس وفرسين من خيل حذيفة. ولما عاد قيس وعلم بالرهان كرهه لعلمه أنه سيجر إلى خصام، فركب إلى حذيفة وسأله أن يفك الرهن فلم يفعل، لأنه رآها فرصة للتخلص من قيس وجواره، وقد أضمر أن يغدر به.

فأعدوا معدات السباق بين فرسي قيس - وهما داحس والغبراء - وفرسي حذيفة - وهما الخطار والحنفاء - وقادوا الخيل إلى الغابة، وحشدوا ولبسوا السلاح، وتركوا السباق على يد عقال بن مروان القيسي، وأعدوا الأمناء على إرسال الخيل. وأضمر حذيفة الغدر، فأقام رجلاً من بني أسد في الطريق، وأمره أن يلقى داحساً في وادي ذات الأصاد، فإذا وجده سابقاً فيرمي به في أسفل الوادي. فلما أُرسلت الخيل، سبقها داحس سبقاً بيِّناً، والناس ينظرون إليه وقيس وحذيفة جالسان على رأس الغابة في قومهما. فلما هبط داحس في الوادي، عارضه الأسدي فلطم وجهه فألقاه في الماء فكاد يغرق هو وراكبه، ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل. أما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد إلى الطريق واجتمع مع فرسي حذيفة. ثم سقطت الحنفاء وبقي الغبراء والخطار. وأخيراً جاءت الغبراء سابقة، وبعدها الخطار فرس حذيفة، ثم الحنفاء له أيضاً. ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله، فأخبر الغلام قيساً بما فعله الأسدي، فأنكر حذيفة ذلك وادّعى السبق ظلماً وقال: جاء فرساي متتابعين. ومضى قيس وأصحابه ثم جاء الأسدي واعترف لقيس بما فعله، فغضب حذيفة وزاد التنافر بين الأميرين، وحذيفة يلح بطلب حقه من السبق. وأرسل إبنه إلى قيس في ذلك فطعنه طعنة قتلته، ورجعت فرسه إلى أبيه، ونادى قيس: «يا بنيَّ الرحيل!» فرحلوا.

أما حذيفة، فلما أتته فرس إبنه وحدها علم أن ولده قُتل، فصاح في الناس وركب فيمن معه وأتى بني عبس، فرآها خالية ورأى إبنه قتيلاً فنزل إليه وقبّله بين عينيه ودفنوه.

وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوجاً في فزارة ونازلاً فيهم، فأرسل إليه قيس

يستنجده فأجابه: «إنما ذنب قيس عليه» ولم يرحل إليه. فأرسل قيس إلى الربيع بن زياد يطلب منه العود إليه ويمت إليه بالعشيرة والقرابة فلم يجبه. ثم إن بني بدر قتلوا مالكاً بن زهير أخا قيس، وكان نازلاً فيهم فبلغ خبره بني عبس، وعظم عليهم الأمر وأسف الربيع أيضاً لموته، وكان ذلك سبباً في مصالحته قيساً فتعانقا وبكيا، واجتمع العبسيون يرثون مالكاً وفيهم عنترة.

وبلغ حذيفة أن قيساً والربيع اتفقا، فشق ذلك واستعد للبلاء، فجمع قومه من فزارة وتعاقدوا على عبس، وجمع قيس والربيع قومهما واستعدوا للحرب».

١ - الوقائع:

أغارت فزارة على بني عبس فالتقوا على ماء يقال لها العذق في أوّل وقعة كانت بينهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت فزارة وقتل عدد كبير من أبنائها وأسر حذيفة بن ندبة[1].

ثمّ اجتمعت غطفان وسعوا في الصلح فاصطلح القوم على أن يهدروا دم بدر بن حذيفة بدم مالك بن زهير، مع شروط أخرى. لكن الصلح لم يُعْقَد، بل أغار حذيفة، بعد إطلاق سراحه، على عبس وأغارت عبس على فزارة، وتفاقم الشر فانهزمت فزارة مجدداً[2].

ثمّ اقتتلوا في وقعات عدّة إحداها على ماء «العقيقة» وأخرى على ماء يقال لها «عراعر» حيث انتصرت فزارة هذه المرّة.

ثمّ قام حذيفة بجمع الجموع من أسد وذبيان وسائر بطون غطفان وسار نحو بني عبس، فاجتمعت عبس وتشاوروا في أمرهم، فقال لهم قيس بن زهير: «إنه قد جاءكم ما لا قِبَلَ لكم به، وليس لبني بدر إلاّ دماؤكم والزيادة عليكم، وأما من سواهم فلا يريدون غير الأموال والغنيمة. والرأي أننا نترك الأموال بمكانها ونترك معها فارسين على داحس وعلى فرس آخر جواد، ونرحل نحن ونكون على مرحلة من المال. فإذا جاء القوم

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٣، ص ٦٣٢.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء٢٩، ص ١١٩.

إلى الأموال سار إلينا الفارسان، فأعلمانا عن وصولهم، فإن القوم يشتغلون بالنهب وحيازة الأموال. وإن نهاهم ذوو الرأي عن ذلك، فإن العامة تخالفهم وتنتقض تبعيتهم، ويشتغل كلّ إنسان بحفظ ما غنم. ويعلقون أسلحتهم على ظهور الإبل ويأمنون. فنعود نحن إليهم عند وصول الفارسين فندركهم، وهم على حال تفرّق وتشتّت فلا يكون لأحدهم همّة إلاّ نفسه»[١]، ففعلوا ذلك. وجاء حذيفة ومن معه فاشتغلوا بالنهب فنهاهم حذيفة وغيره فلم يقبلوا منه، وكانوا على الحال التي وصفها قيس. وعادت بنو عبس، وقد تفرّقت أسد وغيرهم، وبقي بنو فزارة في آخر الناس، فحملوا عليهم من جوانبهم، فقتل مالك بن سبيع التغلبي سيّد غطفان، وانهزمت فزارة وحذيفة معهم. وكان عدد من قتل في هذه الوقعة من فزارة وأسد وغطفان ما يزيد على أربعمائة قتيل، وقتل من عبس ما يزيد على عشرين قتيلاً.

بعد ذلك قام سنّان بن أبي حارثة بجمع العرب من بني بدر وفزارة، فاجتمع إليه خلق كثير ساروا مع ذبيان حتى لحقوا ببني عبس على «ذات الجراجر» فاقتتلوا قتالاً شديداً قبل أن يفترقوا[٢].

ثمّ قاتلت عبس بني شيبان وبني هجر فهزمتهم وأخذت من أموال هجر الكثير. ونقل ابن الأثير أخبار معارك أخرى لعبس، فكتب الآتي[٣]:

«ورجعوا سائرين فنزلوا بماء يقال له «عرعر» عليه حيّ من كلب، فركبوا ليقاتلوا بني عبس، فبرز الربيع وطلب رئيسهم فبرز إليه واسمه مسعود بن مصاد فاقتتلا حتى سقطا إلى الأرض. وأراد مسعود قتل الربيع فانحسرت البيضة عن رقبته، فرماه رجل من بني عبس بسهم فقتله، فثار به الربيع فقطع رأسه. وحملت عبس على كلب والرأس على رمح فانهزمت كلب وغنمت عبس أموالهم وذراريهم، فساروا إلى اليمامة فحالفوا

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٥٦ – ٤٥٧.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء٢٩، ص ١١٩.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٦٠ – ٤٦١.

أهلها من بني حنيفة. وأقاموا ثلاث سنين فلم يحسنوا جوارهم وضيّقوا عليهم فساروا عنهم وقد تفرّق منهم وقُتِل منهم وهلكت دوابهم، ووترهم العرب فراسلتهم بنو ضبة وعرضوا عليهم المقام عندهم ليستعينوا بهم على حرب تميم ففعلوا وجاوروهم».

وقاتلت عبس ضبّة وتميماً فظفرت بهم، وقاتلت تيم الرباب قتالاً شديداً انتصرت فيه أيضاً.

وبعد أن ملّت عبس الحرب وقلت فيهم الرجال والأموال وهلكت المواشي، قرّر رؤساؤها العودة إلى إخوانهم من ذبيان، فساروا حتى قدموا إلى الحارث بن عوف الذي رحّب بهم.

وهكذا انتهت حرب داحس والغبراء إلى الصلح.

- **التقييم:**

أ - يتساءل المراقب: هل من الممكن أن تُشنّ حرب بين مجموعتي قبائل بدوية بسبب سباق بين فرسين، وأن تدوم طويلاً؟

هذا ما حصل في حرب داحس والغبراء التي لا يمكن تفسير حصولها إلاّ إذا تعمّق الباحث في دراسة المجتمع العربي الجاهلي الذي سبق وأوردنا تفاصيل مهمّة عن مفاهيمه للشرف والقربى والثأر والحرب وغيرها.

فمن العوامل التي أدّت إلى قيام الحرب أن قيساً بن زهير سيّد عبس قصد المدينة المنوّرة لشراء الأسلحة والدروع للأخذ بثأر أبيه. تلا ذلك سلبه درعاً وإغارته على إبل للذي سلبه إياه ومصادرته أربعمائة بعير، وكلّها عادات قبلية جاهلية تراجعت مع ظهور الإسلام.

ب - أضمر حذيفة بن بدر الشرّ لقيس بن زهير بهدف التخلّص منه بعد أن أجاره، رغم أن الغدر بالمُجار لم يكن من شِيَم زعماء القبائل العربية الذين كانوا يتميّزون بالشهامة والإيثار وحسن الضيافة وحسن الجوار وغيرها من طرق التعامل مع الآخرين. تلا ذلك قتل ابن حذيفة على يد قيس.

ج - عندما قصدت بطون غطفان بني عبس في جمع كبير أحسن قيس سيد عبس تقدير الموقف العسكري، إذ أنه، وتطبيقاً لمبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل)،

رأى أن ميزان القوى يميل بصورة واضحة إلى جانب خصومه. لذلك عمد إلى خدعة قتالية إذ ترك غنائم قبيلته وأموالها في مكان مكشوف من دون حماية، بعد أن أمّن مراقبة المكان لإبلاغه بما يجري. والهدف من هذا التدبير دفع مقاتلي بدر للإنصراف إلى النهب والسلب، ومن ثمّ مهاجمتهم والقضاء عليهم. وهذا ما حصل.

عوّض قيس عن إخلاله بميزان القوى بتطبيقه مبدأي الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل)، إذ أنّ المبادرة أصبحت بيده بعد أن انصرف مقاتلو خصمه إلى السلب والنهب. لقد أحسن استخدام مقاتليه، إذ احتفظ بهم احتياطاً مجتمعاً، وكلّف فارسين فقط بالمراقبة والإبلاغ، مطبقاً قاعدة «الاقتصاد بالقوى». كما شنّ قيس هجوماً صاعقاً ومفاجئاً على بدر، مطبّقاً قواعد الحشد والحدّة والاستمرارية فانتصر عليها.

د - سيتكرّر حادث انصراف المقاتلين العرب عن القتال للاهتمام بالغنائم خلال عصور تاريخهم الطويل، الأمر الذي سيعرّضهم لهزائم عديدة، سنذكرها تباعاً في أجزاء هذه الموسوعة. وأفضل مثال على تأثير الغنائم في مجرى المعركة سنلمسه عند دراسة معركة بلاط الشهداء التي وقعت في منطقة بواتييه (فرنسا) بين القائد العربي عبد الرحمن الغافقي والقائد الفرنجي شارل مارتيل، والتي خسرها العرب بسبب انصراف مقاتليهم عن ميدان القتال إلى معسكر الغنائم لحمايتها بعد أن هاجمتها فرقة فرنجية.(١)

هـ - برز خلال حرب داحس والغبراء مقاتل عربي تجسّدت فيه صفات الشجاعة والإقدام والبأس والصبر وإتقان فنون القتال والشعر، هو عنترة بن شدّاد، الذي أصبح مثالاً يُحْتَذى لأبطال العرب. لذلك أوردنا سيرته في معرض الحديث عن هذه الحرب.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن معركة «بلاط الشهداء»، مراجعة الجزء ٧ من هذه الموسوعة.

ملحق رقم ٦

سيرة عنترة بن شداد

هو عنترة بن شدّاد، من مخزوم من قبيلة عبس. أمّا أمّه فكانت أمَة حبشية الأصل اسمها زبيبة، سباها أبوه في إحدى الغارات فاستولدها عنترة، فأتى أسود اللون، مشقوق الشفة السفلى ولذلك قيل له: «عنترة الفلحاء». وكان يُكنّى «بأبي المُغلّس» ومعناه السائر في الظلام، إشارة إلى سواد لونه، كما عُدّ من «أغربة العرب» للسبب عينه. وقد وُلد في حدود عام ٥٢٥.

نشأ عنترة عبداً يرعى إبل أبيه، لما كان من عادة العرب في استعباد أولاد الإماء، فإذا أنجبوا ادّعاهم آباؤهم وألحقوهم بنَسَبِهم. وهذا ما كان من شأن عنترة، وملخّصه أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس فاستاقوا إبلهم، فتبعهم العبسيون ليستنقذوا أموالهم. فقال شدّاد لابنه: «كرّ يا عنترة»، فكرَّ وقاتل قتالاً شديداً، فادعاه أبوه وألحقه بنسبه.

وقد بقي عُرضةً لتهكُّم أبناء القبيلة بسبب سواد لونه. فكانوا، بالرغم من مآتيه، يحاولون الحط من شأنه. فقد هرب العبسيون يوماً أمام بني تميم؛ وثبت عنترة ودافع عن قومه، فقال أحد أسياد عبس وهو قيس بن زهير: «والله ما حمى الناس إلاّ ابن السوداء».

وحياة عنترة سلسلة من الأعمال المجيدة، وقد أمضى حياته على ظهر جواده يغزو جيرانه من طيء وغطفان وفزاره، ويشارك في معارك حرب داحس والغبراء.

وأضاف إلى أعماله المجيدة حبّه لابنة عمّه عبلة والذي ذاع بين الناس، على اختلاف اللون بينهما.

عاش عنترة طويلاً، وتوفي في حدود سنة ٦١٥، وقد مات قتلاً، إنما تختلف الروايات حول كيفية مقتله. وتتفق أكثر الآراء على أن عنترة أغار على بني طيء، وكان قد أصبح شيخاً، وبينما كان في طريق العودة كَمَنَ له وِزْر بن جابر النبهاني الملقّب بالأسد الرهيص ورماه فأصاب منه مقتلاً. فتحامل عنترة حتى وصل أهله ومات بينهم. ولم يؤخذ بثأر شاعرنا لأن قاتله عاش إلى ما بعد هجرة الرسول وكان أحد الموفدين من قبل الطائيين إلى النبيّ ﷺ.

وغدت شجاعة عنترة مضرب المثل في الجاهلية والإسلام. فقد خاض المعارك واقتحم الجموع وقتل الأبطال وأخذ الثارات. ونسج القصاصون حوله أخباراً أصبحت ضمن مؤلّف دعي: «سيرة عنترة».

ج - حرب الفجار بين قريش وكنانة وقيس عيلان:[1]

حرب الفجار هي واقعتان، أو يومان، كانت أولاهما بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان. والسبب أن رجلاً من كنانة كان عليه دَيْن لرجل من بني نصر من هوازن (من قيس عيلان)، فافتقر الكناني، فجاء النصري سوق عكاظ بقرد وعرضه قائلاً: «من يبتغي مثل هذا بما لي على فلان الكناني؟». فعل ذلك تعييراً للرجل وقومه.

ومرّ في هذا الوقت رجل من كنانة، فضرب القرد بالسيف وقتله، فصرخ كلّ من الرجلين بقومهما فاجتمع الناس وتحاجّوا وكاد القتال أن يقع بينهما، ثمّ اصطلحوا.

ونقلت روايات أخرى عن سبب الخلاف في اليوم الأول لحرب الفجار.

أما يوم الفجار الثاني فكان بعد عام الفيل بعشرين سنة، أي في السنة ٥٩٠ ميلادية، واعتُبِر من أشهر وأعظم أيام العرب. وسمي «الفجار» بسبب ارتكاب كنانة وقيس الكثير من المحرّمات خلاله. نقل جرجي زيدان رواية عن سبب الوقعة، فكتب:[2]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٦٧ - ٤٧٢.
- جرجي زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١١٩ - ١٢١.

(٢) زيدان، المرجع نفسه، ص ١٢٠.

«وسببه أن البراض الكناني كان رجلاً فاتكاً خليعاً قد خلعه قومه لكثرة شرّه، فخرج حتى قدم على النعمان بن المنذر أبي قابوس، وكان النعمان يبعث كلّ عام بلطيمة تُباع له في عكاظ أو ذي المجاز أو غيرهما من أسواق العرب بالمواسم. فقال النعمان: «من يجيز لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ؟» فقال البراض: «أبيت اللعن، أنا أجيزها على كنانة». فقال النعمان: «إنما أريد من يجيزها على كنانة وقيس». وكان عروة بن عتيبة الكلابي (من قيس عيلان) حاضراً، فقال: «أكلب خليع يجيزها لك؟.. أَبَيْتَ اللعن أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد». فغضب البراض وقال: «وعلى كنانة تجيزها يا عُروة؟»، فقال عُروة: «وعلى الناس كلّهم». فدفع النعمان اللطيمة إلى عروة وسار بها، وخرج البراض يتبع أثره وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه. ولكن البراض غدره بضربة بالسيف فقتله، فلما رآه رجاله قتيلاً انهزموا فاستاق البراض العير إلى خيبر، وبعث رسولاً مستعجلاً إلى حرب بن أمية في عكاظ - وهو كبير قريش يومئذ - يُخبره أنه قتل عُروة فليَحْذَر قيساً. فنشر حرب بن أمية الخبر بين أشراف قريش - ومنهم عبد اللّه بن جدعان وهشام بن المغيرة والد أبي جهل - واجتمعوا وتشاوروا وقالوا: «نخشى أن تطلب قريش بثأر قتيلها ولا ترضى أن يُقتل البراض به لأنه خليع». واتفق رأيهم أن يخاطبوا عامر بن مالك سيد قيس بذلك، فأتوه وقالوا له ذلك فأجاز بين الناس وأعلم قومه ما قيل له وأوشكوا أن يصطلحوا».

في هذا الوقت كان قوم من قريش في عكاظ فبلغهم ما فعله البراض، فتوجّهوا إلى مكّة لنصرة قومهم. فلمّا علم رئيس قيس بذلك اعتبر أن قريشاً غدرت، فسار في طلبهم حتى أدركهم في موضع يقال له «نخلة» فجرى قتال بين الفريقين كادت نتيجته أن تكون لمصلحة قيس، فلجأت قريش إلى الحرم واحتمت به. تراجعت قيس عن القتال احتراماً للحرم، لكنها هدّدت باللجوء إلى القتال خلال عقد سوق عكاظ في السنة المقبلة، وذلك بهدف المطالبة بدم عروة(١).

(١) قيل إن النبيّ محمّد ﷺ حضر القتال في يوم الفجار الثاني، وعمره عشرون سنة. لكن الزهري نفى ذلك وقال: لم يكن معهم، ولو كان معهم لما انهزموا.

ثمّ جمعت قيس مقاتليها ومعها ثقيف وغيرها من القبائل، واستنفرت قريش جموعها بما فيهم كنانة والأحابيش وأسد بن خزيمة ووزّعت السلاح عليهم وخرجت في الموعد المحدّد.

سبقت قيس قريشاً إلى عكاظ فلحقتها قريش فوقع قتال عنيف بينهما، كان الظفر في بدايته لقيس فانهزم كثير من بني كنانة وقريش. وثبت في ساحة القتال حرب بن أمية وبنو عبد مناف وسائر قبائل قريش. لذلك، عندما انتصف النهار، بدأت ملامح النصر تميل إلى جانب قريش التي أكثر مقاتلوها القتل في قيس. واشتدّ القتال، وقيل إنّه قتل يومذاك تحت راية بني الحرث بن عبد مناف بن كنانة مائة رجل، وهم صابرون.

أخيراً، هُزمت قيس، فيما صمد بنو نصر وجشم وسعد بن بكر وفهم وعدوات الذين قاتلوا أشدّ قتال عرفته الجاهلية، الأمر الذي أعاد ميزان القوى إلى التعادل بين الفريقين اللذين تداعيا إلى الصلح فاصطلحوا.

كتب ابن الأثير عن نهاية القتال والصلح بين الفريقين ما يأتي[1]:

«ثمّ إنّهم تداعوا إلى الصلح فاصطلحوا على أن يعدّوا القتلى فأيّ الفريقين فضل له قتلى أخذ ديتهم من الفريق الآخر. فتعادّوا القتلى فوجدوا قريشاً وبني كنانة قد أفضلوا على قيس عشرين رجلاً فرهن حرب بن أمية يومئذ ابنه أبا سفيان في ديات القوم حتى يؤدّيها، ورهن غيره من الرؤساء. وانصرف الناس بعضهم عن بعض ووضعوا الحرب وهدموا ما بينهم من العداوة والشر وتعاهدوا على أن لا يؤذي بعضهم بعضاً فيما كان من أمر البرّاض وعروة».

التقييم:

١ - مع دراسة أسباب حرب الفجار نُعيد التأكيد أن العقلية القبلية كانت المحرّك الرئيسي للعمليات العسكرية للقبائل العربية في الجاهلية، إذ أن خليعاً جرّ قبيلته إلى حرب طويلة ودامية وقع فيها العديد من القتلى والجرحى وعطلت موسم التجارة في سوق عكاظ.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٧٢.

وحضر النبيّ ﷺ هذه الحرب فأثّرت فيه كثيراً إذ اعتبرها قتالاً بين الفريق العربي الواحد، فعمل على إبدال العصبية القبلية بمفهوم الانتماء إلى الأمة الإسلامية، موحِّداً القبائل العربية في بوتقة واحدة تصبّ جهودها الحربية مجتمعة في مهمّة نشر الدين الإسلامي ونصرة العرب والجهاد في سبيل الله. وهذا ما سنلمسه في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة.

٢ - نلاحظ أيضاً أن وسائل الاتصال لم تكن مؤمّنة بين أفخاذ القبائل. لذلك ورغم توقيع الصلح بين الخصمين، تحرّكت قوّة من قريش إلى مكّة لنصرة قومها، الأمر الذي اعتبره سيد قيس غدراً بقبيلته، فعاد القتال مجدداً.

هذا الخلل الاستراتيجي عملت القيادات العسكرية الإسلامية لاحقاً إلى معالجته في حروبها الهادفة إلى فتح مناطق العراق وبلاد الشام وغيرهما، من خلال اعتماد نظام البريد السريع وإقامة الخانات على الطرق العسكرية بهدف إبدال الخيول وإراحة سُعَاة البريد. كما سنلاحظ، في ما سيتبع من دراسة للمعارك، استعمال الحَمَام الزاجل في نقل الأوامر وأخبار المعارك والحروب إلى القيادات العامة.

٣ - كانت الحرب سِجالاً بين المجموعتين المتحاربتين. إنما، أدى صمود إحدى الوحدات إلى إطالة القتال، لدى الفريقين، وإلى تغيير مسار المعركة وقلب نتيجتها إلى جانب الصامدين. فعند انتصاف النهار ثبت في القتال حرب بن أمية وبنو عبد مناف وبعض قبائل قريش، محولين الهزيمة إلى انتصار.

وعند نهاية النهار، وفيما انهزمت قيس، صمد بنو نصر وجشم وسعد بن بكر وفهم وعدوان، فأعادوا ميزان القوى إلى التعادل، الأمر الذي دفع إلى المعالجة والتصافي.

ونحن نرى أن شدّة الحوافز النفسية وحماس المقاتلين واندفاعهم في القتال، هي من العوامل الأساسية للنجاح تطبيقاً لمبدأ الحرب الثالث (نسبية الأهداف للوسائل).

١٢ - الأيام بين عامر بن صعصعة وقبائل أخرى

عامر بن صعصعة قبيلة من هوازن من قيس عيلان كانت ذات مكانة بين القبائل

العربية وجرت معها وقائع كثيرة نذكر منها:

أ - يوم شعب جبلة:

جرت هذه الواقعة بين عامر بن صعصعة وتميم. وسبب ذلك أن لقيطاً بن زُرارة كان قد صمّم على غزو بني عامر بن صعصعة للأخذ بثأر شقيق له كان أسيراً عندهم ومات. فبينما لقيط يتجهّز، بَلَغَه أن بني عامر وبني عبس تحالفا، فخابر القبائل الأخرى لتحالفه على عبس وعامر، فأجابته أسد وغطفان. واستوثقوا واستكثروا، وساروا وهم لا يشكون انهم ظافرون لأنهم سيغتنمون غرة القوم. وكان مع لقيط ابنته دختنوس، وكان يغزو بها معه ويستشيرها في أموره. وبينما هم سائرون، لقيهم كرب بن صفوان من أشراف سعد، فحياهم وظل سائراً فخافوا أن يكون مسرعاً لإطلاع أعدائهم على خبرهم، فاستوقفوه وسألوه لماذا لا يصحبهم بغزوهم؟... فقال: إنه يبحث عن إبل ضلّت منه. فأخذوا منه المواثيق ألا يخبر أحداً بسيرهم فعاهدهم، ولكنه غضب لهذه المعاملة. فلما دنا من عامر وعبس أخذ خرقة وضع بها حنظلة وشوكاً وتراباً وخرقتين يمانيتين وخرقة حمراء وعشرة أحجار سود، ثم رمى بها حيث يسقون ولم يتكلم. فأخذها بعضهم وجاء بها إلى قيس بن زهير أمير عبس فعلم ما يعني الرجل بهذه الأمور، فقال: «هذا رجل قد أُخذ عليه عهد ألا يكلمكم، يُخبركم أن أعداءكم قد غزوكم عدد التراب وأن شوكتهم شديدة. وأما الحنظلة فهي رؤساء القوم. وأما الخرقتان اليمانيتان فهما حيان من اليمن معهم. وأما الخرقة الحمراء فهي حاجب بن زرارة. وأما الأحجار فهي عشر ليال يأتيكم القوم بها. قد أنذرتكم فكونوا أحراراً واصبروا كما يصبر الأحرار الكرام».

أثنى بنو عبس على حِكْمة قيس واستشاروه في الخطة العسكرية الواجب تطبيقها فقال لهم[1]:

«أدخلوا إبلكم هذا الشعب (شعب جبلة) ثم اظمئوها هذه الأيام ولا توردوها

---

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٢٣.

الـمـاء. فـإذا جـاء الـقـوم أخـرجـوها عـلـيـهـم وانخسوها بالسيوف والرماح، فتخرج مذاعير عطاشاً فتشغلهم وتفرق جمعهم، واخرجوا أنتم في آثارها واشفوا نفوسكم».

نـفّـذ بـنـو عـبس الخطة فـانـطـلقت الابل مخترقـة جـمـوع أعـدائـهـم الـذيـن ذعـروا وتضعضعت صفوفهم. فهاجمهم بنو عبس وعلى رأسهم الفارس العربي الشهير عنترة بن شداد وأكثروا القتال فيهم وانتصروا على تميم وغطفان.

التقييم:

أ - تبرز في يوم شعب جبلة حقيقتان:

* الحقيـقـة الأولى، أن الـقـبـائل العربية درجت عـلـى عـقـد الأحـلاف بيـنـهـا مـنـذ الجاهـلـيـة، إذ كـان لـديـهـا اتجاه إلى تـكـويـن مجموعات أكبر من القبيلة.

هـذه الـتـحـالـفـات لم تـكـن تُعقد بـهـدف الصـراع بين الـقـبـائـل وحسب، إنما خـاصـة للتصدّي للاعتداءات الخارجية على هذه القبائل، خاصة من قبل دولتين كانت لهما أطماع في شمال شبه الجزيرة العربية، هما الإمبراطورية البيزنطية والدولة الساسانية.

وقد قوي هذا الاتجاه مع ظهور الإسلام، فتمكّن النبيّ ﷺ من إقامة رابطة الدين مكان الروابط القبلية الضيّقة.

* الحقيقة الثانية، أنَّ البدوي كان يتمتع بذكاء فطري وفراسة وعلم حلّ الألغاز. فقد حافظ كرب بن صفوان على العهد الذي قطعه للقبائل الغازية، وتمكّن من إبلاغ عبس وعامر بكلّ تفاصيل الغزو باستعماله رموزاً وألغازاً تمكّن سيّد عبس قيس بن زهير من فهمها وتفسيرها.

هذا الذكاء الفطري ساهمت في تنميته طبيعة الصحراء الواسعة ونقاء الهواء وصفاء السماء والهدوء الكامل وتعزيزه في نفوس قاطني شبه الجزيرة العربية.

ب - أحسن سيد عبس في اعتماد خطة عسـكـريـة لـردّ الـغـزو مـن خـلال حسـن استخدام الوسائل المتوافرة لديه. لقد حضّر الإبل ودفع بها في اتجاه الغزاة الذين تفرّقت جـمـوعـهـم وألـمّـت الـهـزيمة بـهـم. وفي هـذا الـتـدبير تـطـبـيـق رائع لمبـدأ الحرب الـثـالـث (الحصيل الأقصى للوسائل).

ويمكـن تشـبـيـه الإبـل في هـذه المعـركـة بدبابات الجيوش الحديثة التي تستعمل في

مهاجمة العدو وخرق جبهته تمهيداً لتدخّل الرجالة الذين يحسمون القتال.

وستشهد المعارك اللاحقة استخدامات مماثلة للإبل من قِبَل الجيوش العربية، وللفيَلَة من قِبَل الجيوش الفارسية.

ب - يوم ذي نجب:

بعد أن انتصر بنو عامر على تميم، أرادوا إكمال انتصارهم واستئصال أعدائهم، فاستنجدوا بأحد ملوك كِنْدة حسّان بن كبشة ودعوه لغزو بني حنظلة من تميم[1].

قصد الحلفاء بني حنظلة الذين كانوا يتمركزون في أعالي الوادي فيما كان بنو يربوع في أسفله. فلمّا بلغ أولئك خبر قدوم الملك لغزوهم، أشار عليهم أحد كبارهم بالانتقال من مكانهم، ففعلوا ذلك واعترضوا طريق حسّان الذي، وما إن بلغ مكانهم حتى وجدهم مستعدّين لقتاله.

وصبر بنو حنظلة في القتال وضرب أحدهم، واسمه جشيش بن نمران الرياحي الملك حسّان على رأسه فقتله، كما قُتل عبيدة بن مالك بن جعفر وانهزم بنو عامر وملك كندة شرّ هزيمة[2].

وكان يوم ذي نجب بعد يوم جبلة بسنة كاملة.

ج - يوم «نعف قشاوة»:

هو يوم لشيبان على تميم، وكان بسطام بن قيس قد أغار على بني يربوع من تميم في «نعف قشاوة» وصادر قطعانهم.

تداعت بنو يربوع ولحقوه فنشب قتال بينهما قُتِل خلاله عدد من بني يربوع وأُسِر عدد آخر منهم[3].

١٣ - يوم الغبيط

هو يوم بين شيبان وتيم. كتب جرجي زيدان[4]:

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٢٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٧٣.

(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٧٤.

(٤) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٠٤.

«وسببه أن بسطاماً والحوفزين ومفروق بن عمرو ساروا في جمع من بني شيبان إلى بلاد تميم للغزو، فأغاروا على عشائر منهم متجاورين في صحراء فلج، فاقتتلوا فانهزم التميميون وقُتل منهم مقتلة عظيمة، وغَنِم بنو شيبان أموالهم وساروا بها فمروا بعشيرة أخرى من تميم استاقوا إبلهم. وبلغ ذلك بني يربوع فأكبروا هذا التعدي، فمشوا بقيادة عتيبة بن الحارث اليربوعي يقتصون آثار بني شيبان، فأدركوهم في مكان اسمه غبيط المدرة، فقاتلوهم وصبر الفريقان ثم انهزمت شيبان واستعادت تميم ما كانوا غنموه منهم. وألحَّ عتيبة المذكور في أسر بسطام حتى أسره، فأشار اليربوعيون على عتيبة أن يقتله لأنه قتل منهم كثيرين فأبى، وسار به إلى بني عامر، بن صعصعة لئلا يؤخذ فيقتل. فلما توسط عتيبة بيوت بني عامر صاح بسطام: «واشيباناه ولا شيبان لي اليوم». فبعث إليه عامر بن الطفيل رئيس بني صعصعة: «إن استطعت أن تلجأ إلى قبتي فافعل فإني سأمنعك». فعلم عتيبة بذلك، فأتى ابن الطفيل وقال له: «قد بلغني الذي أرسلت به إلى بسطام، فإنا نخيّرك فيه خصالاً ثلاثاً»، قال: «وما هي؟»، قال: «أعطني خلعتك وخلعة أهل بيتك فأطلعه لك»، قال عامر: «هذا لا سبيل إليه»، فقال: «ضع رجلك محل رجله فليست عندي بشر منه»، فلم يقبل، فقال: «تتبعني إلى هذه الرابية فتقارعني عنه على الموت» فأبى. فانصرف عتيبة ببسطام فرأى بسطام عتيبة على رحل رث فقال: «يا عتيبة هذا رحل أمك»، قال: «نعم»، قال: «ما رأيت رحل أم سيد قط مثل هذا». فقال عتيبة: «واللات والعزى لا أُطلقك حتى تأتيني أمك بهودجها»، وكان كبيراً ذا ثمن كثير. وهذا الذي أراد بسطام ليرغب فيه فلا يقتله، فأرسل بسطام فأحضر هودج أمه وفادى نفسه بأربعمائة بعير – وقيل بألف بعير وثلاثين فرساً وهودج أمه وحدجها وخلص من الأسر. فلما خلص، أذكى العيون على عتيبة حتى اغتنم غفلته، وأغار عليه وأخذ الإبل كلّها ومالهم جميعاً».

١٤ – يوم لشيبان على بني تميم

خرج الأقرع بن حابس وأخوه فراس من تميم يريدان الغارة على بكر بن وائل ومعهما

البروك أبو جعل، فلقيهم بسطام بن قيس الشيباني وعمران بن مرّة من بني بكر بن وائل بزُبالة[1] فاقتتلوا قتالاً شديداً انتصرت خلاله بكر وهُزمت تميم وأُسر الأقرع وأخوه وغيرهما، لكن بسطاماً أطلق سراحهم.

١٥ - يوم مبايض

وسببه أن طريفاً العنبري التميمي كان جسيماً يُلقب مجدعاً، وهو فارس قومه. حج في أحد الأعوام، وبينما هو يطوف لقيه خميصة بن جندل الشيباني وهو شاب قوي شجاع فأطال النظر إليه: فقال له طريف: «لِمَ تشد نظرك إليَّ؟» قال: «أريد أن أثبتك لعلّي ألقاك في جيش فأقتلك». فقال: «اللهم لا يحول الحول حتى ألقاه»[2]. وكان خصيمة من بني أبي ربيعة.

ثمّ إن بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان وبني مرة بن ذهل بن شيبان كان بينهم شر وخصام، فاقتتلوا شيئاً من قتال ولم يكن بينهم دم، فقال هانىء بن مسعود رئيس بني أبي ربيعة لقومه: «إنّي أكره أن يتفاقم الشرّ بيننا». فارتحل بهم، فنزل على ماء يقال له مبايض وهو قريب من مياه بني تميم، فأقاموا عليه أشهراً. وبلغ خبرهم بني تميم فأرسل بعضهم إلى بعض وقالوا: «هذا حي منفرد وإن اصطلمتموهم أوهنتم بكر بن وائل». واجتمعوا وساروا بقيادة ثلاثة رؤساء، أبو الجدعاء الطهوي على بني حنظلة، وابن فدكى المنقري على بني سعد، وطريف بن تميم على بني عمرو بن تميم. فلما قاربوا بني أبي ربيعة بلغهم الخبر فاستعدّوا للقتال، فخطبهم هانىء بن مسعود وحثّهم على القتال، فقال: «إذا أتوكم فقاتلوهم شيئاً من قتال، ثمّ انحازوا عنهم فإذا اشتغلوا بالنهب فعودوا إليهم، فإنكم تصيبون منهم حاجتكم». وصبحهم بنو تميم والقوم حذرون، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وفعلت بنو شيبان ما أمرهم هانىء فاشتغلت تميم بالغنيمة. ومرّ رجل منهم بابنٍ لهانىء بن

(١) منزل بطريق مكّة من الكوفة.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٠٨.

مسعود فأخذه وقال: «حسبي هذا من الغنيمة». وسار به وبقيت تميم مع الغنيمة والسبي، فعادت شيبان عليهم فهزموهم وقتلوهم وأسروهم كيف شاؤوا ولم تصَب تميم بمثلها إذ لم يفلت منهم إلاّ القليل. ولم يلو أحد على أحد، وانهزم طريف فاتبعه حَميصة فقتله، واستردّت شيبان الأهل والمال وأخذوا مع ذلك ما كان معهم، وفادى هانيء بن مسعود ابنه بمائة بعير[1].

ملاحظة: سبق وأوردنا حال مماثلة لهذه الحال إذ أن انشغال المقاتلين بالسلب والنهب يصرفهم عن القتال ويمكّن أعداءهم من التغلّب عليهم.

١٦ – يوم الزوريرين:[2]

كانت بكر بن وائل قد أجدبت بلادهم، فانتجعوا بلاد تميم بين اليمامة وهَجَر. فلما تدانوا جعلوا لا يلقى بكري تميمياً إلاّ قتله ولا يلقى تميمي بكرياً إلاّ قتله، وإذا أصاب أحدهما مال الآخر أخذه حتى تفاقم الشر وعظُم. فخرج الحوفزان بن شريك والوادك بن الحرث الشيبانيان ليَغيرا على بني دارم، فاتفق أنّ تميماً في تلك الحال اجتمعت في جمع كثير من عمرو بن حنظلة والرباب وسعد وغيرها، وسارت إلى بكر بن وائل وعلى تميم أبو الرئيس الحنظلي. فبلغ خبرهم بكر بن وائل فتقدّموا وعليهم الأصم عمرو بن قيس بن مسعود أبو مفروق، وحنظلة بن سيار العجلي، وحمران بن عبد عمرو العبسي. فلمّا التقوا جعلت تميم والرباب بعيرين وجللوهما وجعلوا عندهما من يحفظهما وتركوهما بين الصفين معقولين وسموهما زوريرين يعني إلهين، وقالوا: «لا نفر حتى يفر هذان البعيران». فلما رأى أبو مفروق البعيرين سأل عنهما فأعلم حالهما، فقال: «أنا زوريركم». وبرك بين الصفين، وقال: «قاتلوا عني ولا تفروا حتى أفرّ».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٧٧ – ٤٧٨.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٠٦ – ١٠٧.

– وابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٨٠.

فاقتتل الناس قتالاً شديداً فوصلت شيبان إلى البعيرين فأخذوهما فذبحوهما. واشتدّ القتال عليهما، فانهزمت تميم، وقتل أبو الرئيس مقدمهم ومعه بشر كثير، واستولت بكر على أموالهم ونسائهم وأسروا أسرى كثيرين. ووصل الحوفزان إلى النساء والأموال وعاد إلى أصحابه سالماً.

١٧ – يوم مُسلحان

غزا ربيعة بن زياد الكلبي في جيش من قومه فلقي جيشاً لبني شيبان عامتهم بنو أبي ربيعة فاقتتلوا قتالاً شديداً، فظفرت بهم بنو شيبان وهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وذلك يوم مسحلان. وأسروا أُناساً كثيرين وأخذوا ما كان معهم، وكان رئيس شيبان يومئذ حيان بن عبدالله بن قيس المحلمي. وقيل: كان رئيسهم زياد بن مرثد من بني أبي ربيعة.

ثمّ إن الربيع بن زياد الكلبي نافر قومه وحاربهم فهزموه، فاعتزلهم وسار حتى حلّ ببني شيبان فاستجار برجل اسمه زياد من بني أبي ربيعة، فقتلهم بنو أسعد بن همام. ثمّ إنّ شيبان حملوا ديته إلى كلب مائتي بعير فرضوا(١).

١٨ – حرب سليم وشيبان

خرج جيش لبني سليم عليهم النصيب السلمي، وهم يريدون الغارة على بكر بن وائل فلقيهم رجل من بني شيبان اسمه صليع بن عبد غنم على فرس له يسمى البحراء، فقال لهم: «أين تذهبون؟» قالوا: «نريد الغارة على بني شيبان». فقال لهم: «مهلاً فإني لكم ناصح. إياكم وبني شيبان فإني أقسم لكم بالله لتأتينكم على ثلاثمائة فرس خصي سوى الفحول والإناث».

فأبوا إلاّ الغارة عليهم. فدفع صليع فرسه ركضاً حتى أتى قومه؛ فأنذرهم فركبت شيبان واستعدّوا، فأتاهم بنو سليم وهم جاهزون للقتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً. فظفرت شيبان وانهزمت سليم وقتل منهم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٨٢.

مقتلة عظيمة وأُسِر منهم كثيرون ولم ينجُ إلاّ القليل. وأُسر النصيب رئيسهم، أسره عمران بن مرة الشيباني فضرب رقبته[1].

ملاحظة: قيل: «إن عدواً معروفاً هو نصف مغلوب». لقد أنذر صليع قومه فاستعدوا للقتال فانتصروا في معركتهم.

١٩ - يوم جَدود

وهو يوم بين بني بكر بن وائل وبني مِنقَر من تميم. وكان من حديثه أن الحوفزان واسمه الحارث بن شريك الشيباني كانت بينه وبين بني سليط بن يربوع موادعة، فهمّ بالغدر بهم. وجمع بني شيبان وذهلا واللهازم وعليهم حمران بن عبد عمرو بن بشر بن عمرو. ثمّ غزا وهو يرجو أن يُصيب غرة من بني يربوع[2]. فلمّا انتهى إلى بني يربوع علم به عتيبة بن الحارث بن شهاب فنادى في قومه فحالوا بين الحوفزان وبين الماء. فقال الحوفزان لعتيبة: «إني لا أرى معك إلاّ رهطك، وأنا في طوائف من بني بكر. فلئن ظفرت بكم قلّ عددكم وطمع فيكم عدوّكم، ولئن ظفرتم بي ما تقتلون إلاّ أقاصي عشيرتي. وما إياكم أردت فهل لكم أن تسالمونا وتأخذوا ما معنا من التمر، ووالله لا نروع يربوعاً أبداً؟».

فأخذ ما معهم من التمر وأخلى سبيلهم، فسارت بكر حتى أغاروا على بني رُبيع بن الحارث وهو مقاعس بجدود - وإنما سمي «مقاعساً» لأنّه تقاعس عن حلف بني سعد - فأغار عليهم وهم خلوف فأصاب سبياً ونعماً. فاستنجد بنو ربيع ببني كليب فلم ينجدوهم. فاستنجدوا ببني منقر بن عبيد فركبوا في الطلب فلحقوا بكر بن وائل وهم مقاتلون فما شعر الحوفزان وهو في ظلّ شجرة إلاّ بالأهتم بن سمي بن سنان المنقري واقفاً على رأسه. فركب فرسه فنادى الأهتم: «يا آل سعد»، ونادى الحوفزان: «يا آل وائل»، ولحق بنو منقر فقاتلوا قتالاً شديداً، فهزمت بكر وخلّوا السبي والأموال. وتبعتهم منقر فمن قتيل وأسير، وأُسِرَ الأهتم حمران بن عبد عمرو. ولم يكن لقيس بن عاصم المنقري همّة إلاّ

(١) المرجع نفسه، ص ٤٨٣.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٠٢.

الحوفزان فتبعه على مُهر والحوفزان على فرس سريع، فلم يلحقه رغم أنه قاربه. فلمّا خاف أن يفوته حفزه بالرمح في ظهره فاحتفز بالطعنة ونجا فسمي يومئذ الحوفزان[1].

٢٠ – يوم الأياد

هو يوم بين بني بكر، وكانوا تحت رعاية الفرس من جهة، وبني زبيد وعتيبة وعبيد من جهة أخرى. وكان بنو بكر بقيادة بسطام سيّد شيبان، وقد اقتتلوا قتالاً بالغ العنف.

٢١ – يوم الشقيقة:[2]

في هذا اليوم قتل بسطام سيد شيبان، وهو يوم بين شيبان وضبّة. وسببه أن بسطاماً غزا بني ضبّة فسار حتى دنا من نقا[3]، فشاهد ألف ناقة لمالك بن المنتفق الضبّي ترعى فأغار عليها وطاردها. هرب مالك إلى قومه ونادى: «يا صباحاه» فقامت معه الفوارس من بني ضبة ولحقوا بالإبل حيث جرى قتال عنيف قتل فيه بسطام وفرّ بنو شيبان[4]. وأُسر نجاد بن قيس شقيق بسطام وسبعون من بني شيبان. وكان لمقتل بسطام حزن في كلّ قبائل بكر بن وائل.

٢٢ – يوم النِّسار:[5]

سبب القتال أن بني ضبة قاتلوا جماعة من تميم فقامت تميم لقتالهم. تحالفت ضبّة مع ظبي وغطفان، فيما تحالفت تميم مع بني عامر بن صعصعة.

التقى الجمعان بالنِّسار واقتتلوا، فقتل شريح القشيري رئيس بني عامر وأسرت

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٨٣ – ٤٨٤.

(٢) الشقيقة: أرض صلبة بين جبلي رمل.

(٣) النقا: الرمل الكثير.

(٤) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٠٥.

(٥) النِّسار: بكسر النون: جبال متجاورة عندها حصلت الموقعة.
– ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٩٠ – ٤٩١.

بضع نساء من أشراف بني عامر وفرت تميم من القتال فعيرتهم العرب على ذلك.

ويوم النِّسار حدث بعد يوم جبلة.

٢٣ - يوم الجفار:[١]

بعد يوم النِّسار اجتمع من العرب من كان قد شهد النسار وذلك بالجفار واقتتلوا. صبرت تميم وكثر فيها القتل وخاصة من بني عمرو بن تميم.

٢٤ - يوم الصفقة أو المشقر

دار القتال في هذه اليوم بين فارس وتميم. كتب جرجي زيدان عن هذا اليوم ما يأتي[٢]:

«سببه أن باذان - نائب كسرى أبرويز باليمن - أرسل إليه في أوائل القرن السابع للميلاد أحمالاً من حاصلات اليمن ومصنوعاتها، فلما بلغت النطاع من أرض نجد أغارت عليها تميم وانتهبتها، وسلبوا رسل كسرى وأساورته. فعرج هؤلاء على اليمامة - وصاحبها هوذة بن علي الحنفي - فلما رآهم مسلوبين أحسن وفادتهم وكساهم. وكانت له معهم أياد بيضاء في ما كان الفرس يُرسلونه من التجارة إلى اليمن، ويُسمونها «اللطيمة»، فكان هوذة إذا مرت اللطيمة جهز رسلها وخفرهم وأحسن جوارهم، وكان كسرى يشتهي أن يراه ليجازيه على فعله. فلما أحسن أخيراً إلى هؤلاء الرسل الذين سلبتهم تميم، قالوا له: «إن الملك لا يزال يذكرك ويحب أن تقدم عليه»، فسار معهم إليه. فلما قدم عليه، أكرمه وأحسن وفادته وحادثه لينظر عقله، وأمر له بمال كثير وتوجّه بتاج من تيجانه، وأقطعه أموالاً في هجر كانت تحت سيطرة الفرس، وكان هوذة نصرانياً. وأمره أن يغزو بني تميم مع حملة من عساكر كسرى بقيادة المكعبر، فسافروا إلى هجر ونزلوا في المشقر - وهو حصن، وخافوا أن يدخلوا بلاد تميم، لأن العجم لا تستطيع

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٩١.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ٩٨ - ٩٩.

فتحها وأهلها يمتنعون فيها. فعمد هوذة والمكعبر إلى الحيلة والغدر، فبعثا رجالاً من بني تميم يدعونهم إلى الطعام، وكانت سنة شديدة، فأقبلوا على كلّ صعب وذلول، فجعل المعبر يُدخلهم الحصن خمسة خمسة، وعشرة عشرة، وأقل أو أكثر على أن يُخرجهم من باب آخر، فكل من دخل ضرب عنقه. فلما طال ذلك عليهم ورأوا الناس يدخلون ولا يخرجون، بعثوا رجالاً يستعلمون الخبر، فشد رجل من عبس فضرب السلسلة فقطعها، وخرج من كان بالباب فأمر المكعبر بغلق باب المدينة وقتل كلّ من فيها، وكان يوم الفصح فاستوهب هوذة منه مائة فكساهم وأطلقهم يوم الفصح».

ويوم الصفقة هذا وقع في العقد الثاني من القرن السابع للميلاد، أي بعد ظهور الدعوة الإسلامية وقبل مهاجرة النبي إلى المدينة[1].

التقييم:

أ - أخلّ بنو تميم بمبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل. فهم، ورغم معرفتهم الأكيدة بتفوّق الفرس العسكري عليهم، أغاروا على قافلة تحمل حاصلات اليمن ومصنوعاتها إلى العاهل الساساني.

وبعكس هؤلاء، درج هوذة صاحب اليمامة على مواكبة القافلة واستضافة رجالها.

ب - أحسن هوذة في استخدام الخدعة في قتاله بني تميم. فعندما امتنع عليه هؤلاء، لم يدخل بلادهم عنوة خوفاً من فقدان تفوّقه العسكري في منطقة يعرفون شعابها ومعارجها. فاختيار مكان المعركة هو أحد قواعد الفن العسكري الذي تقيّد به هوذة فنجح في خطته.

أمّا الخدعة القتالية فقد قضت بإدخال بني تميم على دفعات إلى الحصن حيث يتمركز جيش هوذة وحيث سهل القضاء عليهم مجموعة إثر مجموعة.

٢٥ - يوم الكلاب الثاني

هو تابع ليوم الصفقة الذي قُتل فيه بنو تميم. وذلك أن رجلاً من بني قيس بن ثعلبة قدم نجران على بني الحارث بن كعب وهم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٩٢ - ٤٩٣.

أخواله، وحدّثهم بما أصاب بني تميم وأن أموالهم وذراريهم في مساكنهم لا مانع لها. فاجتمعت بنو الحرث من مذحج وأحلافها من نهد وحزم في جيش عظيم، وساروا يُريدون بني تميم. فحذرهم كاهن لهم ونصح لهم في الخطة التي يتخذونها في نيل ما يريدون. فالتقت سعد والرباب على ماء اسمه الكلاب، واقتتل القوم قتالاً شديداً وعادت الغلبة على مذحج.

٢٦ – يوم ظهر الدّهناء:[١]

هو يوم بين طيء وأسد بن خزيمة، وسبب ذلك أن أوس بن حارثة بن لأم الطائي كان سيّداً مُطاعاً في قومه وجوّاداً مِقْدَاماً، فوفد هو وحاتم الطائي على عمرو بن هند، فدعا عمرو أوساً، فقال له: «أنت أفضل أم حاتم؟» فقال: «أبيت اللعن. إن حاتماً أوحدها وأنا أحدها. ولو ملكني حاتم وولدي ولحمتي لوهبنا في غداة واحدة». ثمّ دعا عمرو حاتماً فقال له: «أنت أفضل أم أوس؟» فقال: «أبيت اللعن إنما ذكرت أوساً ولأحد ولده أفضل مني». فاستحسن ذلك منهما وحباهما وأكرمهما. ثمّ إن وفود العرب من كلّ حيّ اجتمعت عند النعمان بن المنذر وفيهم أوس فدعا بحلة من حلل الملوك، وقال للوفود: «احضروا في غد فإني ملبس هذه الحلّة أكرمكم». فلمّا كان الغد حضر القوم جميعاً إلاّ أوساً فقيل له: «لم تتخلف؟» فقال: «إن كان المراد غيري فأجمل الأشياء بي أن لا أكون حاضراً. وإن كنت المراد فسأُطلب». فلمّا جلس النعمان ولم ير أوساً قال: «اذهبوا إلى أوس، فقولوا له: احضر آمناً مما خفت». فحضر فأُلبس الحلّة فحسده قوم من أهله، فقالوا للحطيئة: «اهجه ولك ثلثمائة ناقة». فقال: كيف أهجو رجلاً لا أرى في بيتي أثاثاً ولا مالاً إلاّ منه؟».

فقال لهم بشر بن أبي خازم: «أنا أهجوه لكم». فأعطوه النوق وهجاه فأفحش في هجائه وذكر أمه سعدى. فلمّا عرف أوس ذلك أغار على النوق فاكتسحها. وطلبه فهرب منه والتجأ إلى بني أسد عشيرته

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٩٦ – ٤٩٧.

فمنعوه منه ورأوا في تسليمه إليه عاراً. فجمع أوس جديلة طيء وسار بهم إلى أسد، فالتقوا بظهر الدهناء فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت بنو أسد وقتلوا قتلاً ذريعاً. وهرب بشر فجعل لا يأتي حياً يطلب جوارهم إلا امتنع من إجارته على أوس. ثمّ نزل على جندب بن حصن الكلابي بأعلى الصمان[1]، فأرسل إليه أوس يطلب منه بشراً فأرسله إليه. فلمّا قدم به على أوس أشار عليه قومه بقتله فدخل على أمه سعدى فاستشارها، فأشارت أن يرد عليه ماله ويعفو عنه ويحبوه فإنه لا يغسل هجاءه إلاّ مدحه فقبل ما أشارت به وخرج إليه.

ثمّ مدحه بشر فعفا عنه أوس وحمله على جواد وردّ إليه ما أخذ منه وأعطاه من ماله مائة من الإبل.

التقييم:

- من دراسة النص المذكور حول يوم ظهر الدهناء تبرز بعض المفاهيم القبلية التي كانت سائدة في الجاهلية، ومنها:

* الإيثار: عندما سُئل حاتم الطائي وأوس بن حارثة عن أيّهما الأفضل، رأى كلّ منهما أن صاحبه هو الأفضل.
* الكرم: أكرم عمرو بن هند حاتم وأوس عندما قدما إليه.
* التواضع: لم يحضر أوس مجلس عمرو بن هند الذي أراد أن يلبس الحلة الملوكية لأكرم الوافدين إليه كونه علم ان الملك سيختاره فآثر عدم الحضور تواضعاً منه.
* الهجاء: قام بشر بن أبي خازم بهجاء أوس بعد أن حسده قوم من أهله ووعدوا الشاعر بإعطائه ثلاثمائة ناقة.
* إجارة الضيف: لجأ بشر إلى بني أسد الذين خاضوا قتالاً عنيفاً ضدّ أوس الذي طلب منهم تسليمه إليه، رافضين طلبه هذا.
* العفو عند المقدرة: بعد أن تمكّن أوس من الشاعر بشر وألقى القبض عليه، عاد وعفا عنه رغم أنه كان قد سبق وخاض قتالاً دموياً ضدّ قبيلة بني أسد للقبض عليه.

(١) الصمان: الأرض الصلبة.

هذه الصفات ميّزت المجتمع البدوي في الجاهلية الذي وصفناه في القسم الأول من هذا الجزء.

٢٧ - يوم الوقيظ:

هو يوم بين اللهازم من بكر وائل وبني تميم. وسببه أن اللهازم اجتمعت وفيها قيس وتيم اللات وعجل بن لجيم وعنزة بن أسد بهدف الاغارة على بني تميم فيما هم آمنون. وكان عندهم أسير تميمي اسمه «ناشب بن بشامة العنبري»، الذي أراد أن يحتال في إبلاغ الأمر إلى قومه فطلب من اللهازم السماح له بأن يرسل رجلاً إلى أهله يوصيهم ببعض حاجاته[١].

سمحوا له بإرسال غلام شرط أن يتكلّم معه أمامهم فجرى بينهما الحوار الآتي[٢]:

- ناشب: أتيتموني بأحمق.
- الغلام: واللّه ما أنا بأحمق.
- ناشب: أتعقل؟
- الغلام: نعم إني عاقل.
- ناشب: النيران أكثر أم الكواكب؟
- الغلام: الكواكب.
- ناشب (بعد ان ملأ كفه رملاً): كم في كفي؟

الغلام: لا أدري فإنه كثير.

ناشب (بعد أن أومأ إلى الشمس): ما تلك؟

الغلام: الشمس.

ناشب: «ما أراك إلا عاقلاً. إذهب إلى قومي فأبلغهم سلامي وقل لهم ليُحسنوا إلى أسيرهم فإني عند قوم يُحسنون إليّ ويكرمونني. وقل لهم فليعرّوا جملي الأحمر، ويركبوا ناقتي العيساء، وليرعوا حاجتي في بني مالك. وأخبرهم أن العوسج قد أورق، وأن النساء قد اشتكت. وليعصموا همام بن بشامة فإنه مشؤوم مجدود، وليطيعوا هذيل بن الأخنس فإنه حازم ميمون. واسألوا الحارث عن خبري».

سار الغلام إلى بني تميم فأبلغهم الرسالة فلم يعرفوا ما قصد منها، فسألوا الحارث الذي طلب من الرسول أن يذكر له الحوار بكامله،

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٠٥ - ١٠٦.

ففعل. فَهِمَ الحارث ماذا قصد ناشب، وقال للقوم إن الرمل يعني أن عدد طالبيهم من أعدائهم كثير، وأن ذلك أوضح من الشمس. وأما تعرية جمله الأحمر فيعني أن يرحلوا من مكانهم. وأما ناقته العيساء فإنّه يأمرهم ان يحترزوا في الصحراء. وعن بني مالك فإنه يأمرهم بأن ينذروهم أيضاً[١].

بناء على هذه المعلومات اتّخذ بنو العنبر حذرهم واستنفروا بني مالك الذين لم يسمعوا نصيحتهم. ولمّا شنّ اللهازم وعجل وعنزة حملة على بني حنظلة وجدوا أن عمراً قد أجلت عن مواقعها، فهاجموا بني دارم بالوقيط حيث جرى قتال عنيف أسرت خلاله ربيعة مجموعة من رؤساء بني تميم منهم ضرار بن القعقاع الذي جزوا ناصيته وأطلقوه[٢].

التقييم:

- أنذر الأسير ناشب قبيلته بفنٍّ رفيع المستوى من الذكاء الفطري ومعرفة الألغاز والأحاجي، فحال دون مفاجأتهم من قبل أعدائهم الذين يفوقونهم عدداً.

فرغم عدم تمكّن بني العنبر من تحقيق ميزان القوى مع اللهازم تطبيقاً لمبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل)، فإن إندارهم في الوقت اللازم سمح لهم بتحقيق حرية عملهم (مبدأ الحرب الثاني) فانتقلوا من مكان تمركزهم مبتعدين عن ساحة القتال.

وهنا لا بدّ من التأكيد على أهمية الاستعلام في الحرب ومعرفة نوايا العدو، وهذه المهمّة توكّل حالياً إلى أجهزة الاستخبارات في الجيوش الحديثة. إلاّ أن الجاسوسية قديمة في التاريخ العسكري، إذ اعتمدتها القبائل العربية في الجاهلية، كما سبق القول، ومارستها الشعوب القديمة. فعلى سبيل المثال، وقبل قيامه بمهاجمة مملكة الشاه محمّد، عمد القائد المغولي جنكيزخان إلى الاستعلام عن هذه المملكة طوال سنة كاملة، فتمكّن من القضاء عليها.

(١) زيدان، المرجع نفسه.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٤٩٨.

جاء في كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» حول نظام الاستخبارات المغولي ما يأتي[١]:

«أ - نظام الإستخبارات:

نظم جنكيزخان مصلحة استخبارات وزرع طابوراً خامساً في الدول المجاورة. كما توصّل إلى وضع جيش بقيادة أحد ضباطه المتفوّقين «جيبه نوايون» "Jebé Noyou" بتصرّف امبراطور الصين التابع لسلالة الكينز لمحاربة سلالة السونغز، فتعرّف على إمبراطوريته وعلى أساليب قتاله. وطوّع بعض العملاء المخلصين له واكتشف أسرار قلاعه وحصونه وذلك قبل أن ينقض عليه ويدمّر جيشه ويحتل بلاده».

ونحن نرى أن ممارسة الحرب هي فن يتقنه كبار الاستراتيجيين كونه معقدٌ وكلّه تنفيذ، ويتتابع فيه الفعل وردّة الفعل بشكل سريع قد لا يعطي القائد الوقت اللازم لإجراء تقييم علمي للوضع يهدف إلى اتخاذ القرار المناسب حول التدبير الواجب اتخاذه.

رأى أحد كبار المفكّرين العسكريين أنه «لا مجال للدرس أثناء القتال، وجُلّ ما يمكن صنعه هناك هو تطبيق ما تعرف، ويجب أن تعرف الكثير لتستطيع القليل»[٢].

٢٨ - يوم المرّوت

جرى بين تميم وعامر بن صعصعة[٣]، وسببه أنه إثر خلاف شخصي في عكاظ أغار بنو عامر على بني العنبر بن عمرو بن تميم بارّم الكلبة وساقوا نوقهم من دون ان يلقوا مقاومة شديدة.

ركب بنو تميم وعلى رأسهم بنو يربوع ولحقوا ببني عامر في منطقة المرّوت حيث دار قتال بينهما فاستعاد بنو يربوع أموال بني العنبر من بني عامر[٤].

(١) ريحانا، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ١٩٧.

(٢) قول معلّق في باحة المدرسة الحربية - الفياضية - لبنان.

(٣) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٢٣.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٠٠.

٢٩ - يوم فيف الريح

يوم وقع بين عامر بن صعصعة والحرث بن كعب بسبب ثأر كان لبني عامر على بني الحرث. وكان بنو عامر ينزلون في مكان يدعى «فيف الريح»، فأقبلت قبائل سعد العشيرة ومراد وصدّاء ونهد وخثعم وشهران ونوهس يريدونهم.

اجتمعت بنو عامر فقال لهم عامر بن الطفيل: «أغيروا على القوم فأني أرى أن نأخذ غنائمهم ونسبي نساءهم». أجابوه إلى طلبه والتقى الجمعان واقتتلوا قتالاً ضارياً لمدّة ثلاثة أيام، وساعد بنو نمير بني عامر فأبلوا بلاءً حسناً.

ويروي ابن الأثير تفاصيل القتال كما يلي[1]:

«جال بنو عامر جولة إلى موضع يقال له العرقوب، والتفت عامر بن الطفيل فسأل عن بني نمير فوجدهم قد تخلّفوا في المعركة فرجع وهو يصيح: «يا صباحاه يا نميراه، ولا نمير لي بعد اليوم»، حتى اقتحم فرسه وسط القوم، فقويت نفوسهم، وعادت بنو عامر وقد طعن عامر بن الطفيل ما بين ثغرة نحره إلى سرته عشرين طعنة. وكان عامر في ذلك اليوم يتعهّد الناس فيقول: «يا فلان ما رأيتك فعلت شيئاً، فمن أبلى فليرني سيفه أو رمحه، ومن لم يبل شيئاً تقدّم فأبلى». فكان كلّ من أبلى بلاءً حسناً أتاه فأراه الدم على سِنَان رمحه أو سيفه. فأتاه رجل من الحارثيين اسمه مسهر، فقال له: «يا أبا علي أنظر ما صنعت بالقوم؟ انظر إلى رمحي». فلما أقبل عليه عامر لينظر وجأه بالرمح في وجنته ففلقها وفقأ عينه وترك رمحه وعاد إلى قومه. وإنما دعاه إلى ذلك ما رآه يفعل بقومه».

وأسرت بنو عامر سيّد مراد وكان جريحاً، فلمّا برئ من جراحه أطلقته.

ولم ينتصر في هذا القتال أي من الفريقين، لكن الشرف كان فيه لبني عامر.

التقييم:

أ - تظهر معركة يوم فيف الريح أهمية القائد في المعركة، وكذلك معنويات الجند.

(١) المرجع نفسه، ص ٥٠١.

فعامر بن الطفيل لعب دور القائد الكبير، إذ أنه أعطى المثال الأعلى لمقاتليه باقتحامه صفوف الأعداء، الأمر الذي عرّضه إلى عشرين طعنة. علاوة على ذلك قام عامر بتحفيز مقاتليه لبذل أقصى جهدهم في القتال، فأبلوا البلاء الحسن وكان الشرف لهم في هذه المعركة.

ب - لذلك لا بدّ من التأكيد على حقيقتين:

- الأولى، أهمية القائد العسكري في القتال إذ أنّ له دوراً كبيراً في التخطيط والإدارة وقيادة الجند وتحفيزهم وإعطائهم المثل الصالح. فالقادة الكبار الذين عرفهم التاريخ العسكري درجوا على دخول المعركة في طليعة المهاجمين والخروج منها في آخرهم، ونذكر منهم الإسكندر المقدوني وهنيبعل وخالد بن الوليد...
- الثانية، ضرورة بثّ الحماس في نفوس المقاتلين ودفعهم إلى بذل أقصى الجهود في سبيل النصر. فشدّة الحوافز النفسية والاندفاع والتصميم وروح الجهاد، كلّها عوامل تساهم في تحقيق مبدأ الحرب الثالث (الحصيل الأقصى للوسائل)، وبالتالي النجاح في المهمّة.

٣٠ - يوم اليحاميم

جرى بين قبائل طيء، وكان الحارث بن جبلة الغساني قد أصلح ما بين قبائلها، فلمّا توفي عادت إلى الحرب بعضها مع البعض الآخر فجرى قتال بين جديلة والغوث في مكان يقال له «غرثان» فقتل قائد بني جديلة أسبع بن عمرو.

قام ابن أخت القتيل، ويدعى أوس بن خالد بن حارثة، بجمع جديلة للأخذ بثأر زعيمها. في المقابل، اجتمعت قبائل الغوث وأوقدت النار على ذروة جبل «أجا»[١] فالتقت جموع جديلة والغوث واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت جديلة وقتل منها كثيرون. وبعد هذه الواقعة لم يبقَ لجديلة مكان للحرب فلجأت إلى بلاد كلب وحالفتهم.

(١) سبق الحيث عن جبلي أجا وسلمى.

التقييم:

- استخدمت قبائل الغوث وسيلة إضرام النار على ذروة جبل أجا لنقل رسالة إلى جموعها. فقد اعتبرت النار المشتعلة من أبرز وسائل الاتصال في العصور القديمة، وبقي معوّلاً عليها إلى زمن متأخّر.

كما درجت الجيوش على استخدام رؤوس التلال والجبال لتأمين التواصل بين وحداتها. فعلى سبيل المثال أقام الصليبيون سلسلة قلاع وحصون على رؤوس المرتفعات امتدّت من فلسطين جنوباً إلى آسيا الصغرى شمالاً، وما تزال آثارها باقية إلى أيامنا هذه. واعتمد الصليبيون نظام الاتصال النظري بين هذه القلاع والحصون فتمكّنوا من نقل المعلومات والأوامر والإفادات بسرعة فائقة.

أما القبائل العربية في العصر الجاهلي، فعلاوة على استخدام النيران في النظام العسكري، فقد درجت على إبقائها موقدة ليلاً في الصحراء ليستدلّ بها عابر السبيل إلى مكان القبيلة المضيافة فيقصدها. فشبه الجزيرة العربية، ذات الطبيعة الصحراوية القاحلة، فرضت على قاطنيها تقاليد الضيافة والكرم. وكان البخل الجاهلي من أشدّ العادات كرهاً لدى البدوي. فمن أقذع الهجاء ذلك الذي يصف صاحبه بالبخل، ومنه قول الشاعر:

«قومٌ إذا استنبَحَ الأَضيافُ كَلْبَهُمُ
قَالُوا لأُمِّهِمُ : «بُولِي عَلَى النارِ»
فَتَمنَعُ البَولَ شُحّاً لا تَجودُ به
ولا تَبُولُ لَهُمْ إلاَّ بِمِقْدَارِ»

٣١ - يوم ذي طلوح

هو يوم بين بكر وتميم. ولهذا اليوم سبب غير حب الغزو، وتفاصيله ان رجلاً من تميم يدعى عميرة بن طارق اليربوعي[1] تزوّج امرأة من بكر اسمها «مرية بنت جابر العجلي» وسار إلى أهلها، وترك امرأة ثانية كان قد تزوّجها في تميم اسمها «ابنة النطف».

(١) يربوع: بطن من تميم.

وصدف أن زار مرية أخوها أبجر وقال لها[1]:

«إني لأرجو أن آتيك بابنة النطف امرأة عميرة»، ويقصد أنه يريد أن يأخذها منه بدلاً عن أخته.

غضب عميرة لاعتقاده أنّ أبجر يريد أن يغزو تميم لسبي امرأته، فجمع والحوفزان بن شريك الشيباني اللهازم وشيبان ووكلا بعميرة من يحرسه خوفاً من إبلاغ قومه بالغزو. لكن عميرة احتال على آسريه وهرب منهم وأبلغ بني يربوع بالأمر فأخذوا حذرهم.[2]

التقى الجيشان في ذي طلوح حيث جرى قتال عنيف فهزمت بنو شيبان واللهازم وفازت يربوع.

التقييم:

أ - أسباب هذا القتال حبّ السلب والنهب والأسر، وكلّها عادات جاهلية درجت عليها القبائل العربية التي عُرف مقاتلوها بالبأس والشدّة وإتقان قتال الكرّ والفر.

فالكرّ هو عملية تقوم خلالها مجموعة من المقاتلين بمهاجمة مساكن قبيلة ومصادرة قطعان ماشيتها وأسر نسائها وأولادها. أما الفرّ فيعني الانسحاب التكتيكي بسرعة والفرار بعيداً عن منطقة نفوذ القبيلة التي تعرّضت للهجوم لمنع مقاتليها من ملاحقة المهاجمين واستعادة ما أخذوه منهم.

ب - أحسن عميرة بتخلّصه من الأسر والإسراع نحو قبيلته وإبلاغها عن الغزو الذي كان يحضّره أبجر ضدها. فقد أخذت يربوع حذرها واستنفرت مقاتليها وتمكّنت من ردّ الهجوم والانتصار في القتال.

وهنا نعود للتأكيد، مرّة أخرى، على أهمية الاستعلام عن العدو ونشاطاته بهدف تحضير الخطط لمواجهته.

حالياً، وعند تنظيم أمر عمليات استراتيجي من قِبَل الوحدات العسكرية الكبرى، تُدرَج المعلومات عن العدو في البند الأول منه. لذلك تشكّل هذه المعلومات ضرورة أساسية للقيادة التي تجنّد أجهزة استخباراتها للحصول عليها، كما سبق القول.

---

(١) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٠٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٠٤.

٣٢ - يوم أقرن

وقع بين عبس وتميم، إذ غزا عمرو بن عمرو بن عدس التميمي بني عبس وصادر إبلهم واستاق سبيهم وعاد. لكن الطلب العبسي لحقه فجرت معركة بين الفريقين قَتَل خلالها أنسُ الفوارس بن زياد العبسي عمراً وابنه حنظلة. واستردّ العبسيون الغنيمة والسبي(١).

٣٣ - يوم السلاّن

جرى بين عامر بن صعصعة والقبائل الموالية للنعمان بن المنذر وخاصة بنو كلب. وكان النعمان يجهّز كلّ سنة لطيمة، وهي للتجارة، إذ أنها تباع بعكاظ. اعترض بنو عامر لبعض ما جهّز، فغضب وكلّف أخاه لأُمه وبرة بن رومانوس الكلبي والقبائل الموالية له من الرباب وتميم بالتحضير للقيام بحملة ضدّ بني عامر.

اجتمعت الجموع في جيش كبير وجهّز النعمان معهم إبلاً وأمرهم بتسييرها، وأن يقصدوا بني عامر بنواحي السلاّن لمحاربتهم.

ولمّا فرغ الناس من عكاظ علم الحاضرون فيها بأمر اللطيمة، فأرسل عبدالله بن جدعان من قريش رسولاً إلى بني عامر يعلمهم الخبر ويحذّرهم. وهكذا أخذوا حذرهم وتحضّروا للحرب، فالتقى الجيشان بمنطقة السلاّن ودار قتال عنيف طوال النهار فأُسر وبرة بن رومانوس شقيق النعمان. وهمّ جيشه بالانهزام فنهاهم ضرار بن عمرو الضبّي.

وكانت نتيجة القتال هزيمة جيش النعمان وانتصار عامر بن صعصعة(٢).

٣٤ - يوم ذي علق

وهو يوم التقى فيه بنو عامر بن صعصعة وبنو أسد بذي علق فاقتتلوا قتالاً عظيماً قتل في المعركة ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري أبو لبيد الشاعر. وانهزمت

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٥٠٥.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ٥٠٦ - ٥٠٧.

عامر فتبعهم خالد بن نضلة الأسدي وابنه حبيب والحرث بن خالد بن المضلل. وأمعنوا في الطلب فلم يشعروا إلاّ وقد خرج عليهم أبو براء عامر بن مالك من وراء ظهورهم في نفر من أصحابه، فقال لخالد: «يا أبا معقل إن شئت أجزتنا وأجزناك حتى نحمل جرحانا وندفن قتلانا». قال: «قد فعلت». فتواقفوا، فقال له أبو براء: «هل علمت ما فعل ربيعة؟» قال: «نعم تركته قتيلاً». قال: «ومن قتله؟» قال: «ضربته أنا وأجْهَزَ عليه صامت بن الأفقم». فلمّا سمع أبو براء بقتل ربيعة حمل على خالد هو ومن معه، فقاومهم خالد وصاحباه، وأخذوا سلاح حبيب بن خالد. ولحقهم بنو أسد فمنعوا أصحابهم وحموهم.

٣٥ - يوم الرقم

نقل ابن الأثير عن أبو عبيدة واقعة يوم الرقم كالآتي[١]:

«غزت عامر بن صعصعة غطفان، ومع بني عامر يومئذ عامر بن الطفيل شاباً لم يرأس بعدُ. فبلغوا وادي الرقم وبه بنو مرة بن عوف بن سعد ومعهم قوم من أشجع بن ذئب بن غطفان، وناس من فزارة بن ذبيان. فنذروا ببني عامر وهجمت عليهم بنو عامر بالرقم وهو واد بقرب تضرّع فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً. فأقبل عامر بن الطفيل فرأى امرأة من فزارة فسألها فقالت: «أنا أسماء بنت نوفل الفزاري»، وقيل: «كانت أسماء بنت حصن بن حذيفة». فبينا عامر يسألها خرج عليه المنهزمون من قومه وبنو مرة في أعقابهم. فلما رأى ذلك عامر ألقى درعه إلى أسماء وولى منهزماً فأدتها إليه بعد ذلك. وتبعتهم مرة وعليهم سنّان بن حارثة بن أبي حارثة المري وجعل الأشجعيون يذبحون كلّ من أسروه من بني عامر لوقعة كانت أوقعتها بهم بنو عامر، فذبحوا سبعين رجلاً منهم».

٣٦ - يوم ساحوق

هو يوم بين ذبيان وعامر، غزت فيه ذبيان بني عامر فيما كانوا في منطقة ساحوق. وكان

(١) المرجع نفسه، ص ٥٠٨ - ٥٠٩.

رئيس ذبيان سنّان بن أبي حارثة المرّي الذي زوّد مقاتليها بالخيل والإبل، فتمكّنوا من مصادرة نعم كثيرة من عامر.

لكن مقاتلو قبيلة عامر لاحقوهم فتمكّنوا في بلوغهم والتصدّي لهم، فجرت معركة عنيفة بين الفريقين هزم خلالها بنو عامر وأصيب عدد كبير من رجالهم وفرّ الباقون إلى الصحراء حيث هلك أكثرهم عطشاً إذ كان الحرّ شديداً.

لاحق رجال عامر المنهزمين فقتلوا الذين أدركوه منهم. نقل ابن الأثير أن الحكم بن الطفيل خاف أن يؤسر فجعل حبلاً في عنقه وصعد إلى شجرة وشدّه وأدلى نفسه فاختنق[1].

٣٧ – يوم أعيار

كان المثلّم بن المشجّر الضبيّ مجاوراً لبني عبس، فلعب الميسر مع عماره بن زياد وخسر، فرهن ابنه شرخاف عنده بانتظار دفع ما عليه. ثمّ عاد المثلّم وأدّى ما عليه وذهب مع ابنه. ولمّا كانا في الطريق أخبره ابنه أنه سمع عمارة يقول أنه هو الذي قتل أحد أقاربه ويدعى معضال ولم يطالب أحد بثأره.

جمع المثلّم جمعاً كبيراً من عبس وأغار على بني ضبّة فصادر إبلهم وقتل عمارة. واقتتلت ضبّة وعبس فاسترجعت الأولى الإبل وعادت بها إلى قبيلتها.

٣٨ – يوم النبات

للثأر من يوم الرقم ويوم ساحوق، أغار مقاتلو بني عامر على نِعَم بني عبس وذبيان وأشجع فصادروها وعادوا إلى بلادهم. وفي الطريق ضلّوا المسالك فسلكوا وادي النبات الذي لا مخرج منه حتى قاربوا نهايته وكاد الجبلان حوله يلتقيان.

لحقتهم عبس وذبيان وأشجع ودار قتال عنيف انهزمت عامر في نهايته وقتل جمع كبير من رجالها.

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٥٠٩.

٣٩ – يوم الفرات

أغار المثنى بن حارثة الشيباني على بني تغلب قرب الفرات فظفر بهم وقتل من أخذ من مقاتليهم. وغرق قسم منهم في النهر. وأخذ المثنى أموالهم وقسّمها بين أصحابه.

٤٠ – يوم بارق

هو يوم وقع بين شيبان من جهة وتغلب وتميم من جهة ثانية، انتصرت فيه شيبان وأوقعت بتغلب وتميم فقتلت منهم مقتلة عظيمة لم تصب تغلب بمثلها. واقتسم مقاتلو شيبان الأسرى والأموال.

٤١ – يوم طخفة

وهو لبني يربوع على جند النعمان بن المنذر. وسببه أن الوزارة لدى النعمان كانت لبني يربوع، فطلب منهم النعمان التنازل عنها لصالح بني تميم فرفضوا طلبه.

أرسل النعمان جيشاً كبيراً قاده أخوه حسان وابنه قابوس، فسار الجيش حتى جاء طخفة فالتقى بني يربوع حيث جرت معركة انهزم فيها جند النعمان وأُسر ابنه قابوس وأخوه حسان.

عاد المنهزمون إلى النعمان الذي أبقى الوزارة لبني يربوع وأبقى لهم ما غنموا في القتال وأعطاهم ألفي بعير لقاء إطلاق سراح ابنه وشقيقه.

٤٢ – يوم النباح وثيتل

غزت قيس بطون من تميم ومعها سلامة بن ظرب الحماني فجرى قتال شديد انهزمت خلاله بطون تميم.

٤٣ – يوم فلج

هو غزوة بسيطة سببها أن جمعاً من بكر ساروا إلى الصعاب وشتوا. فلما انقضى الربيع انصرفوا، فمروا بالدّو حيث وجدوا أناساً من تميم فأغاروا على نعم كانت لهم. ومضوا، فنادى التميميون وأقبلوا على آثار بكر، وساروا يومين وليلتين حتى أجهدهم السير. وانحدروا في بطن فلج والتقوا هناك،

وانهزمت تميم وبلغت بكر منها ما أرادت. وكان في جملة الأسرى عند بكر شاعر تميمي اسمه خالد بن مالك، فأطلقه رجل من بكر اسمه عرفجة وجز ناصيته.

٤٤ - يوم الشّيطين

كان الشيطين موضعاً لبكر بن وائل، فلمّا ظهر الإسلام انتقلت منه إلى السواد فنزل بهم وباء الطاعون فعادوا بسرعة ونزلوا «لعلع» وكان المكان مجدباً. أما الشيطين المخصب فكانت قد انتقلت إليه جموع من تميم.

أرادت بكر العودة إلى الشيطين فاجتمعت وقررت الإغارة على تميم، فارتحلوا من لعلع واجتازوا إلى الشيطين بأربع ليالٍ فيما أن المسافة بينهما تتطلّب مسيرة ثماني ليال، فسبقوا كلّ خبر حتى داهموهم فجأة فقاتلوهم قتالاً شرساً. صبرت تميم ثمّ انهزمت، فاستعادت بكر الشيطين(١).

التقييم:

من دراسة أيام العرب يتبيّن أنّ أسبابها متعدّدة ومتجذّرة في التراث القبلي الجاهلي، وأهم هذه الأسباب هي:

- الصراع على النفوذ والسيطرة على القبائل الأخرى.
- الأسباب الاقتصادية والتوسع في المعاش والأملاك.
- السيطرة على مناطق الرعي والواحات الزراعية.
- سلب الأموال والمواشي أو استعادة المسلوب منها.
- سبي النساء والأولاد.
- خطف فتاة بقصد الزواج رغم معارضة أهلها.
- الأخذ بالثأر.
- الدفاع عن الأملاك والعائلة.
- إنقاذ الرهائن من أيدي القبائل الأخرى.
- ظلم القبيلة المسيطرة للقبائل الأخرى التي تتحد فتحاربها لنيل استقلالها.

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٥١٦.

- إجارة الهارب أو الملهوف من قبل أحد زعماء القبائل، الأمر الذي يعرّض قبيلته لغضب من يلاحق الذي أجاره.

- الأحلاف التي كانت تعقد بين القبائل ضد القبائل الأخرى.

- روح الزهو والتكبّر والاستهانة بالآخرين (حرب البسوس).

- تداخل مناطق النفوذ والرعي.

- الاعتداء على أبناء القبيلة الذين يستفردون في الفيافي والوهاد.

- سباق بين فرسين (حرب داحس والغبراء).

- التمنّع عن إيفاء دين أو التقيّد بنتيجة رهان.

- تعيير أبناء القبيلة أو الهزء بهم أو هجاؤهم شعراً.

- الغدر بالآخرين.

- تنفيذ سياسة الدول المسيطرة على أجزاء من شبه الجزيرة العربية تجاه القبائل الخاضعة لهذه السيطرة. وهذه السياسة قد تقضي بإعادة إخضاع قبيلة عاصية أو تأديب أخرى أو إلزامها دفع الأتاوة، أو لأسباب أخرى.

- انتهاء زمن الموادعة والهدنة.

- التصدّي للقوافل التجارية ونهبها.

- المفاخرة بين القبائل.

- الخلافات الشخصية بين أنصار القبائل.

- قتل الرهائن والأسرى.

وإذا أجرينا مقارنة سريعة بين هذه الأسباب وأسباب الحروب والمعارك التي كانت تحصل خلال العصور الإسلامية لظهر لنا جلياً أن المفاهيم القبلية للحروب أبدلت بمفاهيم الجهاد في سبيل الله والدين وفتح المدن والقلاع والحصون والمواقع بقصد نشر الدين الإسلامي، وإخضاع المرتدين عن الدين الحنيف إثر وفاة النبي ﷺ، وإخماد الثورات والدفاع عن إنجازات الحضارة العربية الإسلامية، والسيطرة على الشرق الأدنى وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا والأندلس وضمّها إلى العالم الإسلامي.

أمّا الدروس التي يمكن استقاؤها من المعارك المذكورة، فنختصرها بالآتي:

أ - درج عرب الجاهلية على مباغتة أخصامهم بالهجوم السريع والمفاجئ عليهم فيما هم آمنون، وكانت المفاجأة تؤدي إلى

النصر. أما حين كانت أخبار الغزو تبلغ مسامع القبيلة المستهدفة فإنَّ كفّة النجاح كانت تميل إلى الأقوى، أو الذي يُحس تطبيق مبادئ الحرب وفنون القتال.

ب - كان بعض المقاتلين المنهزمين يفرّون إلى البادية حيث يهلكون جوعاً وعطشاً بسبب شدّة الحرّ.

ج - سجّل حادث انتحار فريد إثر معركة ساحوق، إذ أنّ العربي لم يكن يلجأ إلى هذا التدبير بسبب قوّة شكيمته وصبره على المكاره وشدّة احتماله للصعوبات.

كما سجّل حادث قتال فريد آخر بسبب لعب المسير، وذلك في معركة يوم أعيار.

د - من الملاحظ أنّ الوقائع والحروب خلال العصر الجاهلي كانت تُشن أحياناً لأسباب واهية وبسيطة، فتجتمع القبائل وتقتتل طويلاً، فيقع خراب ودمار وخسائر تفوق أحجامها سبب الخلاف بأضعاف مضاعفة.

هـ - خلال وقعة يوم النبات، وبعد أن أغار مقاتلو بني عامر بنجاح على نِعَم لعبس وذبيان فصادروها، ضلّوا طريق العودة فلحقهم مقاتلو عبس وذبيان فهزموهم واسترجعوا النعم. وهذا ما يؤكّد ضرورة الاستعانة بأدلاء في الصحراء حيث تصعب معرفة الاتجاهات.

حالياً، تعمد الجيوش إلى استخدام وسائل توجيه متطوّرة للتثبّت من الاتجاهات الواجب سلوكها.

و - خلال المرحلة الزمنية التي نعالجها في هذا الكتاب كان الحق دوماً إلى جانب القبيلة المسيطرة في ظلّ غياب دولة مركزيّة تفرض العدل والمساواة. هذا الواقع عرفته كلّ الشعوب البدائية لأنّ مفهوم الدولة هو مفهوم حديث ومتطوّر. وردت في كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» مطالعة واضحة عن تطوّر الواجب العسكري أمام الخطر عبر العصور، إذ جاء فيه ما يأتي[1]:

«الحاجة إلى الجيوش قديمة جداً في التاريخ. لكنها لم تكن ترتدي المظهر نفسه خلال جميع العصور الغابرة. فمنذ الحضارات القديمة، برزت الحاجة إلى حماية التجمّعات السكنية من هجمات الطامعين في المأكل والماشية والمحاصيل الزراعية.

(١) ريحانا، عميد د.، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ١٥.

وهكذا تنادى الأوائل من جدودنا للقيام بواجب الدفاع عن الأنفس والأرزاق. لكن هذه الخدمة العسكرية لم تكن حينذاك دائمة، رغم أنها كانت تستقطب جميع الرجال القادرين على حمل السلاح.

ومع تطوّر الحضارة حتى بلوغ مجتمع الدولة المدينة، برزت الحاجة إلى جيوش شبه نظامية للمراقبة والرصد وللقيام بالحركات العسكرية الأولى الهادفة إلى إنهاك العدو المعتدي على المدينة ومناورته بانتظار استدعاء الإحتياط الأول وتنفيذ المناورات العسكرية الكبرى التي تهدف إلى دحره وإخراجه من البلاد».

٤٥ – الحروب بين الأوس والخزرج

يثرب، أو المدينة المنوّرة، هي المدينة التي هاجر إليها النبيّ ﷺ. أوّل من نزلها العماليق وأقامت فيها قبائل منهم، ثمّ نزلها اليهود. ثمّ نزلها الأوس والخزرج وهم بطون من الأزد الذي يقول العرب إنهم من كهلان وإنهم نزحوا إليها من اليمن بعد سيل العرم.

استبدّ ملك اليهود بالأوس والخزرج فاستنجدوا بالغساسنة، وقيل بالتبابعة، فأعانوهم وانتقموا لهم من اليهود، فأمسى الأوس والخزرج من أعزّ أهل المدينة وعرفوا ما بعد بـ«الأنصار» لأنهم نصروا النبيّ ﷺ لمّا هاجر إليهم.

أمّا الحروب بينهم فقد بقيت جموعهم في اتفاق حتى وقع الاختلاف وجرت معارك أولها عرف بحرب سمير.

أ – حرب سمير:

سبب هذه الحرب أن كعباً بن العجلان من ثعلبة، نزل على مالك بن العجلان السالمي وحالفه، ثمّ خرج يوماً إلى سوق بني قينقاع[1] فشاهد رجلاً من غطفان ينادي على فرس معه قائلاً[2]:

(١) «قينقاع» هو إسم إحدى قبائل اليهود الثلاث في المدينة. أما القبيلتان الأخريان فهما بنو النضير وبنو قريظة. وقد لعبت هذه القبائل دوراً سلبياً تجاه النبي محمّد ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، سنفصله في الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥١٩.

«ليأخذ مني هذا الفرس أعزّ أهل يثرب».
اختلف الحاضرون حول هوية أعز رجال يثرب، فأعطى الرجل الفرس إلى مالك بن العجلان وسط تهليل من نسيبه كعب.

غضب رجل من بني عمرو بن عوف اسمه سمير، فاستفرد كعب وقتله. ثمّ عرض الوسطاء دفع دية القتيل، فقبل مالك بن العجلان. لكن خلافاً وقع حول قيمة الديّة[١]، فقد أبى مالك إلاّ أخذ دية كاملة رغم أنه ينالها عن حليفه وليس عن نسيبه.

تفاقم الوضع بين الجانبين فجرى قتال عنيف بين الأوس والخزرج كان النصر فيه للأوس.

ثمّ جرت وقائع عديدة بينهما منها[٢]:

- حرب كعب بن عمرو المازني التي جرت بين بني حجبا من الأوس وبني الحرث من الخزرج، انتصر فيها الخزرج.
- حرب الحصين بن الأسلت بين بني وائل بن زيد من الأوس وبني مازن بن النجار من الخزرج، فاز فيها الخزرج.
- حرب ربيع الظفري بين بني ظفر من الأوس وبني مالك بن النجار من الخزرج، انتصر فيها الخزرج أيضاً.
- حرب قاطع وحاطب.
- يوما الربيع والبقيع فازت فيهما الأوس.

وكانت القبيلتان تتصالحان بعد كلّ حرب أو وقعة، ثمّ تعودان إلى القتال مجدّداً لأسباب يرجع أكثرها إلى العنجهية الجاهلية والأنفة وروح الثأر.

ب - يوما الفجار للأنصار:

هما غير يومي الفجار بين كنانة وقيس. حصل اليوم الأول عندما قتلت الأوس غلماناً للخزرج كانوا رهائن عندها، فجمعت الخزرج جموعها في قرية بضواحي المدينة اسمها «الحدائق» بقيادة عبدالله بن أبي بن سلول. وكان قائد الأوس أبو قيس بن الأسلت.

اقتتل الجانبان قتالاً مريراً حتى كاد بعضهم يفني البعض الآخر. ودعي هذا

(١) كانت دية الحليف نصف دية النسيب.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٣٤.

اليوم يوم الفجار كون الأوس غدروا بالغلمان، وهو الفجار الأول.

والتقى مجدّداً الأوس والخزرج عند معبس ومضرس[1] فاقتتلوا بضراوة وانهزم مقاتلو الأوس حتى دخلوا منازلهم[2].

ثمّ اتجهت الأوس إلى مكّة لتحالف قريشاً، وأظهرت أنّ رجالها يريدون العمرة. وكانت عادتهم أنهم إذا أراد أحدهم العمرة، أو الحج، لم يعرض إليه خصمه بسوء. وهكذا ساروا إلى مكة وحالفوا قريشاً، وكان أبو جهل غائباً فرفض، وتخلّص القرشيون من حلفهم مع الأوس.

أمّا يوم الفجار الثاني فكانت الأوس قد طلبت من قريظة والنضير[3] أن يحالفوهم ضد الخزرج. بلغ الخبر الخزرج فهدّدوا قريظة والنضير وأخذوا منهم أربعين غلاماً كرهينة. ولمّا أخلّت القبيلتان بالاتفاق قتلت الخزرج كلٌّ من كان عندهم من الرهائن، فاجتمعت الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودعي ذلك يوم الفجار الثاني بسبب قتل الخزرج الغلمان[4].

ج - يوم بُعاث:[5]

جدّدت قريظة والنضير حلفها مع الأوس، فقامت الخزرج بحشد جموعها وراسلت حلفاءها من أشجع وجهينة، كما انضمّ إلى الأوس حلفاؤها من مزينة. استغرقت الاستعدادات للحرب أربعين يوماً قبل أن يلتقي الخصمان في بعاث[6] فيقتتلا قتالاً شديداً.

انهزمت جموع الأوس وولّوا هاربين نحو العريض قبل أن يشدّد قائدهم من عزائمهم فيعودون للقتال، فيقتل قائد الخزرج عمرو

---

(١) معبس ومضرس جداران تمركز المحاربون خلفهما.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٣٥.

(٣) قبيلتان يهوديتان من قبائل المدينة.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٣٦ - ٥٣٧.

(٥) بعاث: من أعمال قبيلة قريظة اليهودية.

(٦) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٣٦ - ٥٣٧.

بن النعمان وتنهزم أمام الأوس الذين أحرقوا دور الخزرج ونخيلهم.

ويوم بعاث كان آخر الحروب البارزة بين الأوس والخزرج كون كلمتهما اتفقتا بعد هجرة النبيّ محمّد ﷺ إلى مدينتهم ونصرته منهم جميعاً حيث لقبوا بـ«الأنصار»(١).

د - التقييم:

أ - نلاحظ أن الصراعات القبلية كانت متأصّلة في نفوس سكّان المدينة المنوّرة أو يثرب، لأسباب عرقية ودينية. فقد سكنت المدينة قبائل عربية تعود بأصولها إلى قبيلتي الأوس والخزرج.

كتب جرجي زيدان أن «أهلها من غير عدنان، يزعمون أن أصلهم من اليمن في جملة من هاجرها بعد سيل العرم...(٢)

ثمّ نزل المدينة اليهود منذ أقدم أزمانها، قيل أنهم أتوها منذ أيام موسى في أثناء حروبه مع الكنعانيين...

ثمّ نزلها الأوس والخزرج وهم بطون من الأزد الذين يقول العربِ انهم من كهلان».

هذا التنوّع السكاني أدى إلى الصراعات التي أدرجناها في الفقرة السابقة. إلاّ أنه، وبعد هجره النبيّ محمّد ﷺ إليها، تمكّن ﷺ من توحيد أهل المدينة مع المهاجرين إليها من مكّة المكرّمة تحت راية الإسلام موحداً الجميع ومستبعداً الحروب بينهم، رغم الخلافات السابقة التي كانت تسود تاريخهم. وهذا ما سنفصّله في الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

ب - كانت ديَّة الحليف في المدينة نصف ديَّة النسيب، لذلك اعتبر أنصار القاتل سمير أن كعباً بن العجلان المقتول هو حليف لمالك بن العجلان، فيما رأى هذا الأخير أنه نسيبه نظراً إلى الرابط العائلي بينهما، وهكذا اختلف الفريقان على قيمة الدية.

إلاّ أننا لا نرى ذلك سوى سبب واهٍ لقيام حروب طويلة بين قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كانت تفرّقهما مصالح قبلية متجذّرة في تاريخهما كونهما تقطنان في المدينة نفسها.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ١، ص ٥٣٨ - ٥٣٩.

(٢) زيدان، مرجع سابق، جزء ٢٩، ص ١٣٢.

ج - أقدمت الأوس على قتل رهائن للخزرج كانوا عندها، فاعتبر ذلك غدراً بالآمنين لم يكن من شيم العربي في العصر الجاهلي. فقلّما نقل المؤرّخون أخباراً عن أحداث مماثلة لدى القبائل العربية التي كانت تسود صفوفها روح الشرف والإباء والضيافة والكرم والمحافظة على الجار الملهوف والضعيف.

لذلك استعدّت قبيلة الخزرج للحرب طلباً للثأر، وخاضتها بتصميم وحماس فتمكّنت من إيقاع هزيمة نكراء بالأوس ألجأتها إلى مكّة لطلب العون من قريش.

د - في يوم بُعاث، وبعد أن هُزمت جموع الأوس وولوا هاربين، تمكّن قائدهم من تشديد عزائمهم وإعادتهم للقتال وقيادتهم إلى النصر.

وهنا نعود للتأكيد على دور القائد في القتال الذي يشكّل المحور الأساسي للمعركة والمحرّك الأول لعزائم رجاله. والتاريخ العسكري حافلٌ بإنجازات عسكرية بارزة لقادة كبار رغم رجحان ميزان القوى إلى جانب أخصامهم. فالقائد الناجح يعوّض عن عدم تقيده بمبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل) بمزايا عملانية أخرى، منها:

- قيمته القيادية.
- الخطة العملانية الناجحة.
- تحفيز عناصره وتشديد عزائمهم ودفعهم إلى الاستبسال في القتال.
- تطبيق قواعد الحدّة والاستمرارية والمناورة الناجحة والمفاجأة واختيار المكان والزمان... إلخ.

فالتطبيق الرائع لمبادئ الحرب وقواعد الفن العسكري مكّن كبار القادة عبر عصور التاريخ العسكري الطويلة من خوض معارك ناجحة ضدّ خصوم يفوقون جيوشهم عدداً وعدّة، إنما يقصّرون عنهم في الروح المعنوية والمزايا القيادية. فالمقارنة بين جيشين لا تقتصر على عدد المقاتلين الذين يمكنهما جمعهم في ساحة القتال، إنما تتعدّى ذلك لتشمل المعنويات والحوافز النفسية وفنّ القيادة ونوعية الجند ووسائل القتال ونوعيتها ودرجة التنظيم والانضباط في ساحة القتال.

٤٦ - سيطرة ثقيف على الطائف

كانت أرض الطائف قديماً لعدوان بن عمرو من قيس عيلان من مضر. فلما تزايد أفراد قبيلة عامر بن صعصعة غلبوا قيس عيلان على الطائف بعد قتال ضار، فأصبحوا يُمضون صيفهم بالطائف وشتاءهم بأرض نجد، وكانت مساكن ثقيف حول الطائف.

أعجبت ثقيف بأرض الطائف بسبب نباتها وطيب ثمرها فاتفقت مع بني عامر على أن تزرع ثقيف أرض الطائف لقاء منح بني عامر نصف الإنتاج.

وَفَتْ ثقيف بالاتفاق حيناً من الدهر قامت بعده بمنع عامر من جني نصف الثمار مما أدى إلى قتال بينهما. وكان بنو ثقيف بطنين: الأحلاف ومالك، سيطرت الأحلاف وأثرت وكثرت خيلها فأقامت حمى لها في أرض بني نصر من بكر بن هوازن مما أدّى إلى الحرب بين الأحلاف وبني نصر.

أفاد بنو مالك من فرصة الحرب للتحالف مع بني يربوع ضد الأحلاف مما أدّى إلى القتال بينهما فانتصر الأحلاف وأخرجوا بني مالك من الطائف. ثمّ اقتتلوا أياماً عدّة منها يوم عمر ذي كِنْدة ويوم كروبا الذي اقتتلوا فيه أشدّ قتال.

٤٧ - يوم ذي قار

هو يوم مشهور انتصرت فيه القبائل العربية على جيوش الفرس، نقل أخباره الطبري، ونأخذها عنه(١).

أ - ظروف المعركة:

وسبب الحرب قتل النعمان بن المنذر اللخمي أحد تراجمة كسرى بن هرمز المدعو عدل بن زيد العباديّ. وكان عدي قد ربّى النعمان في قبيلته. وكان قابوس عمّ النعمان قد أرسل إلى كسرى بعدي بن زيد وإخوته فأصبحوا من كتّابه ومترجميه، وكان ذلك بعهد المنذر والد النعمان.

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، الجزء ١، ص ٤٧٠ - ٤٨٢.

فلمّا توفي المنذر تسلّم الحيرة مكانه إياس بن قبيضة الطائي بانتظار أخذ قرار كسرى بتمليك النعمان إبنه، فبقي إياس أشهراً عليها دون أن يقرّر كسرى. ثمّ دعا كسرى عدي بن زيد واستشاره في من يملّك. وكان عدي يفضّل النعمان، لذلك اختاره كسرى وملّكه وكساه وألبسه تاجاً قيمته ستون ألف درهم فيه اللؤلؤ والذهب.

واستلم النعمان الحكم في الحيرة. وكان من بني مرينا رجل اسمه عدي بن أوس بن مرينا كثير المال والضياع، أكثر من الهدايا للنعمان فصار من أكرم الناس عنده.

عمل عدي بن مرينا على تأليب النعمان على عدي بن زيد، فقام بكتابة رسالة له استدعاه فيها إلى الحيرة حيث وضعه في السجن. ولمّا طال سجنه كتب عدي إلى أخيه عند كسرى بما حصل معه. أعلم أخوه كسرى فأرسل كتاباً إلى النعمان لإطلاقه.

لكنّ أعداء عديّ أشاروا على النعمان بقتله في سجنه قبل استقبال رسول كسرى ففعل. كما تمّت رشوة الرسول لإخبار كسرى بأنه توفي في السجن قبل وصول الرسالة إلى النعمان، ففعل ورضي كسرى.

وكان للملوك الأعاجم عادة هي طلب النساء من عمّالهم، لكنهم لم يكونوا يطلبون ذلك من العرب نظراً لشدّة محافظتهم على العرض. لكن بعض أخصّاء كسرى أشاروا عليه بطلب بعض من بنات النعمان وأهله، فكتب إليه بذلك. لكن النعمان قال للرسول: «أما في عين السواد وفارس ما تبلغون حاجتكم؟».

ولمّا سأل كسرى عن معنى العين قالوا له: البقر. فغضب، لكنه سكت عن ذلك أشهراً جعل النعمان خلالها يستعدّ للحرب محاولاً استنصار القبائل العربية.

أخيراً، أودع النعمان سلاحه وعياله لدى هانيء بن مسعود الشيباني سراً، وكان بنو شيبان ينزلون بذي قار، وذلك قبل أن يتوجّه إلى المدائن حيث قتل.

وبعد قتل النعمان استعمل كسرى على الحيرة إياس بن قبيضة الطائي وسأله:

«- أين تركة النعمان؟» - أجاب إياس:

«- قد أحرزها في بكر بن وائل».

فأمر كسرى إياس أن يستولي عليها ويرسلها إليه.

رفض هانيء تسليم الوديعة فغضب كسرى وأمر باستئصال بكر بن وائل وحشد جموعه وأرسلها إلى ذي قار حيث كانت قبائل بكر بن وائل قد ولّت أمرها إلى حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العِجلي الذي أشار عليهم بالقتال. وكانت جيوش كسرى تضمّ الجنود والفيلة.

ب - مجرى المعركة:

قام هانيء بتوزيع أسلحة النعمان ودروعه على مقاتليه، على أن يردّوها بعد المعركة. كما قام العرب بتخزين ماء يكفيهم نصف شهر وقامت النساء العربيات تحمّس رجالهنّ بالأبيات الشهيرة التالية(١):

«إن تُقدمُوا نُعانِق
ونَفْرُشُ النَمارِقْ
أو تُدبِروا نُفارِق
فُراقَ غَيرِ وَامِقْ»

أبلت قبائل بكر بن وائل البلاء الحسن في القتال، وعطش الأعاجم فمالوا إلى بطحاء ذي قار حيث كان العرب قد كمنوا لهم في مكان يدعى «الجبّ». وكان هانيء بن قبيضة في وسطهم وعلى ميمنته يزيد بن مسهر الشيباني، وعلى ميسرته حنظلة بن ثعلبة العجلي.

قام هانيء بقطع وُضُن الهوادج(٢) فوقفت النسوة على الأرض لكي يبقيهم في ساحة القتال فيدافع المقاتلون عنهن بشراسة.

حملت ميسرة بكر على ميمنة الفرس الذين قتل رئيسهم الهامرز، وحملت ميمنة بكر على ميسرة الفرس، وخرج الكمين من جُبّ ذي قار من وراء جيش الفرس وهاجم قلب هذا الجيش وقائده إياس بن قبيضة الذي فَرَّ منهزماً، ثمّ تبعه الفرس منهزمين.

وهكذا انتصرت قبائل بكر بن وائل على جموع الفرس في إحدى أهم وقائع مرحلة ما قبيل الإسلام، ذي قار. وكانت هذه المعركة تمهيدية للمعارك العربية التي ستؤدّي إلى سقوط المملكة الساسانية.

---

(١) الطبري مرجع سابق، ص ٤٧٩.

(٢) وضن الهوادج: رباطه إلى الجمل أو الفيل.

لقد كانت قبائل بكر بن وائل أعظم قبائل العرب المعادية للفرس. وعندما بدأ انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية، اعتنقت هذه القبائل الإسلام. ومع قيام خلافة أبي بكر الصديق، كان أحد زعماء قبيلة شيبان بن بكر بن وائل، وهو المثنى بن حارثة، وقد أخذ زمام المبادرة بالعمل العسكري ضدّ الفرس.(١) لكنّ هذا الموضوع سيكون موضوع الأجزاء التالية من هذه الموسوعة.

ج - التقييم:

أ - تمكّمت قبائل بكر بن وائل من إيقاع هزيمة ساحقة في الجيوش الفارسية كانت تمهيداً لقيام الفتوحات الكبرى.

ب - أحسن قائد القبائل العربية هانيء بن مسعود إدارة المعركة ضد الفرس من خلال:

١ - توزيع أسلحة ودروع النعمان على المقاتلين واستعمالها في المعركة.

٢ - تخزين كميات كبيرة من الماء تكفي جيشه مدّة نصف شهر. وهذا ما مكّنهم من الصبر في القتال ودفع الفرس إلى مكان الماء حيث نصبوا لهم كميناً.

٣ - استخدام النساء في المعركة لزرع الحماس في نفوس رجالهن ودفعهم إلى الاستبسال في القتال للذود عن عرضهم. علاوة على ذلك قام هانيء بقطع وضن الهوادج لإبقاء النساء في ساحة القتال وتعريضهن لأطماع الفرس، الأمر الذي زاد في حماس رجالهن وبالتالي أمّن تطبيق مبدأ الحرب الثالث (الحصيل الأقصى للوسائل).

ج - ساهمت عملية تخزين الماء من قِبَل العرب في تأمين حرية عملهم (مبدأ الحرب الثاني) وفي فقدان الفرس لهذه الحرية إذ أنهم الزموا على التفتيش عن مصدر للماء فوقعوا في الكمين العربي المنصوب.

د - اعتمد العرب خلال المعركة استراتيجية هجومية فاعلة إذ قامت ميسرتهم بتنفيذ عملية هجومية على ميمنة الفرس أدّت إلى قتل رئيسهم الهامرز. كما حملت ميمنتهم على ميسرة الفرس الذين خرج الكمين عليهم من الوراء فوقعوا بين هجومين عربيين ففقدوا بذلك حرية عملهم.

(١) لعب المثنى بن حارثة دوراً بارزاً في المعارك التي أدت إلى فتح العراق وإنهاء وجود مملكة الفرس فيه.

لقد أحسن العرب تطبيق مبادىء الحرب الثلاثة:

- الأول، أي نسبية الأهداف للوسائل، من خلال تطبيق قواعد حشد كلّ مقاتلي قبائل بكر بن وائل وتوزيع الأسلحة والدروع عليهم.
- الثاني، أي حرية العمل، من خلال نصب الكمين وتخزين الماء وإجبار الفرس على الانتقال إلى مكان الكمين حيث يتوافر الماء بعد أن تعرّضوا لعطش شديد.
- الثالث، أي الحصيل الأقصى للوسائل، من خلال تطبيق استراتيجية هجومية فاعلة أدّت إلى مقتل رئيس الفرس وإلى تطويق جموعهم وإفقادهم حرية عملهم.

وهكذا انتصرت قبائل بكر بن وائل على الفرس في أهم معركة سبقت قيام الإسلام، وكانت تمهيدية لغزو المملكة الساسانية من قبل الجيوش العربية الإسلامية وإزالتها من الوجود. لقد أنهت معركة ذي قار أسطورة تفوق الفرس على العرب في الحرب وإخضاع قبائلهم لسلطة المملكة الساسانية بواسطة دولة المناذرة التي أقاموها في الحيرة. فعندما اتحدت قبائل بكر بن وائل المتفرّقة تمكّنت من تحقيق النصر على أبرز قوّة عسكرية في الشرق الأدنى، مؤكّدة القول المأثور «في الاتحاد قوة».

الخلاصة:

تطرّقنا سابقاً إلى واقعة الفيل حين هاجم أبرهة ملك اليمن مع جيش الحبشة مكّة المكرّمة السنة ٥٧٠م. بقصد هدم الكعبة. ولمّا كان لهذه الواقعة أهمية قصوى بالنسبة للأجزاء اللاحقة من موسوعتنا هذه والتي تتعرّض للقادة والمعارك العربية الإسلامية عبر التاريخ، فقد رأينا ضرورة إنهاء هذا الجزء ببعض الأفكار عن أهمية هذه الواقعة في التاريخ الإسلامي.

ففي عام الفيل وُلد النبيّ العربي ﷺ الذي غيّر المفاهيم التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية من مختلف النواحي. فنعت العرب في الجاهلية بجهل الدين الحنيف أبدله النبيّ محمّد ﷺ بإرشادهم إلى هذا الدين الذي اعتبر ثالث الديانات السماوية. واعتماد المقاتلين العرب في القبائل على مفاهيم الغزو والسلب والثأر والحروب الداخلية، أبدلها الرسول ﷺ بمفاهيم الجهاد

في سبيل الله والتعاون والمؤازرة في سبيل نشر الدين الإسلامي.

وأيام العرب التي سبق الحديث عنها والتي لاحظنا أنها كانت تدور بين القبائل المتحدّرة من نفس العرق لأسباب شخصية وواهية، أبدلها النبيّ محمّد ﷺ بالفتوحات الكبرى في سبيل نشر الدين. هذه الفتوحات قامت على أكتاف قادة عرب مسلمين سهر النبيّ ﷺ على تدريبهم وتنشئتهم، ليس فقط دينياً، إنما أيضاً عسكرياً وسياسياً وإدارياً وأخلاقياً.

وواقعة الفيل أظهرت، على الأقل في أفكار العرب، قدسية الكعبة ومكّة المكرّمتين، وأظهرت ضرورة توحّد العرب لردّ الأخطار الخارجية عن بلادهم أولاً، والتوسّع ثانياً. وهذا الأمر تحقّق مع الإسلام إذ توحّدت القبائل العربية للمرّة الأولى في تاريخها وخرجت من شبه الجزيرة في مشروع ضخم، ربما اعتبره أوائل منفّذيه من المستحيلات، إلاّ أنه تحقّق.

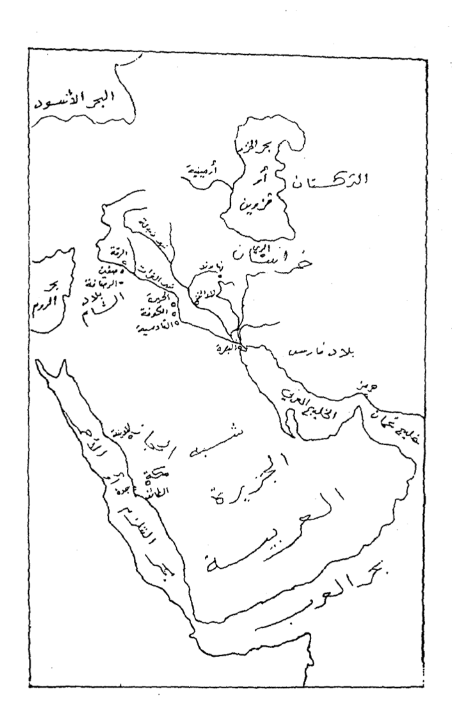
لقد تحقّق مشروع خروج العرب من مجتمعهم الصحراوي فكانت آخر هجراتهم إلى بلاد ما بين النهرين والهلال الخصيب. لا بل إنهم تعدّوا هذا الإطار الضّيق وصولاً إلى آسيا الصغرى، وآسيا الغربية والوسطى حتى الهند، وشمال أفريقيا والأندلس، وجنوب فرنسا حتى مشارف باريس.

ففي جوّ الصراع، خاصة في مكّة، بين الظلم والاستغلال من جهة، والعدل والمساواة من جهة أخرى، وبين الفقر والحاجة من جهة والبحبوحة من جهة أخرى، كان لا بدّ للمجتمع العربي من أن يفتش عن شخصية تنقله إلى عالمه الجديد. هذه الشخصية هي شخصية النبيّ محمّد ﷺ الذي ولد ليقود ثورة إجتماعية ضدّ الفقر والظلم والجهل وعدم المساواة.

لقد كانت الأجواء مهيّأة للانتقال، فكان الإسلام.

فبعد واقعة الفيل رأى القيّمون على مدينة مكّة ضرورة إحداث بعض التغييرات، فأُعيد بناء الكعبة وعدّل شكلها، وتمّ تهذيب بعض ممارسات الحج وطقوسه، وبدأ تيار انتقادي للوثنية في بلاد العرب. ولـمّا لم تستطع ديانات العصر أن تكون البديل عن هذه الوثنية، استطاع الإسلام أن يحقّق ذلك.

خريطة بلاد العرب قبل الإسلام



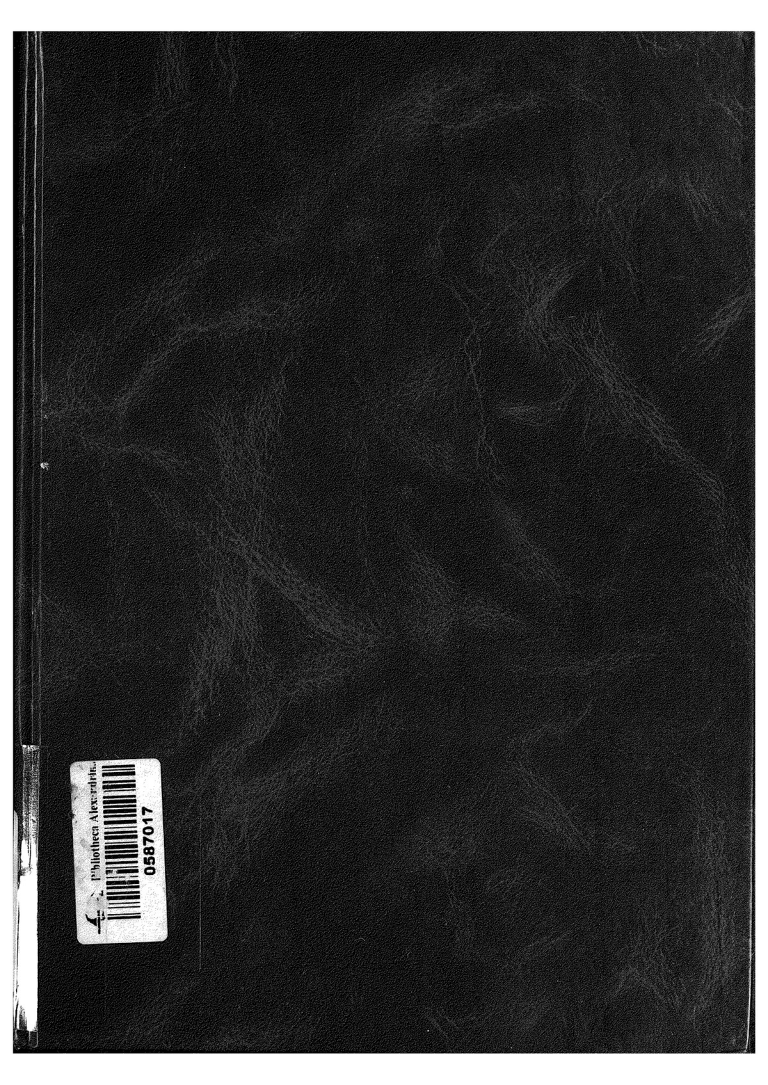
فهرس الجزء (١)

الخرائط:









Bibliotheca Alexandrina
0587017